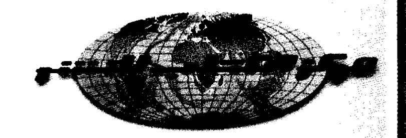
مأمون غريب

أضواء من السيرة العطرة

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٠



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

صدق الله العظيم

قال رسول الله ﷺ

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين"

حديث شريف



جاء النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ليغير ملامح الحياة للدنيا كلها. فقد كانت رسالته رسالة لكل الأمم والشعوب.. وكانت رسالته هى ختام الرسالات السماوية على الأرض.

رسالة تصحح المفاهيم الخاطئة عند البشر، وتعيد للإنسانية رشدها وكرامتها، وترسم خريطة واضحة المعالم والقسمات على ما ينبغى أن يكون عليه المسلم.

فهى ترسم له أن الإسلام هو عقيدة التوحيد الخالص.. وأن الحياة ما هى إلا جسر لعالم خالد.. وأن دستور هذا الدين وقوامه هو العمل بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله.

ويوم نعى هذه الحقيقة سوف نكون خير أمة أخرجت للناس، تقدماً وعلماً وحضارة ومساهمة فى إثراء الحياة.

والإسلام يدعونا إلى قراءة كتاب الكون، كما نقرأ كتاب الله.. وهذا يعنى أن نساهم بإيجابية فى صنع الحياة.. ولا ننسى نصيبنا منها فى الوقت الذى نعمل على الارتفاع والسمو بأرواحنا بأداء ما فرض علينا من فرائض، والبعد عما نهانا عنه الإسلام من المحرمات التى تضر بنا وبالآخرين.

وفى رسول الله ﷺ أسوة حسنة لنا، فقد كان خلقه القرآن كما كانت تقول عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

كان فى أخلاقياته مثلاً أعلى لكل من يريد أن يقتدى به.. وكيف كان عليه الصلاة والسلام وفياً. زاهداً فى دنياه.. محباً للعمل، مخلصاً لدينه،

سيد العُبَّاد، وسيد المتقين، مجاهداً.. محباً للآخرين، وكيف جاهد عليه الصلاة والسلام.. حتى أصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الكافرين هى السفلى.

إن أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام كان عظيماً فى كل شئ..

وكانت رسالته هى الرسالة المتكاملة، والتى انتشرت لتكاملها وعظمتها فى أنحاء العالم.. من الصين حتى الأندلس فى سنوات قليلة.. واعتنقها حتى الذين حاربوها فى أول الأمر كالتتار مثلاً.. لما فيها من سمو أخلاقى، وعظمة التشريع.. وصحيح الاعتقاد.

وفى هذا الكتاب قبس من أنوار الرسالة الخالدة.. وقبس من حياة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.. لعلنا نقتبس من هذه الأنوار ما يضئ لنا معالم الطريق لدنيانا وأخرانا.

وأتركك مع صفحات الكتاب..

مأمون غريب

قبل أن يشرق النور

ساد العالم قبل الإسلام فلسفات لا يمكن أن ترسم طريقا واضحا للإنسان . ولا تحدد له أهدافه . . ولا تبين له ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه فى المجتمع . . كانت فلسفات قاصرة لا يمكن أن تبنى الإنسان وتبنى الحياة.

وكانت هناك ديانات سماوية كاليهودية والمسيحية ولكن كلتا الديانتين حرفتا . . حرف اليهود التوراة . . واعتنق المسيحيون التثليث . . وبعدت بذلك عن التوحيد . . وأصبح الله ثالث ثلاثة . . كما انتشرت المانوية والمزدكية فى فارس، وهما مذهبان يجيزان اللذة والاستغراق فى الجنس.

عالم يسوده الفساد والإفساد . . وعدم وضوح الرؤية لحياة أكثر نضجا وسلامة وفهما للحياة وما وراء الحياة.

ولنقف عند الجزيرة العربية حيث خرج منها نور رسالة الإسلام . . ونرى كيف تأثرت بأحداث العالم، وكيف تأثر العالم بما يجد فيها من أحداث . .

والجزيرة العربية . . بموقعها الجغرافى كانت قريبة من حضارات مزدهرة . . الحضارة المصرية القديمة . . والحضارة البابلية . . ثم الرسالات التى خرجت من الشام . .

فالقسم الجنوبى منها وهو اليمن، والقسم الشمالى الذى يقترب من حدود الشام . . اقترب من حضارات العالم وتأثر به . . فكان أكثر حضارة من الأطراف الوسطى من الصحراء . . التى تشمل نجد والحجاز . . حيث ابتعدت هذه الأجزاء عن الحضارات القريبة منها . . نظراً لأنها وسط صحراء

جافة قاحلة لا زرع فيها ولا نبات . . وكان من الصعب على القوى المسيطرة على العالم فى هذا الزمان المغامرة بالدخول إليها . . لأنه لن يكون هناك عائد مادى من غزو هذه البلاد، بجانب المخاطر التى يمكن أن يتعرض لها من تسول له نفسه السيطرة على تلك البلاد القاحلة . . بما فى ذلك أيضا وعورة الطرق . . وقحط الحياة.

بينما نرى اليمن قد اتصلت بالحضارة المجاورة لقربها من الحبشة . . كما اتصلت أيضا بالهند، والعراق . . والشام . . كما أيضا اتصل شمال الجزيرة العربية بهذه الحضارات من خلال احتكاكهم بالفرس والرومان . . ومن المعروف أن اليمن ازدهرت بها حضارة عريقة نظرا لخصوبة أرضها . . فعاشت فى رخاء، إلى أن حدثت كارثة انهيار سد مأرب، فتفرق سكانها فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وذهب بعضهم إلى يثرب وهما (الأوس والخزرج) . . واستوطن بعضهم فى الشمال وهم الغساسنة، بينما توجه المناذرة إلى الشرق . . ولكن وسط الجزيرة كما قلنا كان يعيش فى فقر وفاقة . . وكانت أكثر هذه الأمكنة تحضرا هى مكة . . لأنها بجوار بيت الله الحرام.

فكان يفد إليها الحجاج من كل أنحاء شبه الجزيرة . . فكان احتكاكهم بمختلف القبائل دافعا لهم إلى معرفة الكثير من عادات العرب وتقاليدهم وأنسابهم أيضا . . وكان لاشتغال أهل مكة بالتجارة، بجانب أنها طريق للقوافل بين الذاهبين إلى اليمن جنوبا، أو المسافرين إلى الشام شمالا . . كل ذلك كان وسيلة لجعلهم أكثر تحضرا عن بقية سكان وسط شبه الجزيرة العربية . . وهذه الحضارة جعلت لهم قيما يتعارفون عليها منها :نصرة المظلوم، والوقوف بجانبه ضد الظالم . . والذود عن الشرف، ومعارضة السرقة . . وتأمين قوافل التجارة . . كل ذلك تمثل فيما سموه حلف الفضول، والذى أشاد به النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاءته الرسالة بقوله:

– لقد شاهدت فى دار ابن جدعان حلفا لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت.

وكان الرسول قد شاهد ميلاد هذا الحلف فى صباه.

وكان من الطبيعى أن تتأثر هذه المنطقة من العالم بما حولها من عبادات وأفكار . . غير أن الوثنية اتخذت لها من مكة بالذات مقرا، فامتلأ بيت الله الحرام بالأوثان . . بجانب انتشار الوثنية فى مختلف مناطق شبه الجزيرة . . فإذا بكل قبيلة تعبد صنما . . وبلغ من تغلغل هذه العبادة فى نفوسهم، أنهم كانوا يأخذون معهم فى أسفارهم هذه الأصنام تبركا بها.

أما سبب انتشار الوثنية فى بلاد العرب، فترجع إلى أن عمر بن لحى. . وكان ذلك فى عهد العماليق . . خرج إلى تواب فى أرض البلقاء. . ووجدهم يعبدون الأصنام، فنقلها إلى بلاده . . ويقال انه هو الذى نقل إلى بيت الله الحرام «هبل» . . وهو مصنوع من العقيق. وكان على شكل إنسان، وقد كسرت إحدى ذراعيه، فصنع له أهل مكة ذراعا من الذهب الخالص.

وكان من الأصنام الشهيرة عند العرب، «اللات» التى كان يعبدها أهل ثقيف . . وكان على صورة أنثى وكانت تزين بالذهب والجواهر . .

وهناك أيضا من الأوثان الشهيرة (العزى) وهى بنخلة بين الطائف ومكة. .

وتسللت عبادات الأوثان إلى الجزيرة العربية . . وتغلغلت فى النفوس، وإن كان العرب بينهم وبين أنفسهم مازالت فى أعماقهم دعوة إبراهيم الخليل الذى أقام القواعد من البيت. . فهم يعظمون البيت، ويحجون إليه، ويعتقدون بالله . . ولكنهم اتخذوا من هذه الأصنام وسيلة تقربهم إلى الله ! ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر : ٣].

. . وإذا كانت هذه العبادات الوثنية قد تغلغلت فى أعماق الناس من هذه المنطقة من وسط شبه الجزيرة، فقد تسللت إلى الشمال والجنوب منها العبادات الأخرى كاليهودية والنصرانية.

فاليهودية دخلت الجزيرة العربية، بعد أن هرب عدد من اليهود إليها أعقاب بطش (تيتوس) بهم، وتشريدهم وتصميمه على ألا يعيش يهودى واحد فى فلسطين وكان تيتوس هذا قد حطم الهيكل فى عام ٧٠ ميلادية..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يهدم فيها الرومان الهيكل .. فقد هدم قبل ذلك على أيديهم مرتين .. ومن هنا فقد هربوا إلى شبه الجزيرة .. وخاصة فى الجنوب .. وقد قام عداء بينهم وبين المسيحيين حتى أن ذا نواس الذى حكم اليمن وكان يمقت المسيحيين مقتا شديدا .. ويقال انه هو صاحب المذبحة التى حدثت فى نجران، عندما أقام أخدودا، وأحرق فيه المسيحيين، والتى صورها القرآن الكريم:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البروج: ٤ - ٧].

وكما قام نزاع بين اليهود والمسيحيين فى فلسطين. فقد قام هذا النزاع أيضا بينهما فى الجزيرة العربية .. وقد انتشر اليهود أيضا فى يثرب، وخيبر، ويقال أن ذلك حدث أيضا عندما نزحوا من هذه الأماكن الخفية، عقب هدم سد مأرب.. وكانوا يتباهون على العرب بأنهم أهل ديانة سماوية .. وإنهم هم المختصون بها، وإنهم فوق الناس جميعا. كما إنهم كثيرا ما أشعلوا نار الخلاف بين قبائل الأوس والخزرج.

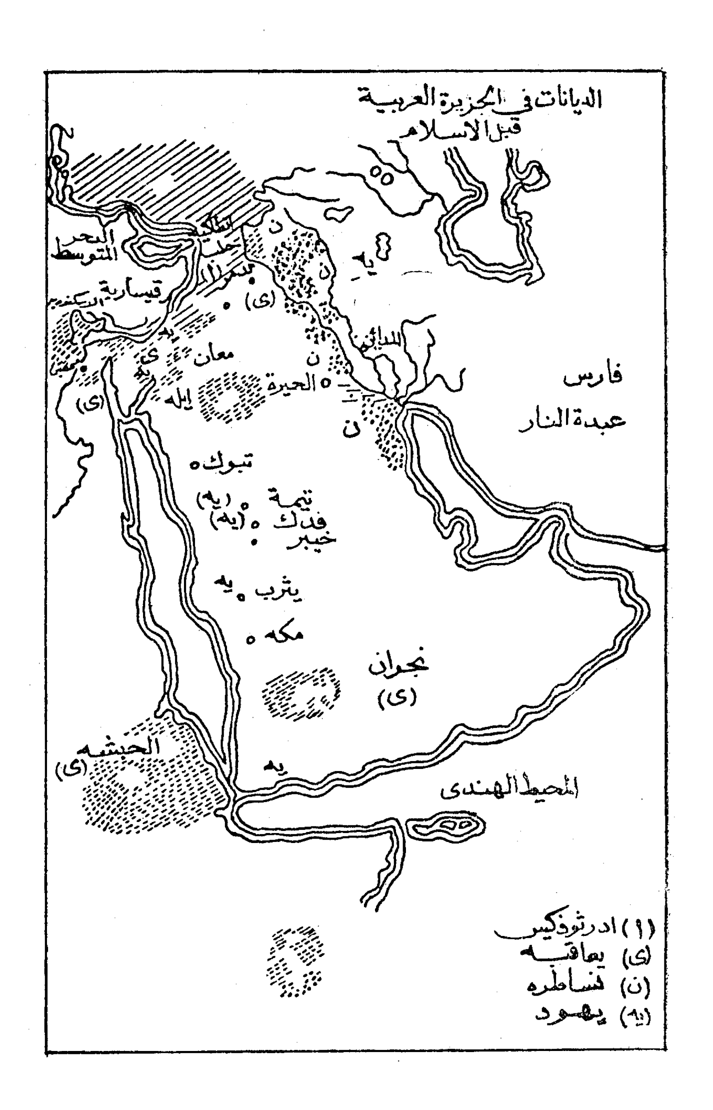
وإذا كانت اليهودية لم تنتشر بصورة جادة لانغلاقها على نفسها كما قلنا فإن الديانة المسيحية هى الأخرى عجزت عن الدخول إلى قلب نجد .. لما فيها من تعقيدات حول طبيعة المسيح .. وحول الثالوث .. وما جرت عليه من خلافات كثيرة بين المسيحيين أنفسهم .. ولم يكن فى استطاعة العقل العربى البسيط أن يدخل نفسه فى متاهات هذا الجدل، ولا هو مستعد بحكم تكوينه، ومحافظته على ما كان عليه الآباء والآجداد من عبادات من قبوله بسهولة، فظل هذا الدين بعيدا عن قلب الجزيرة العربية، وان وجد له أنصار

فى الجنوب فى نجران ثم انتشر فى اليمن عندما استولى عليها الأحباش بأمر من الامبراطور الرومانى جستين الأول . . والذى كان يعتبر نفسه المسئول عن المسيحيين فى العالم، فأراد أن يتخلص من ذى نواس الذى كان يكره المسيحيين وينكل بهم . . وكانت الحبشة خاضعة للحكم الرومانى، ومن هنا فقد توجه جيش حبشى ضخم بقيادة ارياط لليمن واحتلها . . وقضى على حكم ذى نواس، ثم نزل أبرهة وتولى أمور البلاد، وهو الذى أقام الكنيسة الضخمة فى اليمن، والذى أطلق عليها (القليس) . . والذى أراد ببنائها أن يصرف العرب عن تقديس الكعبة . . وأن يتجهوا إليها . . ولكن العرب بحكم تكوينهم رفضوا هذا . . فهم يقدسون أصنامهم، ويرون أن الاعتداء عليها هو اعتداء على تراث آبائهم وأجدادهم . . وأن هذا أيضا يضعف من مكانة مكة بين القبائل . . وما كان من أبرهة إلا أن هاجم مكة بجيش كبير فيه عدد من الفيلة . . وكان هذا الهجوم فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ . .

وفشلت «حملة الفيل» . . عندما تحرك أهل مكة إلى قمم الجبال، وطلب عبد المطلب زعيمهم أبرهة . . أن يرد إليه إبله التى سلبها جيشه أما البيت فله رب يحميه . . وهلك جيش أبرهة . . وقد صور القرآن الكريم بأسلوبه المعجز . . هذه الغزوة بكلمات قليلة . . هى سورة الفيل . .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [**الفيل**: ١ - ٥].

وبجانب هاتين الديانتين، كانت هناك ديانات أخرى، ولكن لا يدين بها إلا عدد قليل جدا من الناس كالصابئة. والصابئون كانوا يعبدون الكواكب . . وكان هناك من يعبد الجن.


الديانات في الجزيرة العربية
قبل الاسلام
البحر المتوسط
قيسارية
معان
الحيرة
ايله
فارس
عبدة النار
تبوك
تيمة (يه)
فدك (يه)
خيبر
يثرب يه
مكه
نجران
(ى)
الحبشه
(ى)
المحيط الهندى
(ا) ادرثوذكس
(ى) يعاقبه
(ن) نساطره
(يه) يهود

وكان هناك أيضا طائفة الحنفاء . . وهم الذين فكروا بعقولهم، ووجدوا أن عبادة الأوثان ضلال وخرافة، وأن عليهم أن يعودوا إلى دين إبراهيم الخليل. . فالأصنام لا تجدى نفعا، ولا تضر أيضا. . وكان من هؤلاء الحنفاء ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة، والذى قصت عليه السيدة خديجة قصة الوحى عندما نزل على النبى عليه الصلاة والسلام، وقال لها: إنه الناموس الذى أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام. .

. . وكذلك كان على الحنفية زيد بن عمرو بن نوفل. . وهو الذى كان يقول فى قريش:

ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى.

وكان الشاعر أمية بن الصلت هو الآخر نصرانيا وكان يتمنى أن يكون هو النبى المنتظر، ولما علم أن الرسالة جاءت إلى محمد بن عبد الله حقد عليه حقداً شديداً، وقد قال عنه الرسول الكريم:

- «آمن شعره وكفر قلبه» . .

الصورة العامة إذن على المستوى العالمى كانت صورة قاتمة . . الحياة فى ظلها فى غاية الصعوبة . . الحكام يحكمون بالبطش والجبروت . . والشعوب قابعة تحت نير هؤلاء الحكام . . خاضعين على كره مذعنين فى استسلام لجلاديهم . . فهم عبيد حكامهم. .

ويكفى أن نعرف إلى أى مدى كان إهدار كرامة الإنسان . . ان المرأة فى ظل القانون الرومانى إذا قتلها زوجها فلا عقاب له. .

وأن المرأة كان يمكن أن يتزوجها ابنها أو أخوها فى ظل القانون الفارسى. . وبهذا ضاعت الأنساب، وتفككت الأواصر الأسرية، وأصبحت الفوضى الاجتماعية هى سمة الحياة فى تلك العصور. .

بشائر مولد الرسول

كانت الحياة إذن فى حاجة إلى نبى يعيد للإنسانية فهمها الصحيح للدين . . والعلاقة بين الله والإنسان . . أى كان لابد من نبى يصحح مسار الحياة، ويرسم طريقا واضحا لما ينبغى أن تكون عليه الحياة من عقيدة وشريعة، وكان المكان الذى نبتت فيه هذه الرسالة . . هو مكة . .

وكان الزمان هو القرن السادس الميلادى . .

وكان الرسول هو محمد بن عبد الله . .

وما أكثر ما قيل عن البشارات فى مختلف الأديان التى تبشر بالنبى المنتظر . . فقد بشرت به الزرادشتية . . وبشرت به التوراة، وبشر به الإنجيل . . ومن هنا فقد تبرز علامة استفهام حول الزرادشتية، وهل يقبل منها هذه البشارة . . التى تنبئ بنبى يخرج من أرض العرب، فيسود بلاد الفرس، وتنشر دعوته فى كل اتجاه.

وهذه البشارة تقول:

- «إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم، يضعفون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس . . ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام . . ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث . . بالمعجزات» . .

وطبعا هذا الكلام قد تحقق . . فقد خرج من بين العرب النبى الخاتم، الذى استطاع أتباعه أن يهزموا الفرس، ويدخلوا بلادهم، ويرفعوا راية الإسلام وينشروا نوره . . وذلك عقب وفاة الرسول الكريم مباشرة . .

فهل يمكن أن نقول أن هذه النبوءة التى وردت عن الزرادشتية تثير علامة استفهام لأنها صدرت عن ديانة غير سماوية؟!

والواقع أنه لا يستبعد أن تكون الزرادشتية فى أصلها قبل تحريفها ديانة سماوية .. وخاصة أن القرآن يذكر لنا صراحة أن هناك رسلا لم يقصصهم علينا..

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨].

ويذكر لنا الأستاذ العقاد فى كتابه (معالم النور) عن جماعة الأحمدية الهندية ونبوءاتهم بقوله:

«ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن إلى اللغة الانجليزية، فإنها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا فى مقدمة الترجمة، قالت فيه نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء، وهى التجلى فى سيناء وقد حصل فى زمانه، والتجلى فى سعير أو جبل أشقر، وقد تجلى فى زمن السيد المسيح، لأن أهل هذا الجبل، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقوم أولاد يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر.. وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران، وهى أرض التلال بين المدينة ومكة.. وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحبون، الحجاج فى تلك الأراضى بالرياض من برية فاران.. وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد إبراهيم .. فلا يسعهم شريط فى الأرض على تخوم كنعان، ولا وجه لإقامتهم، حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها..

.. وأيا كان من أمر هذه البشارات .. فإن هذه التيارات سواء التى وردت فى التوراة أو الإنجيل، قد ذكرها القرآن الكريم، بأسلوبه المعجز بقوله:

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وهذا الكلام لا نسوقه لنبرهن به على صدق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وإن الديانات السابقة عليه قد بشرت به .. فهو صادق وأمين .. ودعوته فيها من الصدق والقوة والبيان ما يجعلها غنية عن كل وسيلة لتصديقها من خلال البشارات ..

فما أكثر ما قيل عن البشارات قبل الرسول ..

ولكننا نشير إلى ذلك مجرد إشارة إصبع من بعيد .. أما الرسالة نفسها فهى رسالة كاملة فيها من العقائد والتشريع ما يجعلها كالشمس لا ينكر نورها إلا مكابر .. مريض العقل، سقيم الوجدان..

ولقد سقنا بعض هذه التيارات فقط ليعرف الذين أنكروا رسالته من كلتا الديانتين .. إنهم كانوا ينكرون النور وسط النهار .. وأن الرسول الكريم نفسه كان يخاطب أهل الكتاب .. بكل الوضوح والمنطق والموضوعية:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة: ١٩].

وكان هذا البشير النذير.. هو محمد بن عبد الله الذى قال عن نفسه كما روى ذلك ابن عباس:

- «لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذبا، لا تنشعب شعبتين إلا كنت فى خيرهما . .».

وقوله عليه الصلاة والسلام:

- «ان الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» . .

ثم كان أروع تشبيه، شبه به النبى عليه الصلاة والسلام دعوته، ومكانتها من مختلف الديانات والرسالات:

- «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» . .

ثم يبلور الرسول العظيم، تلك الإرادة التى لا تعرف أنصاف الحلول . . على تبليغ رسالة السماء إلى الأرض . . دون أن ينسى أنه نبى بشر . . وبتصميم يرتفع إلى أعلى مناسيب القوة والإرادة:

- «بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب . . فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش . . فإن لم يستجيبوا لى . . فإلى بنى هاشم . . فإن لم يستجيبوا لى، فإلىّ وحدى» . .

ومن هنا فقد أخذت الحياة الإنسانية كلها مسارا جديدا، بمولد النور . . بمولد الرسالة المحمدية . . وتغيرت مسيرة التاريخ الإنسانى كله، بما تركته دعوته عليه الصلاة والسلام من تأثير بالغ الأهمية على مسيرة كل الأجيال . . ولا تزال حتى اليوم والغد . . وإلى أن تطوى صفحة الحياة . . بإرادة الله . . تؤدى رسالته عليه الصلاة والسلام دورها فى ترشيد الحياة، واستعادة وعيها وتعمق فكرها . . والأخذ بيدها نحو كل ما هو جليل وعظيم ومفيد . .

الطفولة: فى ديار بنى سعد

مرت طفولة النبى عليه الصلاة والسلام . . لا كما تمر أى طفولة سعيدة فى كنف حنان الأم ورعاية الأب . . ولكنها طفولة فيها تلك المعاناة التى رسمت خطوطها على حياته فيما بعد . . فقد جاء إلى الحياة، ولم ير له والدا . . فقد مات والده وهو مازال جنينا فى بطن أمه . . ووجدت فيه الأم الحنان الذى عوضها زوجها الشاب الذى مات فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار . .

وذهب فى الطفولة المبكرة مع حليمة السعدية فى ديار بنى سعد . . ليشب فى جو الصحراء النقى بعيدا عن الأوبئة التى كانت تجتاح مكة . . وهناك فى هذه البيئة الصحراوية . . وجد الطفل نفسه مع حليمة وزوجها الحارث بن عبد العزى . . يحدبان عليه، ويحبانه حبا جما . . فقد شاهدت ديارهما الخيرات، وبارك الله لهما فى الرزق . . حتى أن حليمة قالت: «لقد قدمنا منازلنا من بنى سعد، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت والله، غنمى تروح على حين قدمنا فيه معنا - شباعا لبنا، فنحلب ونشرب منها. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير».

إن حليمة وزوجها يعيشان فى رغد من العيش، ويشعران أن هذه النعمة بفضل هذا اليتيم، الذى جاءت به إلى البادية، عندما لم تجد غيره من أهل الثراء . . كما فعلت أندادها من المرضعات، ولكن مشيئة الله جعلتها تعيش فى بحبوحة من العيش بعدما كانت تعيش فيه من الفاقة . . فأغنامها تدر اللبن الوفير . . وأرضها تمتلئ بالأعشاب . . والحياة تسير رخاءً . . وهما سعيدان بهذا الطفل اليتيم من بنى هاشم . .

وعاش الصغير عامين فى ديار بنى سعد . . حتى عزف عن الرضاع، وأرادت حليمة أن تعود به إلى أمه، ويبدو أنه كان ينتشر وباء فى مكة. . فقد طلبت حليمة من أمه آمنة أن ترجع به إلى البادية مرة ثانية، بعد أن قرت عين الأم برؤية وحيدها . . إن حليمة قد أحبت الصغير حبا جارفا . . وأرادت أن تستبقيه معها . . فقد رأت على يديه الحياة هانئة لا تضن عليها بشئ . . وأمام خوف الأم العظيمة على الابن أن يصيبه ما تكره، وافقت على أن يعود الصغير إلى البادية . . ففى البادية كان الطفل ينمو بسرعة. . وكان شديد التأمل فى مظاهر الكون من حوله . . عندما يخلو إلى نفسه . . وكثيرا ما كان يلعب مع أخويه من الرضاعة عبد الله والشيماء، وكانت لعبته المفضلة أن يرمى بعظمة فى ظلام الليل، ومن يجد العظمة يكون الرئيس، وكان محمد دائما هو الذى يرمى العظمة ويصل إليها وسط ظلام الليل . . ولكن كثرة تأمل الصغير، وما رويت عنه من حكايات جعل حليمة تخشى عليه أن يصيبه مكروه، فأخذته إلى جده . .

كان فى الرابعة من عمره . . وكان الموسم موسم الحج . . وكان عدد كبير من الحجاج يتجه صوب مكة . . وتاه محمد وسط الحجيج، وانخلع قلب حليمة، وذهبت إلى جده تحدثه عما حدث، وامتطى جده فرسه، وذهب من خلفه ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) يبحثون عن محمد . . وكان الصغير متوقد الذكاء . . فقد شعر أنه وحيد، وأن حليمة ليست بجواره، فانطلق إلى شجرة وجلس تحتها، حتى يأتى من يأخذه إلى جده، وعثر عليه ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو، وحملاه إلى جده عبد المطلب . . وكم كانت سعادة الجد، وكم كانت سعادة الأم وهى تحتضن وليدها الوحيد . . الذى ترى من خلاله الحياة. .

وقررت آمنة أن تأخذ ابنها لزيارة قبر والده، وترى أخوال جده من بنى النجار. . وذهبت معه أمته بركة أم أيمن . . وكانت تحب محمدا حبا جما . .

وفى الطريق كان محمد دائم التأمل فيما حوله من مظاهر الحياة . . النجوم فى كبد السماء . . والطبيعة فى صمتها . . والأصنام التى يعبدها ويقدسها مختلف العشائر والقبائل . . وكان يتأمل فى كل ذلك ويسأل أمه عنها . . وعرف من أمه أيضا قصة زواجها من والده عبد الله، وكيف فداه جده عبد المطلب بمائة من الأبل، فقد كان الجد قد نذر إن رزقه الله عشرة من الأبناء أن يذبح الأخير، وكان عبد الله هو الفداء. . وكان أحب الأبناء إلى قلبه. . واقترح عليه البعض أن يفدى ابنه. . وكان الفداء هو مائة من الأبل.

الرحلة من مكة إلى المدينة

وفى المدينة . . فى يثرب . . شاهد محمد الكثير من هذه المدينة البعيدة عن مكة . . كانت تختلف عن مكة أم القرى . . إن بها حدائق . . وبها جداول ماء. . وهنا تعلم السباحة فى تلك السن الصغيرة، كما شاهد حصون اليهود، وشاهد أيضا الصراع الدائر بين قبيلتى الأوس والخزرج. . وهذه الرحلة ظلت عالقة فى ذهنه طوال حياته، حتى روى عنه قوله بعد الرسالة:

- «كنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرا يقع عليه».

ويقصد بذلك الدار التى نزل بها والتى يمتلكها بنى النجار. .

وقال عنها أيضا:

- «ها هنا نزلت بى أمى، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب».

وأثناء العودة شعر الصغير وأمه فى الطريق إلى أم القرى بالتعب وكان يبدو على وجهها الأعياء الشديد . . وكان قلبه يذوب حزنا على أمه، وهو يراها تحتضن أحب الناس إلى قلبها . . وكأنه كان يحس أن أمه سوف تودع الحياة، فكان دائم النظر إليها وهو يحتضنها، ويتأمل الحنان الخالد وهو يذبل.

وماتت الطاهرة عند (الأبواء) . .حيث دفنت وحيث نزع من حضنها محمد الذى فقد بفقدها حنان الأم العظيم . . وانتزعوه من فوق ثراها، وهو يبكى بأحر الدموع، وحاضنته أم أيمن، تحاول أن تخفف عنه وقع المأساة بلا جدوى . . ويسير الركب الحزين . . بلا أمه الغالية . . إلى مكة . . وينخلع قلب عبد المطلب وهو يشاهد حفيده فى حزنه الصامت البليغ . .

هذا المشهد الباكى الحزين لم ينسه النبى طوال عمره . . وعندما امتدت به أيام الحياة . . زار قبر أمه فبكى وأبكى . .

وكان محمد فى السادسة من عمره عندما تركته أمه وحيدا فى الحياة، فى رعاية جده عبد المطلب وحاضنته أم أيمن بركة الحبشية . . وقد قربه جده إليه حتى انه كان يجرى نحوه وهو جالس فى مجلسه بالقرب من الكعبة، وكلما حاول أعمامه أن يبعدوه عن مجلس جده، كان يأخذه جده ليجلسه فى فراشه وهو يقول:

- دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على فراشه . .

وروى ابن كثير أنه كان يتنبأ لحفيده بأنه سيكون له مركزاً مرموقاً، وأنه قال عنه:

- «دعوا ابنى . . انه يؤسس ملكا» . .

ربما كان يعتقد ذلك لما فى هيئة الطفل الصغير من مخايل الذكاء . . وما تنم عنه طفولته وما ستكون عليه شخصيته من القوة فى مستقبل الأيام، وربما إلهام من الله أن يرق له قلب الجد، ويحدب عليه هذا الحدب العظيم الذى عوضه فقدان الوالدين.

ويمضى عامان . . ويودع الجد الحياة . . فيكفله عمه أبو طالب . . ويرعى الغنم صغيرا . . انه هنا فى مهنة الأنبياء تلك . . لأنه ما من نبى إلا ورعى الغنم على حد تعبير النبى عليه الصلاة والسلام . . وفى مهنته تلك تعلم

الصبر ومعايشة الطبقات الكادحة .. فزادت خبرته بالحياة، كما أنه أصبح يعتمد على نفسه حتى لا يصبح عالة على أحد..

لقد مضت أيام الطفولة .. اقترب إلى سن المراهقة .. وهو فى هذه السن لم يله كما يلهو الشباب .. ولا نازعته نفسه أن يتجه إلى ملاهى القوم وعبث أترابه .. ولكنه كان كثير التأمل .. كثير التفكير فيما يعيش فيه قومه من عادات وتقاليد .. ولم يسجد لصنم قط، ولكنه كان يشعر بالاشمئزاز وهو يرى الناس تعبد أصناما لا تنفع ولا تضر .. وفى الثانية عشرة من عمره يسافر مع عمه للتجارة فى الشام لقد أصر محمد أن يصاحب عمه فى رحلته تلك .. إنه يحب الأسفار..

إنها فرصة ليعود إلى نفسه يتأملها، ويتأمل ما حوله من كائنات.. ويتأمل الكون وما فيه .. ويشاهد عادات الناس وتقاليدهم وأنماط حياتهم .. إنه ينفذ بخياله إلى ما وراء المحسوسات ..وتكاد روحه أن تخترق حجب المادة إلى المطلق.. إلى الخالق العظيم..

لا معنى لما يراه من عادات مهترئة لا تحدد للحياة هدفا..

ولا معنى للسجود حول آلهة من صنع البشر..

ولا معنى لما يراه من تفشى الرذيلة متمثلة فى أصحاب الرايات الحمر.. اللاتى يعشن من بيع أجسادهن..

ولا معنى لهذا التفاوت الكبير بين الذين يملكون والذين لا يملكون..

ولا معنى لوأد البنات بلا جريرة، إلا خوف الفقر والعار..

ولا معنى .. ولا معنى .. أشياء كثيرة كان ينكرها محمد ولا يستسيغها فى مجتمع مكة .. وهو يريد أن يعرف ..

وفى الأسفار يتعلم الكثير من أمور الحياة..

وأخذه عمه معه فى رحلته إلى الشام وكان مازال فى الثانية عشرة من عمره..

لقاء محمد والراهب

وفى الطريق إلى الشام .. وعند قرية الكفر بالقرب من بصرى يلتقى الراهب بحيرا الذى يرى ظواهر عجيبة، تصاحب القافلة.. وأن سحابة تغطى محمدا .. ويدعوهم إلى الطعام، ويدور حوار بين الراهب وبين عمه..

- ما هذا الغلام منك ؟

- انه ابنى ..

- ما هو بابنك .. ولا ينبغى أن يكون أبوه حيا..

- إنه ابن أخى..

- أين أبوه..

- مات وأمه حبلى به..

- صدقت..

- وأين أمه..

- توفيت قريبا..

- صدقت .. ارجع بابن أخيك واحذر عليه اليهود لأن له شأنا عظيما.. أسرع به إلى مكة..

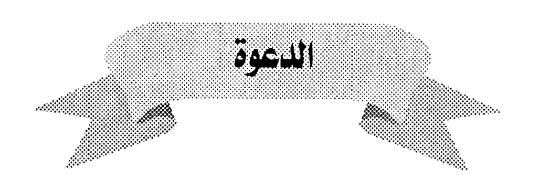
ولم تكن هذه هى الرحلة الأولى التى يخرج فيها محمد خارج مكة، فقد سبق أن سافر مع عمه الزبير إلى اليمن..

وقول الرواة عن رحلته فى اليمن هذا المشهد الذى لا ينسى .. يوم هاج فحل من الإبل .. وثار ثورة عارمة، وتوقفت القافلة عن السير .. ولم يجرؤ أحد على التقدم نحو هذا الفحل الهائج.. ولكن الصبى الصغير محمد ابن عبد الله يتقدم بهدوء وشجاعة منقطعة النظير، يتقدم نحو الفحل الثائر،

ويربت على بطنه بيده الصغيرة بحنان شديد.. وإذا بالفحل الهائج يهدأ.. ثم يبرك على الأرض، ويركبه محمد، وتسير القافلة فى طريقها نحو اليمن.. إنها شجاعة مبكرة لهذا الطفل الذى سوف يغير مسار التاريخ الإنسانى كله..

لقد سمع أبو طالب ما قاله الراهب (بحيرا) الذى أولم لهم وليمة .. ولم تكن هذه عادته، فكم من مرة مرت قوافل قريش على الدير الذى يتعبد فيه، ولم يلتفت إليهم، ولم يدعوهم إلى طعام أو شراب.. ولم يكن أبو طالب يؤمن بأن هناك بشرا يمكن أن يأتيه الوحى من السماء، ولكنه خشى أن يصيب ابن أخيه مكروه.. فيقول الناس عنه انه لم يسمع كلام الراهب.. فبعث بمن يعيد ابن أخيه.

* * *



الدعوة

كانت طفولة محمد كما رأينا طفولة سعيدة رغم ما فيها من أحزان لفقد أعز الناس لديه . . توفى أبوه وهو فى بطن أمه، وتوفيت أمه وهو فى السادسة من عمره، وجده وهو فى الثامنة من عمره . . حتى أنه ورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام:

- «لقد ولدت والحزن رفيقى» . .

ورغم أحزان النبى الكريم. . فقد كان يتسم بصفات رائعة. . الخلق الكريم. . والشجاعة. . الأمانة. . وسماه أهل مكة بالأمين. . كما كان راجح العقل، عفيفا. .

وفى طفولته اشتغل برعى الأغنام، ثم ذهب إلى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره مع عمه، وفى المرة الثانية ذهب إليها وكان فى الرابعة والعشرين من عمره. . أمانته على كل لسان. . وعفته وطهارته ليست موضع شك من أحد، وتاجر فى مال السيدة خديجة، عندما عرفت فيه نبله وأخلاقه وشخصيته، وفى الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد. . لقد أعجبت به لما كان عليه من سمات خلقية ممتازة، وهى من بنى زهرة. . وكانت فى نحو الأربعين من عمرها. . لقد عاد محمد إليها بأرباح كثيرة بعد أن باع ما معه من بضائع حملها معه من مكة. . واشترى بأثمانها بضائع من الشام. . وكان من العادة أن يأخذ التجار ما يؤتى من الشام للتجارة فى اليمن. . لقد أرسلت خديجة إليه من يعرض عليه أن يتزوجها واختارت لهذه المهمة نفيسة بنت منية. .

ودار حوار بين نفيسة وبين محمد عليه الصلاة والسلام وقالت له: ما يمنعك من أن تتزوج؟.

قال لها: ما بيدى ما أتزوج به..

- فإن كفيتك ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة.. ألا تجيب؟

- من هى؟

- خديجة..

- وكيف لى بذلك؟

وذهبت نفيسة إلى خديجة بردود محمد عليها، فأرسلت إليه لمقابلته، وقالت له:

- يا ابن عم قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك (مكانك فى قومك) وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك..

وذهب الأمين إلى عمه يحدثه عن رغبته فى السيدة خديجة، ووافق أبو طالب وخطبها لابن أخيه، وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية من الذهب ونصف أوقية..

وبهذا الزواج عاش محمد بعيدا عن الفاقة.. يتاجر لها فى مالها.. ولا ينسى أبدا تفكيره الدائم، وتأمله الطويل.. ولا نزل إلى سفاسف الأمور.. ولا تغيرت مسيرة حياته.. بل ظل محمد الإنسان المتواضع.. الذى يلين قلبه أمام الضعف الإنسانى.. ويحيا حياة بسيطة هادئة بعيدة عن اللهو أو العبث.. وعرفته مكة بعد الزواج كما عرفته قبل الزواج.. الإنسان الذى يعيش للناس.. ويعيش بينهم أمينا وقورا.. محبوبا من الجميع.

وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره عندما عزمت مكة على إعادة بناء الكعبة. وكانت قد اتفقت أن يكون بناؤها من مال حلال، ولا يدخل فيه ربا ولا مهر بغى ولا أى مال حرام.. وعندما وصل البناء إلى مكان الحجر الأسود اختلفت القبائل أيها يكون له شرف وضع الحجر مكانه.. وكادت

تنشب الحرب، لولا أن أشار أحد عقلائهم أن يحكموا أول داخل لبيت الله الحرام، وكان الداخل هو الشاب الأمين محمد بن عبد الله، فارتضوه حكما. . وأشار عليهم أن يحضروا ثوبا وأن يضع الحجر فوق الثوب، وأن تحمل كل قبيلة من طرف، ثم أخذ الحجر ووضعه مكانه، وهكذا استطاع محمد بن عبد الله، أن يوقف مجزرة دموية كان يمكن أن تحدث بين قبائل مكة وعشائرها لولا حكمته ورجاحة عقله. .

كان محمد عليه الصلاة والسلام ناضجا. . وقد عرفته مكة عزوفا عن كل ما يمس الشرف والقيم النبيلة، دائم التفكير، كثير التأمل، ما عبد صنما. . ولا قدسه، ولا حلف بآلهة مكة فى يوم من الأيام ولكنه كان يريد أن يعبد الله على دين إبراهيم، وكان الأمد بعيداً بين عصر إبراهيم وعصر محمد عليه الصلاة والسلام. . كان يتجه إلى الله بنظراته. . أما كيف كان يعبد الله على دين إبراهيم. . فلم يكن أحد يعرف ذلك على وجه الدقة، ومن هنا فقد فهم المستشرقون ـ خطئاً ـ قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٦، ٧].

فقالوا إن محمدا كان ضالا فى عبادته. . وهذا فهم خاطىء بالطبع. . فلم يكن ضالا بمعنى يخالف القيم الأخلاقية، ولكن كان يريد أن يهتدى بالفطرة على دين إبراهيم، حيث يعبد الله حق عبادته، عبادة معرفة، ولكن هذه المعرفة جاءت عندما جاءه وحى السماء:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومما ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام قوله. وهو يصور أشواقه للمعرفة. لأن المعرفة هى لب العبادة فقال:

«المعرفة رأس مالى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة بالله كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا

غنيمتى، والعجز فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خلتى، وقرة عينى فى الصلاة». .

لقد أخذ النبى يتعبد فى غار حراء. . قبيل البعثة. . وكان دائم التفكير. . فكانت هذه الفترة فترة إعداد له لتلقى الرسالة العظمى، وكانت البداية الرؤيا الصالحة. . وقد عبر عن ذلك بقوله:

«إن أول الوحى كان بالرؤيا الصادقة. .»

فكانت دائما تتحقق رؤياه، وعن طريق هذه الرؤى الصادقة، شفت روحه. . وانطلقت هائمة فى رحاب الكون. . باحثة عن روح الوجود. . عن خالق الوجود. . وعندما وصلت الشفافية إلى ذروتها. . وهو يتأمل فى غار حراء. . وكانت نزول أول آيات القرآن الكريم. . نزل بها إليه الروح الأمين جبريل عليه السلام. .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [**العلق**: ١ - ٥].

وبدأت الرسالة العظمى. . على يد محمد بن عبد الله. . ذلك الإنسان الودود. . المتناسق الجسم، الجميل الوجه، والذى كان لتكامل صورته أثر كبير فى نشر دعوته. . ولنقف عند هذا الرجل الذى سمع بدعوة الرسول الكريم. . وعندما شاهده. . ورأى فيه الجلال والمهابة. . وإشراقة الوجه. . ودار بينهما هذا الحوار السريع. .

- من أنت؟

- محمد بن عبد الله.

- أنت الذى تقول عنه قريش انه كذاب؟ . .

- نعم.

- ليس هذا بوجه كذاب. . ما الذى تدعو إليه؟

- الإسلام.

وما كاد الرجل يعرف من النبى مبادئ الإسلام حتى دخل الإيمان إلى قلبه.. وأعلن إسلامه.

- ولنقف عند وصفه عليه السلام.. حتى تقترب معالم الصورة إلى الأذهان.. ومن أشهر من وصفوه عليه الصلاة والسلام أم معبد التى مر بها الرسول الكريم مع الصديق وعامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أريقط، وهم فى طريقهم إلى يثرب وقالت:

«رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبه ثلجة، ولم تزر به صلعة، قسيم وسيم، فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل، أزج.. أقرن، فى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار.. وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل لا نذر ولا هذر.. كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن. أبهى الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب.. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدا، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند»..

وهذا الوصف بلغة العصر.. إنه كان جميلا، وكان مشرق الوجه. متناسقا فى تكوينه الجسمانى، كانت حبة عينيه شديدة السواد.. طويلة الرموش، وفى صوته بحة تجعل صوته ينفذ إلى أعماق السامع، يحبه من حوله رغم أنه لا يستعلى على أحد، وأنه كان شديد الجاذبية، آسرا للقلوب عندما يتحدث..

وكل هذه مقومات الداعية العظيم، الذى جاء على فترة من الرسل.. ليضىء للحياة مسالكها المظلمة، ويعيد إليها وعيها المفقود..

بدأت الدعوة.. وكان التساؤل إلى من يدعو النبى أولا.. وكان الأمر الإلهى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤ - ٢١٧].

وكان أول من اتبعه زوجته الوفية خديجة بنت خويلد.. ورأى علىّ بن أبى طالب وكان صبيا ذات يوم ابن عمه العظيم يصلى ومن خلفه خديجة وارتسمت فى ذهنه علامات استفهام كبيرة، ما الذى يشاهده.. وسأل ابن عمه العظيم عما يفعلان. وفهم منه انه يقيم الصلاة؟ أى صلاة..؟

علمه محمد الصلاة، وطلب منه أن يسلم، ولكن بعد أن يشاور والده أبا طالب.. وأفهمه حقيقة الإسلام، والدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له.

وفكر الصبى المتقد الذكاء كثيرا.. ثم جاء إلى النبى يعلن إسلامه وهو يقول له:

- لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله.

وكان علىّ أول صبى يدخل الإسلام..

وتبعه صديق النبى الكريم أبو بكر بن أبى قحافة التيمى. وبإسلام أبى بكر، دخل الإسلام على يده عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، وابنتا أبى بكر أسماء وعائشة.

.. و.. بدأت الدعوة تأخذ طريقها.. ووقف النبى الكريم الذى ما عرفت عنه قريشا كذبا ولا ادعاء، يدعو إلى الإسلام، صعد جبل الصفا.. والتف حوله أهل مكة، يريدون أن يعرفوا ماذا يريد الأمين أن يتحدث به، ولكن يا هول ما سمعوا على آذانهم.. إنها دعوة جديدة.. دعوة تسفه عقيدة

الآباء والأجداد.. ترميهم بالجهل والغباء.. تصفهم بأنهم لا يقدرون الأمور.. ولا يعرفون نور الله.. أذلتهم عبادة حجارة صماء بكماء..

.. يا لهول ما سمعوا.. إنهم يريدون الحياة، أسيادا فى مكة.. البيت الحرام يضيف إلى مكانتهم بين القبائل بعدا عظيما، وهم أهل تجارة، يريدون الحفاظ على مكاسبهم وعلى احترام القبائل لهم.. إنهم إن كانوا يعظمون البيت الحرام فهذا التعظيم متوارث من أيام خليل الرحمن، أما تسفيه أحلامهم.. والدعوة إلى ترك كل ما ترك الآباء والأجداد من معتقدات. والاتجاه إلى عبادة الله الواحد الأحد. فشىء لم يألفوه ولم يفهموه.. فإدراكهم لا يصل إلى هذا المستوى الرفيع من التجريد، إن الله خالق واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد..

استمعوا إليه وهو يقول:

- يا معشر قريش.. هل عرفتم عنى كذبا أو بهتانا..

- ما عرفنا عنك كذبا ولا بهتانا..

- إذن اسمعونى.. لو قلت لكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى؟

- بلى..

- إذن فاسمعوا جميعا، فإنى نذير لكم.. يابنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف.. يا بنى زهرة.. يا بنى مخزوم.. يا بنى تميم.. يا بنى أسد..

لقد أمرنى الله ربى وربكم أن أنذركم فأنتم عشيرتى الأقربون، وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تشهدوا معى أن لا إله إلا الله..

ولم يكد يتم النبى خطابه حتى أصابهم الدوار.. لقد زلزلوا زلزالا شديدا.. ضاقت بهم الأرض بما رحبت..

رسالة رسول..

والرسول من بنى هاشم..

ماذا يريد محمد من تسفيه أحلامهم؟.. ودعوتهم إلى دين جديد..

هل يريد الرئاسة عليهم..

ويجيبه أقرب الناس إليه.. عمه أو لهب.. وسط صدمة المجتمع المكى..

- ويلك.. ألهذا دعوتنا..

وانقلب المجتمع الهادئ.. إلى مجتمع ثائر.. إن ما حدث ليس شيئا سهلا.. ولا هينا.. لطالما شهد هذا المجتمع بعض الناس الذين تحنفوا.. أو الذين تنصروا.. ولكن دعوتهم لم تتجاوز حدود أنفسهم.. لم تكن دعوة عامة.. ولكنها كانت اعتقادا شخصيا كما أن أى واحد من هؤلاء الدعاة لم يكن له شخصية محمد، ولا بلاغة محمد وفصاحته.. ولا مركزه الاجتماعى كرجل من أعز بيوتات قريش.. و.. لم يجاهر أحد منهم أنه جاء بأخبار السماء..

قامت عاصفة عاتية فى مكة.. وتسامع الناس بما جرى وشعر الكل بأن أحداثا بالغة الخطورة سوف تحدث.. فمحمد فى قمة النضج الفكرى.. وليس بالإنسان الذى يلين بسهولة.. ويرتد عما يدعو إليه.. ثم انه يقول أنه ينزل عليه قرآن.. فيجتمعون.. وليحاولوا أن يحولوا بين محمد وبين نشر رسالته.. وليحاولوا أن يعيبوا عليه رسالته.. ولكنهم يقفون عاجزين أمام بلاغة ما ينزل عليه من وحى..

إنهم يتساءلون.. هل يمكن أن يكون هناك عالم آخر؟.. وهل الإنسان الذى يتحول إلى رماد يمكن أن يعود كما كان.. و.. يأتيهم وحى السماء..

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٧].

وبدأ الجهاد العظيم فى سبيل الدعوة.. فالأمر ليس سهلا.. ولا هينا.. إن قريشا أصابها الزلزال.. فإذا بهم يفقدون توازنهم.. وإذا بمحمد الذى كانوا يطلقون عليه الأمين لصدقه وعفته وطهارته.. أصبحوا يسخرون منه عليه السلام.. ويقولون عنه:

- هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء..

وظنوا بذلك إنهم سيرجعون النبى عما ينادى به، وأنه سيضعف لسخريتهم،.. ولكنه كان صلب العود، قوى العزيمة، وقد رد القرآن الكريم سخريتهم إلى نحورهم وهو يسخر من جهالتهم وعبادتهم لأوثان لا تنفع ولا تضر:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

وأخذت قريش تعذب من أسلم مع النبى، ولم يسلم من أذاهم أبو بكر الصديق وهو من هو من المكانة فى أهله، فقد حاولوا خنقه ذات مرة وهو يقرأ القرآن فى بيت الله الحرام.. وعذب الحكم بن العاص ابن أخيه عثمان ابن عفان، كذلك هددت أم سعد بن أبى وقاص ابنها بالصيام حتى الموت أو ترك دين محمد.. ولكن هؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالدعوة، وتغلغلت إلى أعماق نفوسهم، ولم يرهبهم الوعد أو الوعيد.. وظلوا بجانب النبى يتحملون ما يتحملون مهما كانت الصعوبات.. فقد عرفوا طعم الإيمان، وروعة اليقين.. وكان من الصعب عليهم العودة إلى الكفر..

وإذا كان كفار قريش فعلوا هذا فى سادات قريش، فقد كان انتقامهم من الفقراء والمستضعفين يفوق حد التصور.. ولقد عذب عمار بن ياسر، ووالده عذابا بالغ القسوة.. فقد أحرق أبو جهل دارهم، وأغرى بهذه الأسرة المؤمنة سفهائهم.. فإذا بهم يلقون عليهم أشد ألوان العذاب.. كالضرب بالسياط، والكى بالنار، وجرهم بالسلاسل فوق رمال الصحراء المحرقة، ويمر بهم رسول الله ذات يوم، ويبلغ به التأثرمداه، ويقول لهم:

«صبرا آل ياسر وأبشروا فإن موعدكم الجنة».

وترتفع معنويات هذه الأسرة إلى الذروة وهم يرون الرسول العظيم ويقول ياسر للرسول:

- الدهر هكذا يا رسول الله..

- وهو يقصد بذلك أنه سيظل على دينه أبد الدهر.. ما دام فيه قلب ينبض بالحياة.. واستشهدت سمية، وكانت أول شهيدة فى الإسلام، واستشهد ياسر، وكان أول شهيد فى الإسلام، وظل عمار يتحمل الأذى، حتى أرغموه أن يذكر آلهتهم بخير.. ففعل تحت قسوة العذاب، وهون عليه الرسول الأمر لأن قلبه ملىء بالإيمان، ونزل فيه قوله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [**النحل**: ١٠٦].

وظل عمار يفتح له الإيمان طريقا لتحمل العذاب، وهاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة ليكون واحدا من الرعيل الأول فى الإسلام... وعذب بلال بن أبى رباح عذابا بالغ العنف، فكانت توضع الأحجار على بطنه العارى على رمال الصحراء.. وكان عزاؤه أنه يردد بكل الإيمان..

- أحد.. أحد.. أحد.. أحد..

ولم يرحمه سيده أمية بن خلف، إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه..

ووسط كل هذه الآلام كان النبى العظيم لا يشك طرفة عين بأن دين الله سوف ينتصر.. وترتفع راياته، وهو الذى قال (لخباب بن الأرت) الذى عذبته قريش، حتى ظهر أثر العذاب على جسده، وطلب من الرسول أن يدعو الله ليخفف عنهم العذاب.. قال الرسول العظيم:

- انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم، فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه.. والله ليظهرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء باليمن إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه..

يا لعظمة الرسول الكريم.. كل هذا الإيمان لا يزعزعه قيد شعرة ما يراه من اضطهاد وتعذيب فاق كل تصور وخيال لاتباعه.. أيكون غريبا بعد ذلك أن يقول النبى العظيم كلمته الرائعة، يوم حاولت قريش وقد أعيتها كل الحيل أن يرجع محمد عن طريقه وأن تعرض عليه الملك والجاه والمال، وأن يسكت عما ينادى به، ليقول لعمه:

- «والله يا عماه.. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

تحمل ما يفوق طاقة البشر.. ولم يجد عمه أمام هذه الإرادة إلا أن يشجع ابن أخيه على دعوته وهو يطمئنه أنه سيقف بجانبه، ولا يسلمه لهم..

.. وأخذت قريش تتحدى النبى أن يأتى بمعجزات، وهو يقول لهم إنما هو بشر رسول، ومعجزته هى القرآن الكريم.. ويصور القرآن الكريم بكلامه المعجز هذا الموقف بقوله:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي

السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣].

وأخذت الدعوة تشق طريقها إلى القلوب، ولكن ببطء، ويدخل الإسلام عدد من الأقوياء الذين تهابهم مكة كحمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، ويشتد ساعد الإسلام بإسلامهما، لكن قريشا تعاود عنفوانها وجبروتها.. ويتسرب منها أخبار الدين الجديد إلى خارج مكة.. إلى قبائل كثيرة من المحيطين بها، أو الذين يأتون إلى مكة للتجارة أو الحج، ويؤمن البعض بما جاء به النبى الخاتم.. كأبى ذر الغفارى الذى جاء من قبيلة غفار، وقد أعلن إسلامه.. وتعرض للضرب المبرح من مشركى مكة، ولم ينقذه إلا العباس عم النبى ﷺ من أيديهم، وينفد صبر مكة أمام قوة المؤمنين، وتمسكهم بدينهم.. وعمق إيمانهم.. وقد قررت مكة أن تتخذ قرارا خطيرا، فيه قطع للرحم، وظلم ذوى القربى،عندما قرروا مقاطعة المؤمنين.. وحصارهم فى شعب أبى طالب لا يتزوجون منهم، ولا يتاجرون معهم، ويقاطعونهم مقاطعة كاملة وكتبوا بذلك صحيفة ظالمة.. ولقد طال الحصار لمدة ثلاث سنوات إلى أن رق لحالهم بعض رجال مكة، واتفق خمسة منهم أن يقوموا بنقض الصحيفة، وكان هؤلاء الخمسة هم: هشام بن عمرو.. وزهير ابن أمية.. والمطعم ابن عدى.. وزمعة بن الأسود.. وأبو البخترى ابن هشام.. والذين قاموا فى الكعبة يدعون الناس إلى فض الصحيفة الظالمة، وتصدى لهم أبو جهل.. ولكن الأغلبية كانت بجانب الأصوات التى تقف مع هؤلاء الخمسة، والذين رقت قلوبهم لبنى هاشم وبنى عبد المطلب، ووافقوا على نقض هذه الصحيفة.. وكان النبى قد قال أن الأرضة قد أكلت ما فى هذه الصحيفة من جور.. ولم يبق فيها إلا اسم الله..

وعندما فضوا الصحيفة.. وجدوا أن ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام كان شيئا أكيداً.. ولكنهم بدل أن يرضخوا للحقيقة، قالوا ما عرف محمد ذلك إلا لأنه ساحر..

فى بلاد غريبة

وكان النبى قبل الحصار.. قد أمر أصحابه بالهجرة للحبشة.. وكان قد سبق أن هاجر بعض المسلمين.. فهاجر عدد منهم قدر بنحو ثلاثة وثمانين رجلا، وثمانى عشرة امرأة.. وكان من بين هؤلاء جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس، وعبد الله بن مسعود، والمقداد بن عمرو.. وعبد الله بن جحش وزوجته أم حبيبة.. والتلقى المسلمون فى الحبشة من هاجر من قبل المهاجرين الجدد.. وعاشوا هناك فى أمان فى ظل (أصحمه) نجاشى الحبشة.. وكان هذا الملك يدين بالمسيحية.. وكأن قريشا أبت أحقادها ألا تترك هؤلاء الذين تركوا بلادهم إلى بلاد غريبة، فراراً بدينهم من بطشهم وجبروتهم.. ولم تكتف مكة أيضا بما تفعله بأفلاذ أكبادها من تنكيل وتعذيب وإرهاب.. فأرادت أيضا أن تذهب وراء المسلمين أينما ذهبوا..

فأرسلت بعمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبى ربيعة، ومعهم هدايا لنجاشى الحبشة وحاشيته، حتى يطردهم من دياره. ويعودوا مرة أخرى إلى مكة لتستبد بهم.. وتسومهم سوء العذاب.. وحاول الرجلان إغراء النجاشى بالمسلمين، ولكن الرجل أبت مروءته ألا يصدر حكما دون أن يسمع دفاع المسلمين على إدعاءات رسل مكة.. ووقف جعفر بن أبى طالب يتحدث بلسان المسلمين فقال:

- «يا أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى بالفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويظلم القوى منا الضعيف، فكلنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه. وأمانته وعفته فدعانا إلى عبادة إله واحد، وأن نخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من أحجار وأصنام وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم،

وحسن الجوار.. والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم.. وأمرنا بالصلاة والصيام، فآمنا به،واتبعناه، فعدا علينا قومنا فعذبونا ليردونا عن ديننا إلى عبادتهم، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى ديارك، واخترناك على من سواك. ورغبنا فى جوارك. ورجونا ألا نظلم عندك..».

وطلب النجاشى منه - وهو يستمع إلى تلك الكلمات الواضحة من جعفر ويرى من خلالها القيم النبيلة التى انطوت عليها رسالة محمد ﷺ. وكأنه يريد أن يستمتع أكثر بما فى هذه الرسالة من قيم بالغة السمو - أن يقرأ شيئا مما جاء فى الكتاب الذى أتى به محمد.. فأخذ جعفر يقرأ له قوله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾ [**الأنعام**: ١٥١ - ١٥٣].

وأطرق النجاشى صامتا وهو يستمع إلى تلك الآيات من سورة الأنعام.. وقال لمن حوله:

- «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»..

وقال لعمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة:

- «انطلقا إلى قومكما فو الله لا أسلمهم لكم أبدا»..

ويبدو أن عمرو بن العاص المعروف بمكره ودهائه، قد شق على نفسه أن يعود إلى مكة يجر أذيال الفشل، وأن دهاءه قد عجز أمام بيان جعفر الصادق وصدقه.. فأراد أن يوقع بين النجاشى والمسلمين، فقال له وهو يعلم حرص النجاشى على دينه: إنهم يقولون فى المسيح قولا فظيعاً.. وهنا سأل النجاشى جعفر رأى الإسلام فى عيسى.. فقال جعفر:

- «نقول فيه أيها الملك ما قاله الله بشأنه، وما قاله نبينا.. فهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، خلقه بكلمة كن، فكان من غير أب ليكون آية للناس»..

وقرأ قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ١٦ - ٢٦].

وهذه الآيات من سورة مريم. استمع إليها النجاشى فهزته من الأعماق وأمر ألا يتعرض أحد للمسلمين المهاجرين بسوء.

وهكذا امتحن المسلمون فى الحبشة كما امتحن المسلمون فى مكة فى حصارهم فى الشعب .. إلى أن عاد إلى قريش بعض وعيها، فنقضت يدها من هذا الحلف الظالم.

عام الحزن

في بيت خديجة عرف النبى الكريم الحب والرحمة والمؤازرة . . فى هذا البيت الطاهر . . عرف محمد الأمن والأمان، وزوجته تشاركه حياته وتقف إلى جانبه وهو يواجه بطش مكة وجبروتها . . اختارته ورضيت به زوجا . . وعاشت معه أجمل أيام الحياة . . وجاءته الرسالة فكانت أول من آمنت به. . ورأته وهو يأتى من غار حراء مرتجفا. . بعد أن رأى جبريل، ونزلت عليه آيات القرآن الكريم فقالت له تطمئنه:

. . «والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر».

وتأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. . الذى يسمع من الرسول ما يسمع ويطمئنه بأن الذى نزل عليه هو جبريل الذى نزل من قبل على الأنبياء. .

وفى هذا البيت الطاهر رزقه الله الأولاد . . القاسم، وبناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ثم ولدت له بعد البعثة ولده عبد الله. .

فى هذا البيت عرف النبى طعم السكينة والمودة والرحمة. .

هذه السيدة العظيمة التى دفعت بكل ما تملك من إرادة وثروة بجانب الرسول الأعظم . . وأنفقت معظم أموالها على المسلمين أثناء الحصار . . مرضت بعد أن فك الحصار ثم انتقلت إلى أكرم جوار . . فكان حزن النبى عليها عظيما، وكانت عندما تذكر يقول:

– «لقد آمنت بى إذ كفر بى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله عز وجل منها الولد، ولم يرزقنى من غيرها من النساء». .

وكم كانت سعادة النبى عندما تجئ لزيارته واحدة من صديقاتها.. كان يرحب بها .. ويقول:

- كانت تزورنا أيام خديجة ..

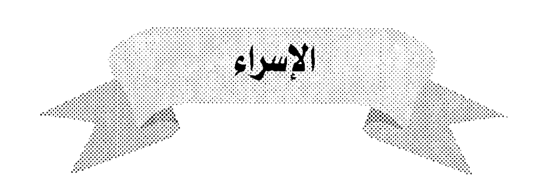
أيام خديجة من أجمل أيام الرسول .. وها هو الرسول قد فقد الزوجة والأخت والأم..

وتمضى الأيام .. ويسمع الرسول بمرض عمه أبى طالب.. الذى رعاه صبيا، وحرص عليه شابا، وذاد عنه وعن دعوته عندما جاءته الرسالة.. وتحمل ما تحمل فى سبيلها وهو الشيخ العجوز.. ويتمنى النبى من الله أن يسلم عمه.. أن يعمر الإيمان قلبه.. ويروى البخارى أن النبى طلب من عمه أن ينطق بالشهادة:

- «قلها يا عم أشهد لك بها عند الله»..

ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فقد نزل قوله تعالى:
﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *



الإسراء

ومات أبو طالب.. بعد خديجة بعدة شهور.. وشيعه النبى إلى قبره باكيا حزينا .. وما أعظم النبى الكريم فى وفائه.. إنه القائل عن عمه:

- «ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه إلا بعد وفاة أبى طالب»..

وكان هذا العام الذى فقد النبى الكريم الزوجة والعم هو عام الحزن، وكان قبل ثلاث سنوات من الهجرة..

وتمضى أيام رسول الله وهو دائب العمل على نشر لواء الإسلام مهما كانت الصعاب. ومهما كانت أهوال الطريق.. وما أكثر ما تعرض له عليه الصلاة والسلام من جهل الجاهلين وحقد الحاقدين.. وأوذى فى جسده. وفى أصحابه .. وبلغ ببعض السفهاء أن يرموا عليه القاذورات وهو ساجد لربه فى بيته الحرام.. ويبلغ صلف قريش وجهالتها القمة، يوم تقرر فى صحيفة ظالمة أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب.. وظلت هذه المقاطعة ثلاث سنوات كاملة.. عاش أثناءها النبى فى سقيف شعب أبى طالب ويبلغ الظلم مداه حين يطالبون من الذين تزوجوا من بنات النبى أن يطلقوهن.. وقد طلق عتبه وعتيبه أبناء أبى لهب بنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم. ورفض أبو العاص بن الربيع أن يطلق زينب بنت النبى ﷺ.

محن كثيرة.. تعرض لها النبى.. وتحملها بما يحمل فى قلبه الكبير من إرادة، ومن حب لا مثيل له لله سبحانه وتعالى.. إن حبه الكبير لله.. وحرصه على تبليغ الرسالة هان أمامهما كل شئ.

لم يأبه حتى لجيرانه الذين آذوه.. عمه أبو لهب وعقبة بن أبى معيط..

والحكم بن العاص.. وعدى الثقفى.. كان جوارهم من أسوأ الجيرة فما أكثر ما تعرض للأذى منهم.. وخاصة من زوجة عمه أبى لهب.. وهى أم جميل بنت حرب.

..و..ما أكثر ما تقولوا على الرسول الكريم .. وهو الذى أطلق عليه الأمين، قبل أن يظهر فيهم نور الإسلام.

صعوبات هائلة قامت أمام الرسالة والرسول.. تحملها النبى وصبر.. وبموت خديجة وأبى طالب.. زادت أحزان النبى وقرر أن يخرج من مكة التى ظلمت وبغت على ابنها البار.. إلى الطائف.. انه يريد أن يجد أعوانا جددا.. يصدقونه.. حيث كذبته قريش.. وتؤازره حيث خذلته بلده.. كان أمله أن تؤمن به ثقيف.. ذهب إليها ومعه زيد بن حارثة.. سار إلى هذه المدينة التى تبعد عن مكة سبعين ميلا على قدميه، وكانت تعبد (اللات).. واللات شجرة كانت تقدسها وتقدم لها القرابين، وقال البعض إنها صخرة يقدسونها.. عشرة أيام قضاها النبى فى الطائف لم ير من أهلها أى ترحيب.. أداروا له ظهورهم، واستهجنوا دعوته .. وبلغت الوقاحة أقصى ذراها من أبناء عمير بن عوف.. وكانوا ثلاثة «عبد يا ليل، ومسعود، وحبيب».

سخروا منه عليه الصلاة والسلام عندما دعاهم إلى الإسلام وقال أحدهم: أما وجد الله غيرك يرسله.

وقال الآخر: هو ينزع ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا.. لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك.

وأغروا به سفاءهم وعبيدهم وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة واحتمى الرسول الكريم فى ظلال البستان وهما يتابعانه وجلس الرسول

الكريم وقد أدمى هؤلاء السفهاء قدميه وتوجه بكل كيانه إلى الله بهذا الدعاء العظيم.

- «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى. وقلة حيلتى. وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى.. ولكن عافيتك أوسع لى.. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات.. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. من أن تنزل بى غضبك. أو يحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك».

ويجد عتبة وشيبة ما حل بالنبى الكريم فيرق قلباهما له. ويأمران غلامهما واسمه عداس أن يأخذ قطفا من العنب للنبى الجالس تحت ظلال البستان.. ويرقبان الغلام وهو يقدم للنبى العنب.. ووضع الغلام العنب أمام النبى ليأكل.. فمد النبى يده ليأكل وهو يقول: باسم الله.

وتعجب عداس ونظر إلى وجه الرسول. فليس من عادة أهل هذه البلاد أن يبدأوا أكلهم بذكر الله.

قال للنبى: هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد.. سأله الرسول: من أى البلاد أنت؟.. وما دينك؟ قال عداس: نصرانى.. وأنا رجل من أهل نينوى.

قال رسول الله ﷺ: من بلد الرجل الصالح يونس بن متى؟

قال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال النبى: ذاك أخى.. كان نبيا وأنا نبى..

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.. وآمن بدعوته.. ودهش الرجلان لما فعله الغلام وسألاه عما فعل فقال لهما:

- يا سيدى ما فى الأرض شئ خير من هذا، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى.

قالا له: ويحك يا عداس.. لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

ويقرر النبى الكريم.. وفى النفس ما فى النفس من أحزان أن يعود إلى مكة.. فما حقق ما كان يصبوا إليه من إسلام ثقيف.. ولابد أن قريشا وقد غاب عنها عشرة أيام قضاها فى الطائف.. قد هزها هذا الخبر وباتت تتربص به.. وما له فيها من نصير بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة.

وواصل النبى مسيرته.. وعند (بطن نخلة) فى الطريق قام يصلى ويقرأ القرآن فى الليل.. واستمع إلى تلاوته نفر من الجن.. فأمنوا به.. ويقص علينا القرآن الكريم هذا بقوله فى سورة الأحقاف:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [**الأحقاف**:٢٩-٣٢].

وظل النبى فى هذا المكان ثلاثة أيام، ثم بعث إلى المطعم بن عدى وهو مازال على الكفر - ليدخل مكة فى جواره، فأخذت الرجل النخوة العربية. وطلب من أولاده الستة أن يتسلحوا.. ووافق على طلب النبى عليه الصلاة والسلام، وتوجه النبى إلى الكعبة فطاف بها، وأولاد المطعم والمطعم حوله.. خوفا عليه من مكة.. ولكن أهل مكة آثروا السلامة. فلم يعترضوا النبى..

وظل النبى بعد هذا اليوم.. يدعو القبائل التى تأتى إلى مكة للإسلام.. ويتعرض لما يتعرض له من السفهاء.. ويعبر عن ذلك ابن عباس فيقول:

- «انى لغلام شاب من أبى بمنى. ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول يا بنى فلان.. إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن

تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد. وأن تؤمنوا بى. وتصدقونى، وتمنعونى. حتى أبين عن الله ما بعثنى به، قال: وخلفه رجل أحول وضئ. له غديرتان عليه حلة عدنية فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه. قال ذلك الرجل: يا بنى فلان إن هذا يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من غنائكم. وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن قيس. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه. قال فقلت لأبى: يا أبت، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول.

قال: هذا عمه عبد العزى بن المطلب (أبو لهب)».

وبعد الطائف..

كانت هذه المرحلة الروحية العظيمة التى أعدها الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام.. كانت رحلة الإسراء والمعراج..

.. بعد رحلة الطائف التى ذهب بها الرسول الكريم سيرا على الأقدام.. وكان يهدف من ورائها إلى نشر نور الإسلام فى هذه المنطقة، حتى يمتد نور الإسلام، وبعد أن سارت الدعوة بطيئة فى مكة.. فقد ظل تسع سنوات كاملة لم يجد من أهلها ألا آذاناً كأن بها وقرا.. وآمن بها قليل من ذوى الجاه والثراء وأغلبية من الضعفاء والفقراء.. وهؤلاء الناس أصبحوا فيما بعد مشاعل أضاءت أنوارها فبددت ظلمات الجهالة وكانوا فرسانا بالنهار عابدين قانتين فى الليل.. ولكن رحلة الرسول فى الطائف لم يجن الرسول من ورائها سوى استهزاء المستهزئين.. وتعنت وجهالة الجاهلين .. فما استجابوا لدعوة الرسول حين دعاهم.. وعاد عليه الصلاة والسلام إلى أم القرى وأخذ يعرض نفسه على القبائل المختلفة لتخرج الدعوة إلى نطاق أوسع وأرحب وأشمل. وبينما كان النبى يواصل جهاده العظيم من أجل الدعوة، حدث الإسراء والمعراج. فقد أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى

ومن المسجد الأقصى عرج به إلى السموات العلى، حتى وصل إلى سدرة المنتهى..

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإسراء بقوله:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وفى هذه الكلمات البليغة الموجزة عبر القرآن الكريم عن هذه الرحلة التى رأى فيها الرسول الآيات..

ووصف القرآن المعراج بقوله:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٨].

وكان الإسراء والمعراج بصحبة جبريل عليه السلام..

وفى الإسراء صلى النبى عليه الصلاة والسلام، إماما بالمرسلين فى بيت المقدس، وعند صعوده إلى السموات العلا فرضت الصلاة..

وحديث الإسراء والمعراج شغل العديد من الدراسات فى مختلف عصور الفكر الإسلامى ..واختلف الدارسون حوله.. فقال البعض أن الإسراء والمعراج كان بالروح وليس بالجسد معتمدين على حديث لعائشة رضى الله عنها وآخر لمعاوية بن أبى سفيان، ولم تكن عائشة قد تزوجت بالرسول، ولا كان معاوية بن أبى سفيان قد أسلم بعد.. فهما حديثان مشكوك فيهما، ومضمونهما أن الإسراء كان بالروح فقط..

وهناك من قال أن الإسراء كان بالجسد، والمعراج كان بالروح.. ولقد كثر الجدل والنقاش حول هذه النقطة.. هل هو بالروح أم هو بالجسد؟ ولا أعرف

لماذا كل هذا الإسراف فى الجدل.. فالقرآن تحدث عن الإسراء والمعراج.. فلا مجال إلى الإنكار إذن.. أما كونه بالروح أم بالجسد، فمحمد لم يسر بنفسه إلى المسجد الأقصى، ولا عرج بنفسه إلى السموات العلا، ولكن كان ذلك بأمر من الله، والله مقدرته لا تقاس بأى مقياس لأنه جل جلاله يقول للشئ كن فيكون.. فلماذا نستغرب أن يكون الإسراء والمعراج بالروح والجسد، ولكن لو أن النبى عليه الصلاة والسلام قال عن إسرائه ومعراجه أنهما بالروح ما استنكرهما أحد من كفار مكة، فأنت فى رؤيا المنام ترى ما تراه، ولا يستطيع أحد أن يكذبك.. ولكن لأن النبى تحدث على أساس أن رحلته كانت بالروح والجسد.. من هنا كان استنكار كفار قريش، واستعجابهم من رحلة إلى بيت المقدس تقطع فيها أكباد الأبل فى الذهاب شهرا وشهرا فى العودة، فكيف يذهب ويعود إليها محمد فى نفس الليلة.

وقد اختلفت الروايات حول ميعاد الإسراء.. فهناك من قال إنها فى السابع والعشرين من رجب، وقال البعض الآخر أنها كانت فى الليلة السابعة عشرة من رمضان، كما اختلفوا فى سنة الإسراء، قال البعض أنها كانت قبل الهجرة بستة عشر شهراً، وقال البعض إنها كانت قبل الهجرة بسنة.. وعلى كل الأحوال فإذا كان الرواة قد اختلفوا فى تحديد موعد الإسراء. فلم يختلف أحد منهم على أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أسرى به، وعرج إلى السموات العلا.

وقد قال البعض أن الإسراء وإن كان بالروح والجسد. فإن المعراج كان بالروح. واستدلوا بقوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقالوا أن هذه الآية تشير إلى المعراج.. وأنه كان رؤيا .. ولا أدرى لماذا يصر هذا البعض على أن المعراج كان بالروح.. فالله قادر أن يرفع رسوله إلى السموات العلا.. وأن هذا الأمر المعجز ليس معجزا بالنسبة لله .. فالمعراج

كان بالجسد والروح. ولقد سئل النبى عليه الصلاة والسلام كيف رأى الله. عندما صعد إلى سدرة المنتهى قال:

- «إنه نور أنى أراه». .

وفى رواية أخرى:

- «رأيت نورا». .

وما أكثر الروايات التى رويت عن الإسراء والمعراج، ولكن نقف عند رواية البخارى التى رواها أنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام. . قال:

- «أتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: أخذت الفطرة. .

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: أوقد بعث إليه؟. . قال: قد بعث إليه. . ففتح له فإذا بآدم فرحب بى. . ودعا لى بخير. .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل. . فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. . قيل: ومن معك. قال: محمد. . قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. . ففتح له، فإذا بابنى الخالة يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بى، ودعوا لى بخير. . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ففتح لنا فإذا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب بى ودعا لى بخير. . ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فإذا بإدريس رحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فإذا بها نوح فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فإذا بموسى رحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فإذا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور.. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت، فما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.. فأوحى الله إلى ما أوحى..

ففرض عليّ وعلى أُمتى خمسين صلاة كل يوم وليلة..

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟

قلت: خمسين صلاة فى اليوم والليلة..

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك..

قال: فرجعت إلى ربى، وسألته التخفيف، فحط عنى خمسا بعد خمس وأنا أسأله التخفيف حتى جعل الصلاة خمسا فى اليوم والليلة، وجعل ثوابها كثواب الخمسين»..

ولقد عاد رسول الله فى نفس الليلة إلى مكة ونام فى فراشه..

وفى الصباح تحدث الرسول عن إسرائه ومعراجه .. فإذا بأبى جهل يدعو الناس إلى أن يستمعوا إلى النبى.. وقد وجدها فرصة يضرب بها الدعوة المحمدية.. فما يقوله محمد لا يصدقه بشر.. إنسان يذهب إلى بيت المقدس، ثم يصعد إلى السماوات العلا فى ليلة واحدة.. وارتد بعض ضعاف الإيمان. وذهب بعضهم إلى أبى بكر الصديق يخبره بما تحدث به النبى عن إسرائه ومعراجه، وكانوا يتصورون أن أبا بكر سوف ينكر ما يقوله صاحبه.. وأنه سوف يرتد عن دينه.. وهنا يتجلى إيمان أبى بكر، فقد سمع ما يقوله الناس عما يرويه النبى عليه الصلاة والسلام، وكان جوابه:

- إن كان قال.. فقد صدق..

ومن ذلك اليوم لقب بالصديق..

وكان موسم الحج قد اقترب.. فأراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يبلغ الدعوة إلى من يلقاهم من رجال القبائل الأخرى.. وقد التقى بستة رجال من أهل يثرب.. أخذ يشرح لهم تعاليم ما جاء به من الرسالة .. واقتنع الرجال الستة.. وفى الموسم التالى اجتمع النبى برجال من يثرب واثنى عشر رجلا.. آمنوا به.. وصدقوه.. ووعدوا النبى أن يسيروا على نهج ما قاله لهم.. وأرسل النبى إلى المدينة مصعب بن عمير.. وكان ذكيا ورعا، وكان يلبس أجمل الثياب وأرقها يوم كان على الشرك.

وقد حاولت أمه وكان اسمها خناس بنت مالك أن تثنيه عن عزمه، ويرجع إلى الكفر فرفض أن يستجيب لنداء أمه الثرية، وهاجر إلى الحبشة مرتين.. فرارا بدينه الذى تغلغل فى أعماقه حتى النخاع .. ولقد عاد إلى مكة .. وتحدى والدته.. بعد أن حاول أن يدخلها فى نور الإسلام، ولكنها عاشت فى ظلام جاهليتها.. وعاش هو لدينه.. لا يهمه الملابس الناعمة التى كان يلبسها، ولا ترف العيش الذى كان يعيش فيه.. كان نور الإيمان فى قلبه يضئ له ظلمات الحياة. وكان يضفى عليه سعادة لا تقدر بمال، ويرسم له منهاج حياة لا ترسمه له كل كنوز الدنيا.. وكان النبى ﷺ يراه فى ثيابه البالية فيقول:

- «لقد رأيت مصعبا هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، لقد ترك ذلك حبا لله ورسوله»..

.. هذا الفتى المؤمن.. أرسله النبى إلى يثرب، مع الاثنى عشر الذين آمنوا بالرسالة.. وفى المدينة كان سفير النبى الكريم، يقوم بمهمته الجليلة.. بذكاء وإيمان واقتدار، حتى أن موسم الحج التالى كان يضم وفدا من أهل يثرب عددهم سبعون مؤمنا ومؤمنة..

إن النبى ﷺ يعرف كيف يختار سفراءه.. لقد جاء مصعب مع هؤلاء المؤمنين من أهل يثرب، وعند انتهاء مناسك الحج، كان أفراد القبائل يركبون

إبلهم عند الفجر متجهين فى كل اتجاه للقاء الرسول . . وعند العقبة . . وفى هدأة الليل التقى النبى ﷺ بمسلمى يثرب. وكان مع النبى العباس عمه. ولم يكن العباس قد أسلم. . ولكنه ذهب مع ابن أخيه بدافع حب الرحم. . وحب ابن أخيه محمد.

لقد جلس النبى مع مسلمى يثرب. . وتكلم عمه العباس فقال:

- «يا معشر الخزرج. . إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قريش فهو فى عز من قومه، ومنعة فى بلده، وانه قد أبى إلا الانحياز إليكم. . واللحوق بكم. . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . . وإن كنتم ترون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه». .

وتحدث أحد زعمائهم ردا على كلمة العباس عم النبى ﷺ .

- إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق. . وبذل أرواحنا دون رسول الله ﷺ.

وطلب أن يتحدث الرسول العظيم. . وساد الصمت وسط الشعب . . وما كان هناك سوى أضواء القمر تسكب أشعتها على هذا الجمع المؤمن. .

قال رسول الله ﷺ:

تبايعوننى على السمع والطاعة، والنشاط والكسل (يعنى الحرب والسلام). . والنفقة فى العسر واليسر. . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. . وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فيه لومة لائم. . وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم. . وأزواجكم وأبناءكم. .

وران الصمت على الجمع المؤمن فى العراء. . وتحدث البراء:

- نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أعراضنا وأحسابنا، فبايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحرب، ورفقاء السلاح، ورثنا كابرا من كابر.

وقال أحدهم وهو أبو الهيثم بن التيهان موجها حديثه لرسول الله . .

- يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يقصد اليهود) فهل عسيت إن قبلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . .

ابتسم الرسول الكريم وقال:

- بل الدم الدم . . والهدم الهدم . . أنا منكم وأنتم منى . . أحارب من حاربتم ، . وأسالم من سالمتم.

واختار النبى منهم اثنى عشر نقيبا على قومهم . . تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . .

وكانت هذه هى بيعة العقبة الكبرى . . وكانت نقطة انطلاق هائلة للدعوة . . فقد توجت جهاد النبى العظيم فى مكة . . التى ظل بها ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله فما استجاب له إلا قلة ضئيلة من الضعفاء الذين لا يمكنهم أن يجابهوا صلف قريش . . إنها انطلاقة ضخمة للإسلام، فقد آن الآوان أن تنطلق الدعوة بكل ثقلها، عندما يقرر النبى ﷺ الهجرة إلى يثرب، لتأخذ الدعوة مساراً حاسماً، ويبدأ قيام الدولة الإسلامية . .

ولقد كانت قريش تخشى ذلك كل الخشية، وتخاف أن يظهر نور الإسلام فتضيع مكانتها بين العرب، وكانت تتجسس على النبى ﷺ، وتخاف كل الخوف أن يعقد مع قبيلة من القبائل معاهدة، وكانت أخوف ما تكون أن يكون النبى قد تعاقد مع يثرب على شئ . . وما كانت تدرى شيئا عن بيعة العقبة التى عقدها النبى مع مسلمى يثرب سرا . . ولكنهم مع ذلك قد دفعهم تخوفهم أن يسألوا أهل يثرب القادمين للحج إن كان شئ من ذلك قد حدث . . ولم يكن المشركون من أهل يثرب يعلمون ما تم بين النبى وبين مسلمى يثرب . . فكذبوا ما تردد من أهل مكة أنهم جاءوا ليهاجر النبى معهم، ويحموه . . ويناصروا دعوته . .

ولقد كانت هذه البيعة، مع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج نقطة تحول خطيرة فى التاريخ كله.. لانهم استطاعوا بالفعل أن يجعلوا من هذا اليوم بداية انطلاقة ضخمة للإسلام.. ومسيرة الدعوة.

هذه أيام رسول الله تمر فى أم القرى.. ثلاثة عشر عاما قضاها يدعو الله بالحسنى.. ثلاثة وخمسين عاما قضاها بين ربوعها طفلا فقد والديه.. ولكنه يجد العناية الرحيمة من جده عبد المطلب ومن بعده عمه أبى طالب..

وصبيا دائم التأمل.. كثير التفكير.. يرعى الغنم.. وشابا تحيطه العناية الإلهية وتهيئة لتحمل أعباء أعظم رسالات السماء.. فهو دائم التأمل فى رحاب الكون.. كثير التفكير.. عازف عما درج عليه الناس من عبادات وعادات وتقاليد.. وقد عرفه الأصدقاء أمينا.. اجتمعت له صفات الأخلاق الحميدة، كما اتسم بجمال الخلقة.. ورجاحة العقل.. وقد كان القاضى عياض حصيفا وهو يصفه بقوله:

- وأما فصاحة عقله، وذكاء لبه، وقوة حدسه، وفصاحة لسانه.. واعتدال حركاته.. وحسن شمائله، فلا مرية أنه كان أعقل الناس.. وأذكاهم.. ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسته العامة والخاصة مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر فى رجحان عقله.. وثقوب فهمه.. لأول بديهية.. وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه..

ولقد وهب بن منبه، قرأت فى واحد وسبعين كتابا، فوجدت فى جميعها أن النبى ﷺ أرجح الناس عقلا، وأفضلهم رأيا، وفى رواية أخرى فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا..

فالنبى كان راجح العقل، قوى المنطق، بليغا، فصيحا، شجاعا عف اللسان.. صدوقا.. يحسن مقابلة الناس.. فهو على حد تعبير أبى هريرة.

- كان يقبل جميعا، ويدبر جميعا، بأبى وأمى لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق.. وكان يحب أن يكون كواحد من الناس.. وكان يقول لأصحابه:

- «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله»..

ومع أنه نبى مرسل.. وأنه سيد الأنبياء والمرسلين.. وأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فهو العابد شديد العبادة لله.. إن عبادته عبادة معرفة.. عبادة من يعرف فضل الله سبحانه وتعالى عليه.. هذه المعرفة يمكن أن نقترب منها.. ونحن نقرأ ما رواه الترمذى عن أبى ذر عن النبى ﷺ:

- «أنى أرى ما لا ترون.. واسمع ما لا تسمعون.. أطت السماء وحق لها أن تئط.. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله.. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»..

وهو مع كل ذلك الزاهد فى متاع الدنيا.. أو على حد تعبير عائشة رضى الله عنها:

- والذى بعث محمدا بالحق. ما رأى منخلا. ولا أكل خبزا منخولا قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل، إلى أن قبضه..

وهل يمكن أن نتحدث فى تفصيل عن تكامل شخصيته وجلالها وعمقها واستنارتها أكثر مما فصله القرآن الكريم بقوله المعجز:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقوله:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أيام رسول الله ﷺ فى مكة كلها طهر وطهارة، وتقوى وورع ورحمة بالفقراء والضعفاء.. إنها الأسوة والقدوة الحسنة .. وسلوكه منهاج لما ينبغى أن يكون عليه سلوك المؤمن.. وتصرفاته هى ما ينبغى أن تكون عليه تصرفات المؤمن، لأن خلقه هو القرآن .. وقد كان سلوكه وأخلاقياته هى التطبيق العملى لما جاء به القرآن الكريم..

* * *

- ٤ -

المدينة فى أروع أيامها

شهدت المدينة أروع أيامها بهجرة محمد ﷺ إليها، وتحولت إلى منطقة جذب للذين ينشدون الحقيقة.. وقوة جديدة تستمد عظمتها من كتاب الله، ومن سنة رسوله الذى يتنزل عليه جبريل عليه السلام.. وأصبحت المدينة تحت قيادة أعظم من عرفته الحياة.. قيادة بالغة القوة والعزم والإرادة.. يعززها أن صاحبها نبى يوحى إليه ولا ينطق عن الهوى.. وإذا كان الناس فى هذا المجتمع الجديد فى حاجة إلى قانون يحدد العلاقات بين الأفراد والأفراد، وبين الناس والناس، فإن هذا القانون كان أعظم قانون عرفه الوجود.. لأنه ليس من وضع بشر. ولكنه تنزيل من عزيز حكيم.. نور يضىء ظلمات الوجود.. وحياة جديدة متفتحة إلى واقع جديد.. وكان لابد لقافلة النور أن تشق طريقها.. وأن تعم أنوار الرسالة كل الأرجاء.. ولن يقف فى سبيلها يهود المدينة.. برغم أن النبى قد عاهدهم، ألا يعتدوا على المسلمين وألا يعتدى المسلمون عليهم، وألا يحالفوا أعداءه، ولهم حرية الاعتقاد والأمان على أرواحهم وأموالهم.. وكان بينه وبينهم كتاب.

وكذلك ما كان يمكن أن يعوق الدعوة المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبى سلول، الذى كان قاب قوسين أو أدنى من أن يتوج ملكا على يثرب.. ولكنه أنزوى فى الظل عندما قدم إلى المدينة النبى العظيم.. بكل ما له من مهابة وجلال فى النفوس..

.. إن النبى من موقعه الجديد يعد لانطلاقة ضخمة.. لأن الإسلام جاء للناس كافة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم..

وكان اليهود وهم قبائل بنى قريظة وبنى النضير، وبنى قينقاع.. يعرفون أن دعوة الإسلام سوف تشق طريقها.. وأن محمدا ﷺ سيظهرها ما فى ذلك شك.. وكانوا يعلمون أنه سوف يكشف كل ما يعتمل فى صدورهم من أحلام وطموحات وأحقاد.. ولكن حقدهم كان يأكل صدورهم. إنه نبى يأتى من العرب.. من أمه أخرى غير بنى إسرائيل.. والقرآن يكشف زيف اعتقاداتهم التى حرفوها.. فلم يقل أحد من الأنبياء السابقين، ما قاله اليهود أو النصارى عنهم..

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [**البقرة**: ١٤٠].

وإذا كان النبى قد وضح منهج العقيدة، بالإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى، والاعتراف بأنبيائه ورسله وملائكته واليوم الآخر.. فقد وضح لهم أيضا أن تكون سمة المجتمع الإسلامى الاستقرار، والاستقرار أساسه العدل والإحسان والبعد عن المعاصى، ما ظهر منها وما بطن، وأن يظلل المجتمع ويربط لبناته الطاعة لله والرسول وأولى الأمر..

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [**النساء**: ٥٩].

.. الأمر إذن ليس فوضى.. ليس أن يتصرف كل إنسان كما يريد أو يتمنى.. ولكن على الإنسان المسلم أن يعيش فى هذا المجتمع.. محققا ما يأمره به الشرع الحنيف، والرسول بينهم يشرح ما غمض عنهم من أحكام.. فإذا ظهر اختلاف فى أمر من الأمور، فالمرجع هو كتاب الله وسنة ورسوله.

.. وقد جمعت الآية الكريمة واجبات الإنسان المسلم فى كلمات موجزة ومعجزة لأنها رغم إيجازها الشديد، دستور حياة راقية.. بل بالغة الرقى..

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [**النحل**: ٩٠].

. . كلمات قليلة موجزة. . ومع إيجازها المعجز فهى قادرة على بناء أعظم المجتمعات. . وقد أقامت بالفعل أعظم المجتمعات على يد الرسول العظيم، وعلى يد خلفائه. . فعندما يسود العدل، وعندما تملأ الرحمة القلوب بذوى القربى. . وعندما يكون شعار المجتمع العدل والإحسان، والبعد عن كل ما يهبط بآدمية الإنسان والتمسك بالبعد عن كل فحش ومنكر. . فكل هذا جدير بأن يصنع أعظم المجتمعات، مجتمعات واقعية، لا مجتمعات وهمية كتلك التى تصورها الفلاسفة فى مختلف العصور ولم تتحقق هذه المدن الفاضلة. . أو هذه المجتمعات المثالية التى يحلمون بها، لأن مبادئها قامت على زيف من التصورات والخيال الذى يستحيل تحقيقها فى دنيا الواقع. .ويبلغ عظمة التشريع الإسلامى الذروة وهو يحث على العدل. . ليس مع الآخرين فقط. . ولكن مع نفسك أولا. . فإذا لم تكن هناك مسافة بينك وبين نفسك. . وظاهرك وباطنك. . وما تؤمن به هو دستور حياة، وليس مجرد كلمات تقال، أو شعارات لها رنين أجوف. . تتسق الجهود. . ولا تتسع الهوة بينك وبين نفسك، ولا بينك وبين الناس. . ويختفى من حياتك ومن حياة المجتمع ما نقول عنه بلغة علم النفس (العقد النفسية) وتتلاشى من قاموس الحياة. . لأن الإسلام يضع لك هذه القاعدة الذهبية. .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء:١٣٥].

لا تعصب قبلى. . ولا تحجر عند أفكار عقيمة. . ولا لف ولا دوران حول قيم ومعتقدات جاهلية بالية. . ولا تعصب للقبيلة والعشيرة. . ولكن أساس العلاقات بين الناس هو العدل. . إنه الخيط الذى يربط جميع العلاقات الإنسانية بخيط قوى لا يبلى. . فالأمر الإلهى هو:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

لقد وضع النبى عليه الصلاة والسلام أسس قيام الدولة بمجرد دخوله يثرب.. ووحد صفوف المسلمين وآخى بين أنصارهم ومهاجريهم، ولم يكن هناك بد من سرعة الحركة.. وقد شرع الجهاد فى نفس العام.. وهذا يعنى انه انتهى عصر تحمل سخافات أعداء الإسلام.. بل لابد أن تردع القوة بالقوة..

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ولم يكن فرض الجهاد يعنى إرغام أحد على الدخول بالإسلام بحد السيف.. فهذا ما لا يقره الشرع، ولا السنة، ولكنه كان دفاعا عن الحق الإسلامى ضد باطل الشرك وجبروته.. فالإسلام قام على الإقناع.. ومن يؤمن فإنما يؤمن لنفسه، ومن ضل فلنفسه أيضا..

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨].

.. فالجهاد كان لإعزاز الدين، وليس اعتداءً على أحد.. ومن هنا فقد ورد عن النبى العظيم قوله:

- «والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

وقد ورد قوله أيضا عليه الصلاة والسلام:

- «من مات ولم يُغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».

فالأحاديث توضح قيمة الجهاد، وهو كما قلنا دفاع عن النفس، وحفاظ على عزة المسلمين.. وقد كان الإذن بالجهاد بداية لنشاط عسكرى بالغ الخطورة، غير مسار التاريخ الإنسانى كله..

فقد بلغت غزوات الرسول تسع عشرة غزوة، وقيل احدى وعشرين غزوة.

وقال أبو إسحاق: كنت إلى جنب زيد بن أرقم؛ فقيل له: كم غزا النبى ﷺ من غزوة.. قال: سبع عشرة، قلت: فأيهم كانت أول؟ قال: العشيرة، أو العشير، فذكرت لقتادة فقال العشيرة.

وروى عن جابر أن عددها احدى وعشرون ففات زيد بن أرقم ذكر سنتين ولعلها الايواء وبواط. وبواط جبل قرب نبع، وقد كان النبى قد تأهب لملاقاة مكة.. عندما بلغه أن عيراً لها سوف تمر، وكان فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وقد ذهب على رأس جماعة من المسلمين سعد بن أبى وقاص، ولكن القافلة أفلتت.. أما غزوة العشيرة.. وكانت، فى شهر جمادى الأولى. فقد كان النبى ﷺ يريد أن يتصدى لقافلة قريش التى يقودها أبوسفيان.. وقد وصل النبى حتى العشيرة ولكن أبا سفيان كان قد أفلت بالعير ومعه ما معه من أموال قريش فى طريقها إلى الشام.. ولكن كانت غزوة بدر أخطر هذه الغزوات.. لأنها كانت بداية لتغيير ميزان القوى لصالح المسلمين..

حياة جديدة فى المدينة

وعاش الناس فى مجتمع المدينة حياة جديدة.. فقد آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وهذا الإخاء جعل الأخوة بين المسلمين هى أخوة الإسلام وآداب الدين الجديد أذاب ما كان بين الأوس والخزرج من عداوات ومشاحنات قديمة.. ووضع ما كان بينهم من بغضاء..

كانت الصورة ناصعة البياض فى المجتمع الجديد، ولم يكن هناك ناقم على قدوم النبى، سوى اليهود الذين كانوا يتخوفون من مجىء النبى فهم يعلمون تماما أن هجرة النبى إلى المدينة بداية وليست نهاية.. بداية حركة الإسلام، وعدم انطوائه على نفسه، وإن الإسلام سوف يجابه كل القوى ليحقق هدفه وينشر رسالته.. كان اليهود إذن على يقين من أن دعوة النبى ستحقق لهم الكثير من المتاعب، ولكنهم خشوا أن يجابهوا النبى لأول

وهلة.. لقد آثروا السلامة من ناحية، وآثروا الصمت حتى تتمخض الأيام عما يأتى من أحداث.. كان اليهود ثلاث قبائل.. اثنتان منها لعجلان يعملان فى الزراعة بينما تعمل الأخرى فى صياغة الذهب والفضة وصنع الأسلحة..

وكان هناك أيضا عبد الله بن أبى بن سلول.. كان من أقوى رجالات المدينة، وكان يهيئ نفسه لأن يضع على رأسه تاج الملك، ويصبح ملكا على الأوس والخزرج.. فقد كان ذكيا.. بالغ الذكاء.. وكان فى نفس الوقت سياسياً، وكان عبد الله بن أبى من الخزرج، ولكن لسياسته وحيلته وتطلعاته إلى أن يحكم المدينة، ويضع على رأسه تاج الملك، رفض أن يكون طرفا فى النزاع مع الأوس.. بل كان يحاول دائما أن يوقف القتال بينهما كلما نشب بينهما قتال، وكان الهدف من وراء ذلك هو أن تقبله الأوس ملكا عليها..

فهو لم يخض حربا ضدها، ولا حرض عليها.. ومن هنا فقد كان تتويجه ملكا أمرا محتم الوقوع.. وجاء النبى ﷺ، بما له من مكانة وشخصية وجلال، وما له من نفوذ على اتباعه.. فتبددت أحلام ابن أبى، وغربت شمس طموحاته.. فلم يعد هو الشخصية المشار إليها بالبنان فى مجتمع المدينة.. بل غدا شخصية تتضاءل كل التضاؤل أمام عظمة الرسول وشخصيته.. ولحصافة الرجل وسعة حيلته أثر أن يكيف نفسه مع الأحداث، فليس بمقدوره أن يجابه هذا التيار الجارف المتمثل فى العقيدة الإسلامية، ولا كان بإمكانه أن يعلن عداوته للنبى الكريم، فأعلن إسلامه، بينما كان صدره يمتلىء حقدا، فكان رأس المنافقين فى المدينة.

وكان على المهاجرين أن يعملوا.. وإذا كانت حرفتهم الرئيسية هى التجارة، بينما حرفة أهل المدينة هى الزراعة، فقد عملوا فى التجارة وحاول بعضهم العمل فى الزراعة.. واشترى الصديق بالأموال التى حملها معه من مكة بستانا فى وسط الواحة من النخيل.. وبدأ المجتمع الجديد تتضح

معالمه.. إنهم يؤثرون إخوانهم على أنفسهم، تجمعهم الصلوات الخمس فى مسجد الرسول.. وفى المسجد التقوا بآخر النبيين.. وتعلموا منه قيم الإسلام ومبادئه.. الصلاة تسمو بأرواحهم.. وتعلمهم النظام والنظافة، وأن يكون الجميع فى صف واحد لا فرق بين غنى وفقير. ويسمعون من النبى القرآن الكريم، الذى رسم لهم طريق حياتهم. ومنهاج معيشتهم، ويسمعون من النبى الكريم الأحاديث التى تشرح لهم.. وتفسر ما نزل من تشريعات الله.. مجتمع جديد تدب فيه حياة جديدة.. وتمتلىء الحياة بالعلم الذى نزلت به آيات القرآن الكريم.. فهناك من يدون القرآن الكريم، وهناك من يدون ما ينطق به الرسول الكريم من أحاديث.. فليس صحيحاً أن الحديث لم يدون إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز.. فعمر رضى الله عنه، قد أمر أن يجمع ما دون من أحاديث الرسول، حتى لا يضيع هذا التراث الضخم.. أما الحديث فى زمن النبى، فقد كان هناك من يكتبه من أصحاب الرسول الكريم ﷺ.

هداية الناس بالقرآن

صحيح أن النبى فى العهد المكى قد نهى عن تدوين الحديث، حتى لا يخلط الناس بينه وبين القرآن.. فالقرآن ببيانه المعجز.. وقوة أسلوبه.. وفصاحة بيانه وتصويره لحقائق الغيب، كان كافيا ليصل إلى القلوب.. ورغم أن هناك فرقا كبيرا بين أسلوب القرآن.. كلام الله.. وبين أسلوب النبى البشرى.. فإن النبى ﷺ زيادة فى الحرص على أن تصل آيات القرآن إلى أعمق أعماق النفوس، قد آثر أن يكون التركيز كله على القرآن.. وأن تكون هداية الناس بالقرآن.. وكانت سيرته وسلوكه عليه الصلاة والسلام هما تجسيد لما جاء فى القرآن الكريم..

والقرآن الذى نزل فى العهد المكى، وهو يتحدث عن الله ووحدانيته وعن عالم الغيب وما أعده الله للمؤمنين من نعيم، وللكافرين من عذاب أليم.. وكان كلاما واضحا ليس فى حاجة إلى تفسير..

ولكن الصورة تغيرت عندما هاجر النبى إلى المدينة، هناك تشريعات سماوية نزلت وفى حاجة إلى تفسير وإلى توضيح.. فالتشريعات بمختلف ألوانها.. والتشريعات التى تحكم الفرد، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بأسرته.. وعلاقة المجتمع بالنسبة له.. وتنظيم معاملات الناس فى مختلف شئون حياتهم من زواج.. وطلاق.. ومعاملات عامة وخاصة.. وما نزل بشأن العبادات التى شرعها الله.. والحدود وغيرها.. كل ذلك كان فى حاجة إلى تفسير وإلى شرح وإلى بيان.. والذى يقوم بكل هذا هو صاحب الرسالة نفسه عليه الصلاة والسلام.. وهذا يتم عن طريق السُّنَّة.. فكان لابد من تدوين أحاديث الرسول المتعلقة بكل هذه الأمور.. فأباح النبى السُّنَّة فى المدينة بعد أن كان قد نهى عنها فى مكة. والبخارى يروى عن أبى هريرة قوله:

- «ما من أحد أكثر حديثا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب».

وكان عبد الله بن عمرو يكتب كل ما كان من رسول الله ﷺ.. وقد قال:

- «كنت أكتب كل شىء اسمعه من رسول الله ﷺ.. ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوما بأصبعه إلى فيه وقال: أكتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منه إلا الحق..».

وتغيرت صورة الحياة فى المدينة.. وهبت عليها نسائم الإيمان واتحدت الأوس والخزرج، وأصبحوا أخوة للمهاجرين من مكة.. وابتدأ الإسلام يغزو بسرعة فائقة قلوب من لم يسلم من أهل يثرب.. وأصبح للمسلمين مكانة رفيعة فى المدينة.. وهم يقيمون الصلاة.. وهم يستمعون للنبى الكريم.. والنبى نفسه كواحد منهم.. يمشى بين الناس.. ويحل مشاكل المجتمع

الجديد.. ورسم الإيمان على وجوه المؤمن إشراقة الإيمان.. ويمضى عام فى مكة ويفرض صوم رمضان عندما نزل قوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان.. واعتكف عشرين يوما فى العام الذى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى كما يقول أبو هريرة رضى الله عنه.

غزوة بدر وانطلاق الدعوة

وتمضى الأيام فى المدينة.. والحياة فيها قد أخذت طابعا جديدا.. النور يغمر المدينة.. والناس فيها من المهاجرين والأنصار قد آخى بينهم الإسلام وجمعهم على المحبة والإيثار وحب الخير.. والدولة الإسلامية الوليدة تنمو نموا رائعا.. واليهود فى المدينة متخوفون من تطور الأحداث، وكفار قريش يحسبون للمسلمين ألف حساب..

وما كان يمكن للأمور أن تسير هادئة.. فقد آن الأوان للحركة السريعة فقد أذن الله للمؤمنين بالجهاد.. ورد الله كيد اليهود فى نحورهم.. فطالما حاولوا إحراج النبى.. وهم يسألونه عن الروح، وعن الساعة وعن صفات الله، وبلغت بهم وقاحتهم أن يسألوه أن يصف لهم الله. ويجسده لهم!!

ولكن الوحى كان ينزل إلى النبى الكريم.. موضحا وشارحا ما غمض عليه.. ولكنهم عندما بلغوا قمة السفاهة بأن طالبوا النبى أن يصف الله لهم وصفا مجسدا.. والله ليس كمثله شيء.. نزل قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧].

إن الإسلام ترتفع راياته.. وكل يوم يزداد قوة وصلابة.. ويأتى الإذن بالجهاد:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وقد كانت سعادة المؤمنين غامرة، وهم يسمعون من نبيهم السماح لهم بالجهاد، ورد كيد المعتدين.. فما أكثر ما ذاقوا من العذاب على يد كفار قريش، وما كانوا يقاومون ظلم الظالمين، ولا يردون كيد الكائدين..

.. لقد سلبوهم كل شىء.. وطردوهم من ديارهم.. وأن لهم أن يحققوا وعد الله..

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

لقد مضى على المسلمين فى المدينة قرابة عام ونصف.. وها هم يسمعون أن قافلة كبيرة لمكة فى طريقها إلى الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب.. وصمم المسلمون على التعرض لهذه القافلة.. وتسللت القافلة نحو الشام.. وقرر المسلمون التصدى لها عن طريق العودة.. ويعلم أبو سفيان،.. ويرسل لمكة رجلا من غفار اسمه (ضمضم) ليخبرهم بما سوف تتعرض له القافلة من المسلمين.. واجتمعت قريش فى دار الندوة.. وقد أخذهم الحماس البالغ.. ورغبة جارفة فى إنقاذ العير القادمة من الشام.. وأن عليهم إعطاء النبى درسا حتى لا يعود إلى موقف كهذا الذى وقفه.. وما كانوا يدرون إنهم يسارعون إلى حتوفهم.. وإن الله متم نوره، ولوكره الكافرون.

وبرغم أن أبا سفيان استطاع أن يتخذ طريقا آخر غير مألوفة، وينجو بالقافلة.. ويعود بها سالمة إلى مكة، إلا أن الغرور، والشعور بالقوة

والزهو.. دفع قريشا إلى ضرورة محاربة النبى.. وصممت على ذلك.. وجمعت لذلك جيشا وعتادا.. وعلم النبى ﷺ بعزم قريش على محاربته.. ولما كانت بيعة العقبة بينه وبين أهل يثرب أن ينصروه ما دام بينهم، فان الموقف اليوم مختلف.. انه فى مكان بعيد عن مكة.. عند بدر.

وهكذا وضح أن المسلمين.. الأنصار منهم والمهاجرين، قد عزموا على الجهاد فى سبيل الله مع الرسول الكريم.. وانهم مقبلون على معركة فاصلة فى تاريخ الإسلام.. فهى من أخطر المعارك وأهمها، لأنها ستكون فاصلا بين عهدين.. وبين حياتين.. ولو هزم الإسلام فسينتهى إلى الأبد، وإذا انتصر فمعنى هذا انطلاق بلا حدود نحو الغد المشرق المأمول.. قال النبى عليه الصلاة والسلام للمسلمين.

- سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين: العير أو النفير، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم..

.. إن الرسول العظيم هنا يبشر المؤمنين بالنصر.. وما كان النبى الذى لا ينطق عن الهوى أن يقول ما قاله إلا لثقته من نصر الله..

لقد خرج الكافرون صوب المدينة لملاقاة النبى، ولم يستمعوا لأى صوت طلب منهم البقاء فى مكة، ما دامت العير رجعت سالمة إليهم، ولكن الشيطان أضلهم ووسوس فى صدورهم، وحضهم على الخروج لملاقاة المسلمين.. بل أن أبا جهل قال بكل صلف الجاهلية والكبر:

- والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليها ثلاثا، ننحر الجزر ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا..

ولم يكن رأس الكفر فى مكة يدرى انه سيذهب إلى بدر ولن يعود.. وأنه سوف يقتل حيث يلاقى عذاب من كفر به، وألب على رسوله السفهاء والحمقى، وذوى النفوس المريضة، والقلوب المتحجرة..

كان المسلمون ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا.

وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير. ويقترب رجل مؤمن من الرسول هو الحباب بن المنذر يسأله:

- يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذى نزلته، أهو منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

أجابه النبى ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم (المشركين).. ثم نغور ما وراءه من القلب (أى يجمع الماء فى مكان واحد) ثم نبنى عليه حوضا فنملأه بالماء ثم نقاتل القوم (والماء من ورائنا) فنشرب ولا يشربون..

واستحسن النبى رأى الحباب ووافق عليه.

واقترح سعد بن معاذ بناء عريش للنبى عليه الصلاة والسلام.

واستحسن النبى هذا الرأى ووافق عليه، ليدير المعركة منه..

وكان لابد أن يبدأ القتال، وقد اقترب الجيشان، وخاصة بعد أن قتل حمزة بن عبد المطلب الأسود بن عبد الأسد المخزومى عندما أراد أن يهدم حوض الماء الذى أقامه المسلمون.. وكعادة العرب فى حروبهم خرج ثلاثة من مشركى مكة للمبارزة هم: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة بن ربيعة.

وخرج لهم حسب نداء النبى: حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث.. واستطاع المسلمون القضاء على مشركى مكة الثلاثة..

و.. بدأت معركة بالغة الضراوة.. بين جيش المسلمين فى قلة عدده وعتاده، وقوات تفوقه عددا وعتادا.. وشهد هذا اليوم الخالد فى التاريخ يوم

السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة أعظم المعارك التاريخية التى غيرت مسار التاريخ الإنسانى كله.. لقد وقف الرسول العظيم فى العريش، وهو رافع يديه إلى السماء، يسأل الله نصره:

- «اللهم هذه قريش، قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض..».

ويندمج النبى بكل كيانه فى الدعاء لله، حتى سقط رداء النبى من فوق كتفيه وأبو بكر يرى النبى ﷺ يلتمس النصر من الله بكل خلجات نفسه والمعركة على أشدها.. فيقول الصديق لخاتم الأنبياء: يارسول الله، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك..

وقال النبى الكريم وقد استيقن من نصر الله:

- والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة..

ويأخذ النبى حفنة من تراب يرميها على أعداء الله وهو يقول: صائحا فيهم:

- شاهت الوجوه..

وتبدأ المعركة.. قاسية رهيبة.. نسى المسلمون فيها أنفسهم.. لم يتذكروا سوى شىء واحد.. النصر أو الشهادة.. وبدت من بين صفوف المسلمين عمالقة الجهاد.. شجاعة منقطعة النظير من أناس يفضلون الموت على الحياة.. وعلى الساحة كان هناك حمزة بن عبد المطلب يضرب بسيفه يمينا وشمالا.. تتساقط أمام ضرباته الرقاب.. وكان ابن أخيه على بن أبى طالب فى شبابه وشجاعته لا يقاومه مقاوم.. تتخاذل سيوف الأعداء أمام ضرباته الجسور، وكان هناك الزبير بين العوام يخوض معركته لا يخشى شيئا وإنما يريد الشهادة.. فإذا بسيفه يحصد أعداء الله.

ولم يعد أمام المسلمين سوى التأكد من نصر الله.. لا يرهبهم كثرة أعدائهم، ولا صلة الدم بينهم وبين المشركين الذين جاءوا يطفئون نور الله، ويقتلون نبيه، فإذا بأبى عبيدة بن الجراح.. ذلك الفارس الذى شهدته معارك المسلمين والرومان فيما بعد بطلا من أعظم عمالقة التاريخ. يحاول أن يهرب من مقاتلة والده، وينشغل بقتال الآخرين. ويأبى والده ألا أن يقاتله، فلا يجد مفرا من قتال أبيه وقتله..

ووجد أبو جهل.. عدو الله وعدو رسوله أن الميزان قد انقلب لصالح المسلمين.. وأن معركة قريش معركة خاسرة.. فحاول أن يختفى وينجو بنفسه، وهو الذى طالما عذب المسلمين، وسامهم سوء العذاب.

.. ويتقدم إليه فتى صغير من فتيان المدينة وهو معاذ بن عمرو فيضربه بسيفه، فيطير نصف ساقه.. ويأتى ابنه عكرمة يحاول إنقاذ أبيه ويأخذ فى محاربة الفتى الصغير، فإذا بفتى آخر من الأنصار يرى عدو الله، فيطعنه بالرمح، فيسقط غارقا فى دمائه.. يحاول أن يخفى وجهه حتى لا يجهز عليه أحد من المسلمين ويراه عبد الله بن مسعود.. فيضع قدمه على عنقه.. فابن مسعود راعى الغنم الفقير فى مكة.. والذى ملأ الله قلبه بنور الإسلام لم ينس مواقف أبى جهل من المسلمين فى مكة.. فإذا به يضغط على عنق عدو الله.. وينظر إليه أبو جهل، وينتابه حزن عميق.. إن نهايته على يد هذا الرجل الذى طالما كان يسخر منه فى مكة ويستهين به وينزل به ألوانا من العذاب.. ولكنه حتى فى هذه اللحظات لا ينسى عدو الله صلفه وكبرياءه فيقول لابن مسعود.

- لقد ارتقيت مرتقى وعرا يا رويعى الغنم.

فيرد عليه ابن مسعود:

- انظر يا عدو الله ما يصنع بك راعى الغنم..

وظل ابن مسعود يضغط على رقبة أبى جهل حتى فارق الحياة..

وانطلق ابن مسعود يبشر النبى بمقتل أبى جهل، ويسر الرسول ويذهب حيث يرى عدو الله راقدا جثة هامدة، وهو الذى طالما ملأ أجواء مكة حقدا على النبى ورسالته.. فقال النبى الكريم:

- الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله!.

وقال عنه: اليوم هلك فرعون هذه الأمة.

وفى هذه المعركة أيضا قتل أمية بن خلف على يد بلال بن رباح الذى ذاق منه أمر العذاب.. على رمال مكة.. وهو ينادى فى عذابه: أحد.. أحد.. أحد.. أحد.. حتى أنقذه الصديق بشرائه وعتق رقبته..

.. مشهد لم يعرف له التاريخ مثيلا.. قلة مؤمنة صابرة تنتصر على كثرة ظالمة.. فقد انتهت المعركة.. وولى المشركون الأدبار.. تاركين سبعين أسيرا.. وسبعين قتيلا..

ويأمر النبى ﷺ بدفن شهداء المسلمين..

ويأمر أيضا بدفن المشركين..

ومكث النبى فى بدر ثلاثة أيام.. وأرسل واحدا من الأنصار وآخر من المهاجرين ليترقبوا نبأ النصر بها.. وعندما دخلوا المدينة، كانت رقية بنت الرسول ﷺ قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى، وكانت زوجة لعثمان بن عفان.. ورجع النبى إلى المدينة، وكان قد أمر بقتل النضر بن الحارث الذى طالما افترى على النبى الأكاذيب، وقال إن ما جاء به محمد مجرد أساطير، وكذلك قتل عقبة بن معيط الذى كان يسىء الجوار للنبى، فقد كان يلقى الروث عليه، وذات مرة وضع رجله على عنق النبى أثناء صلاته!!

ورجع النبى إلى المدينة، واستقبلته المدينة استقبالا رائعا.. فها هو نصر الله قد تم.. وهذه الحياة وقد لبست ثوبا جديدا.. فهذا يوم لا ينسى من ذاكرة التاريخ..

وقد اختلف المسلمون فى أمر الأسرى.. فأشار عمر بقتلهم، وأشار الصديق بفدائهم..

فقال النبى: مثل أبى بكر كمثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].. وكمثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ومثل عمر كمثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]. وكمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ولقد مال النبى إلى رأى الصديق، بعد أن استشار الصحابة، ولكن القرآن جاء مؤيدا رأى ابن الخطاب.

ونزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وكان المسلمون قد جعلوا فداء الأسير أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وأن يكون فداء الغنى على قدر ما يمتلك من أموال..

وهكذا بدأت صفحة جديدة من صفحات الإسلام، حيث تحقق نصر المسلمين على مكة، وانعشوا اقتصاديا بما آل إليهم من غنائم وأسرى فى بدر.. وعقب خروج يهود بنى قينقاع..

ومن هنا فقد أصاب عليه الصلاة والسلام كبد الحقيقة وهو يتحدث عما تركته معركة بدر من آثار كبيرة على مجرى الأحداث فقال:

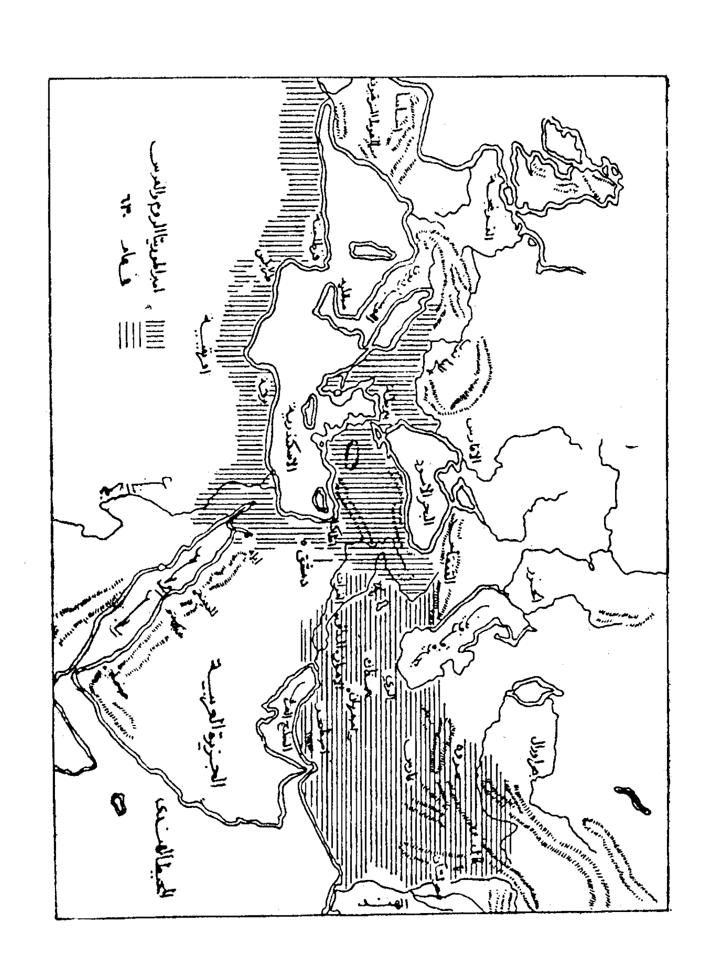
- «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فانى قد غفرت لكم».

* * *

قوة ثالثة.. بين قوتين

كان النبى عليه الصلاة والسلام فى الجزيرة العربية، يقوم بنشر الدعوة.. ويجابه قريشا ويحطم كبرياءها فى بدر، ويستعد لجولات أخرى مع قريش، ومع اليهود الذين ينكثون عهودهم، ومع ما جاروه من قبائل أخرى تنضم بعضها إلى مكة وبعضها الآخر ينظر أى كفة ترجح. كفة النبى أم كفة أعداء الإسلام.. بينما الأوضاع قلقة فى شبه الجزيرة العربية كلها .. البعض يخشى على مستقبله وعلى ما درج عليه من عادات وتقاليد، جاء الإسلام ليجتثها من الأعماق.. والبعض الآخر يراقب الأحداث وهى تجرى بسرعة.. وكل يوم يمر تزداد قوة الإسلام والمسلمين.

بينما النبى فى المدينة يقوم بكل هذه الأعباء الجسام.. مناضلا ومجاهدا.. وملبيا نداء ربه ..وفى نفس الوقت عابدا متهجدا لله.. يقوم ليله.. حتى.. تتورم قدماه.. وهو يناجى ربه العظيم.. ويقيم أعظم مجتمع عرفه التاريخ ..بينما كان النبى يقوم بكل هذا.. كانت تدور أحداث خطيرة على مستوى العالم الخارجى.. أو القوتين الكبيرتين اللتين كانت بأيديهما مقاليد ذلك العالم.. وهما دولة الفرس، حيث يتربع الأكاسرة على عرشها.. ودولة الرومان حيث يتربع القياصرة.. فدارت بينهما الحروب المهلكة.. وما كان يدور بخلد أكاسرة الفرس، وأباطرة روما.. وهما يتصوران أنهما يملكان السيادة على الدنيا كلها.. أنهما سيواجهان هذه الدولة الجديدة التى يقيم دعامتها على العدل.. محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.. فى المدينة.



امبراطوريتا الروم والفرس
في عام ٦٣٠
الجزيرة العربية
المحيط الهندي
البحر الأسود
الاسكندرية
دمشق
الخزر

وكان الصراع على أشده بين الدولتين الكبيرتين.. فعندما اعتلى هرقل عرش القسطنطينية عام ٦١٠ ميلادية.. وما كاد يتربع عليه.. حتى اجتاحت جيوش كسرى أنطاكية والقدس عام ٦١٤، وبعدها بعامين سقطت مصر تحت سنابك جيوش كسرى.. كما زحفت الجيوش الفارسية الأخرى عبر أسيا الصغرى، حتى اقتربت من أبواب القسطنطينية.. وفى الوقت الذى داهم فيه الامبراطورية خطر الفرس، كان هناك خطر آخر قادم على الامبراطورية، يهدد كيانها، قادم من مناطق روسيا الجنوبية .. وكان شعب من البرابرة يطلق عليه الأفارس.. وكان هذا الجيش قد استطاع اجتياح البلقان، مقتربا من أسوار القسطنطينية.

وأمام هذا الخطر الزاحف والكاسح من الفرس ومن البرابرة.. قرر كسرى أن يهرب، إلى قرطاجنة، حيث يوطد دعائم ملكه هناك فى الشمال الأفريقى!!

ولكن البطريك نصحه أن يعقد هدنة مع أعدائه.. وخصوصا الفرس، حتى يدعم ملكه.. وبعد مفاوضات مضنية وافق كسرى على الهدنة بشروط مهينة للرومان.. فقد فرض على الرومان فدية كبيرة.. قبلها هرقل صاغرا.. لإنه بجانب الأخطار التى كانت تتهدده من الخارج كان الصراع بينه وبين مجلس الشيوخ على أشده، فى سبيل أيهما يكون له السلطة، والهيمنة على الحكم.. وأخذ هرقل يخطط لمستقبله ومستقبل الروم.. وبدأ خطته بأن سلم مقاليد الحكم لمجلس الشيوخ والبطريرك .. وقرر أن يهرب من الحصار المفروض عليه من الفرس والأفارس، ويحقق طموحاته الحربية، ويستطيع بالفعل أن يخرج بجيش كبير على أسطوله، وعبر الدردنيل ونزل إلى الساحل الشمالى من خليج الإسكندرية وسيطر على (بوابة كيكية) فى مضيق جبل طوروس.. وأقام معسكره قريبا من المكان الذى أقام فيه الإسكندر الأكبر، وقهر جيش بزعامة (دارا) قبل هذا التاريخ بألف عام ! واستطاع أن يحطم إمدادات الجيش الفارسى ثم يعود عام ٦٢٢ إلى القسطنطينية..

وفى دوامة هذا الصراع بين الامبراطوريتين الكبيرتين اللتين تسيطران على العالم المعروف كله.. كان النبى قد هاجر إلى المدينة يوطد دعائم دعوته.

وظل هرقل بعد ذلك يشن هجمات مضادة على الفرس.. إلى أن استطاع الانتصار على الفرس، وعلى الآفارس، واضطر الفرس إلى الانسحاب من مصر وسوريا ومن ضفاف البسفور أيضا.

وبينما يوالى هرقل انتصاراته على الفرس.. كان يدور فى داخل الأراضى الفارسية صراع عنيف أيضا على السلطة فقام شيرويه باغتيال والده كسرى أبرويز عام (٦٢٨) واتفق الفرس والرومان على معاهدة .. تعود الحدود بينهما إلى ما كانت عليه عام (٦٠٢)..

يوم عصيب

لنرجع إلى مدينة الرسول العظيم.. حيث يفوح عطر النبوة.. وجلال الرسالة .. ولنرجع إلى صراع الكفر مع الإيمان.. فها هى قريش قد عادت إلى مكة ممزقة تعتصرها الأحزان، ويلفها ظلام الهزيمة.. وقد فقدت على ثرى بدر عددا من ساداتها.. وعددا من كبار رؤوس الكفر الذين طالما كادوا للإسلام ورسول الإسلام.. ها هم يرجعون منكسى الرؤوس، فقد أذلتهم الهزيمة، وجللهم العار.. واستقبلتهم مكة بأثواب الحداد.. وفى الصدور ما فى الصدور من حقد وكمد، وهم يرون راية الإسلام ترتفع فى سماء المدينة.. ويشعرون بأنهم سيعيشون مستقبلا بالغ القتامة..فمعركة بدر لن تكون الأخيرة.. وتجارتهم إلى سوريا لن تنجو أبدا من تهديدات المسلمين، وهى فى نفس الوقت عصب حياتهم.. بل إن الحياة بلا تجارة تعنى الموت.. والتجارة لابد أن تمر بشكل أو بآخر تحت تهديد المسلمين.. والمسلمون قد أصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب.. فلابد من الثأر ..ولابد من الانتقام..ولعبت العصبية القبلية فعل السحر فى النفوس، فباتت ولا حديث

لكل بيت إلا الثأر من المسلمين.. والاستعداد لهذا اليوم الذى يمكن أن يرفع فيها المكى رأسه، ويعلن بين القبائل أنه انتقم لهزيمة بدر.. وقد بلغ الحقد منتهاه، حتى مات كمدا عدو الله أبو لهب بعد أن سمع بانتصار المسلمين.

وكان العباس عم النبى يراقب ما يجرى على ساحة مكة بحذر.. وما كانوا يشكون فيه لأنه لم يدخل دين ابن اخيه.. وقد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يبلغ ابن أخيه ما يدبره المشركون حتى لا يفاجئوا النبى فى المدينة بجيشهم ويقضوا على الدعوة فى مركزها.. ولم يكد يمضى عام على هزيمة بدر، حتى خرجت قريش بجيش ضخم يضم ثلاثة آلاف رجل، فيهم مائتا فارس، وسبعمائة من أصحاب الدروع.. وخلف هذا الجيش كانت هناك بعض النسوة ذهبن لتشجيع جيش الكفر، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، والتى كان يغلى الحقد فى قلبها، وخاصة على حمزة عم النبى الذى قتل ابن عمها شيبة فى بدر.. كما أجهز على أبيها عتبة، وقد أغرت عبدا لمطعم بن جبير يسمى (وحشى).. أن يقتل حمزة لانه كان ماهرا فى رمى الحربة.. ووعدته بالمال الكثير إن حقق هذا الأمل العزيز إلى نفسها!!

وسار جيش الكفار صوب المدينة، تهزه النشوة بكثرة عدده وعتاده، وتهزه.. الكبرياء الجريحة فى معركة بدر.. وكان منتهى آمال هذا الجيش هو القضاء على رسول الله نفسه.

وخشى العباس عم النبى أن يهاجم جيش الكفر النبى بغته، فأرسل برسالة إلى ابن أخيه مع رجل يثق فيه من غفار، يحذره من الجيوش القادمة إلى المدينة.. وقد سلم الرجل الرسالة، وكان النبى فى قباء.. وانتشر الخبر فى المدينة، وأخذ اليهود والمنافقون يروجون الإشاعات، ويبذرون الفتن، ويشككون الناس فى النصر.. وأخذ النبى للأمر عدته.. رغم أن الوقت قصير لاستعداد، وكان من رأى النبى أن يظل فى المدينة يدافع عنها من الداخل، وكان ذلك أيضا - بجانب رأى الرسول الكريم - رأى عبد الله ابن أبى، ولكن عددا من الشباب، كان يرى فى ذلك تخاذلا وأنهم لابد أن

يواجهوا كفار مكة، يذيقونهم نفس الهزيمة التى ذاقوها فى بدر.. وتحمس الكثيرون لهذا الرأى.. والنبى كان دائما يستشير أصحابه فيما لا ينزل فيه وحى..فنزل على رأيهم، وصلى النبى بالناس صلاة العصر، وأمرهم بالاستعداد للقتال.. على أن يبقى الأطفال والنساء فى الحصون، ودخل بيته عليه الصلاة والسلام، ولبس عدة الحرب.. وخرج يقود الناس فى معركة مع الشرك..ولكن الناس أخذوا يتناقشون فيما حدث من حوار بينهم وبين النبى، فإذا كان النبى قد نزل إلى آراء الناس لأن أكثرهم كان مقتنعا بالخروج خارج المدينة على عكس رأى النبى.. فقد خافوا أن يكون النبى قد حزن لذلك وقرروا أن يعودوا للرسول مرة ثانية يعرضون النزول عند رأيه.

رأى شباب المدينة..

وخرج إليهم الرسول الكريم.. مهيبا.. جليلا.. تطل من قسمات وجهه النور.. فقد تقلد سيفه، وترسه وراء ظهره.. وعرضوا عليه أن يتبعوا مشورته ويحاربوا داخل المدينة، وهو قتال لم تألفه قريش، ولكن النبى قال لهم:

- لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه..

وأخذ النبى ينظم جيشه.. ثلاثة ألوية.. أحدهما يحمل لواءه مصعب ابن عمير عن المهاجرين، والثانى يحمله عن الأوس (أسيد بن حضير) والثالث يمثل الخزرج ويحمله (الحباب بن المنذر)..

وخرج النبى على فرسه فى ألف فارس من المهاجرين والأنصار منهم مائة يلبسون الدروع..

وكم كان المشهد رائعا ومهيبا، فى ذلك اليوم.. وكان اليوم السادس من

شوال فى السنة الثالثة من الهجرة.. وكانت الشمس قد جنحت نحو المغيب، والرسول الكريم يتقدم صوب أحد لملاقاة أعداء الله، بقيادة أبى سفيان ابن حرب، ومضى الرسول الكريم بجيشه، وفى الطريق خرج عبد الله بن أبى بن سلول المنافق الكبير عن جيش الرسول وكان معه ثلثمائة رجل، وعادوا إلى المدينة بحجة أن النبى لم يستمع إلى مشورته فى البقاء فى المدينة، والمحاربة فيها، بينما استمع إلى رأى الشباب..!

وهكذا فقد جيش المسلمين ثلث قوته..

وسار النبى ﷺ، وكان ذلك بعد أن صلى الفجر فى السابع من شوال، عبر جبل أحد.. حتى إذا ما ظهرت الشمس كان النبى قد عسكر بجيشه أمام سفح جبل أحد.. حتى يكون الجيش محميا من الظهر بالجبل، وأمر خمسين رجلا من الذين يحسنون الرمى أن يقفوا فى الأماكن التى حددها لهم فوق جبل أحد، وأمرهم ألا يتركوا أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة، وكان أميرهم عبد الله بن جبير..

وقال النبى لقائدهم:

– انضح الخيل عنا بالسهام فارشقوهم بها، فإن الخيل لا تقدم عليها.. إنا لا نزال غالبين ما ثكنتم مكانكم. «اللهم إنى أشهدك عليهم»..

ووقف النبى العظيم.. بشخصيته الآسرة.. ومهابته، يوجه للمقاتلين حديثا.. ويحثهم على الجهاد: حمد الله واثنى عليه وقال:

– ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به.. ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا ونهيتكم عنه، وانه نفث إلى الروح الأمين انه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن ابطأ عنها.. فاتقوا الله ربكم واجملوا فى طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله.. والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده.. والسلام عليكم..

وأصبح جيش المسلمين معداً أحسن إعداد للدفاع أمام جيش يفوقه عددا وعتادا وإذا بالمشركين يذهلهم ما وجدوه من حسن قيادة النبى . .

وكان جيش قريش قد عقد قيادته لأبى سفيان وكان هو قلب الجيش، أما الميمنة فكانت بقيادة خالد بن الوليد . . والميسرة بقيادة عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية بن خلف على رأس المشاة . .

ولما كانت المعركة تبدأ بالمبارزة بين عدد من الفريقين، فقد خرج من صفوف المسلمين، على بن أبى طالب، وحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص، وقتلوا حملة اللواء من قريش من بنى عبد الدار . . وسقط فى بداية المبارزة سبعة من حملة اللواء من قريش . .

وابتدأ القتال عنيفا . . المسلمون يقاتلون قتال الأبطال . . وفى الساحة ترتفع سيوف المسلمين على رقاب المشركين، فتتطاير الرؤوس . . والرماة على جبل أحد يسندون ظهور المسلمين . . ووسط المعركة برزت سيوف هى الموت بعينه تحصد أعداء الله . . برزت سيوف حمزة، وعلى، وأبى دجانة . . وتحت ضغط سيوفهم تهاوت الرؤوس . . وكان هناك (وحشى) يترقب حمزة، وانتهز فرصة تعثره فى حفرة، وسقوطه على ظهره فرماه بحربته فسقط شهيدا . .

خطيئة الرماة..

وانكشف العدو . . وتراجعوا أمام ضربات المسلمين . . تاركين قتلاهم . . وأسلحتهم . . وتصور الرماة أن قريشا قد هزمت هزيمة منكرة، فنزلوا من فوق أحد طمعا فى الغنائم . . وعصوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، وكان خالد بن الوليد يرقب أرض المعركة بعينى صقر . . ووجدها فرصة أن يلتف حول المسلمين، بعد أن ترك الرماة أماكنهم . . ويفاجئهم من الخلف، ويصبح المسلمون محاصرين من الأمام والخلف من جيوش مكة . . ثم كروا على

جيوش المسلمين من كل جانب، وأصاب الهجوم المسلمين بالذهول.. وكان همُّ قريش الأول هو قتل النبى ﷺ، وتوجه أحدهم إلى مصعب بن عمير فقتله.. وكان يظنه النبى ﷺ، وصاح بأعلى صوته بأنه قتل محمدا.. فإذا بهذا النبأ يهز أوصال المسلمين.. فإذا بعضهم يفر من هول المعركة.. إما إلى صخور أحد، أو فى محاولة للعودة إلى المدينة.

ووقف النبى فى المعركة صامدا.. مجالدا أعداءه.. وقلة من المؤمنين يحمونه بأجسامهم.. ويفدونه بأرواحهم.. وعند الشدة تبرز معادن الرجال.. فى هذه المعركة ظهرت بطولات أغرب من الخيال.. أناس قرروا أن يستشهدوا فداءً لنبيهم.. فهذا هو طلحة بن عبيد الله يفدى رسول الله بسيف كان موجها إليه، فيتلقاه بيده.. وتطير أصابعه.. ويظل هو فى دفاعه المجيد عن النبى ﷺ.

وفى هذا الموقف تبرز شجاعة (أبو دجانة).. وهو يضرب بسيفه أعداء الله .. ويتغنى بأبيات من الشعر.. والأعداء يتساقطون أمام سيفه.. وهو واقف يحمى الرسول الكريم:

أنا الــذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكبول أضرب بسيف الله والرسول

وهو يقصد أن يضرب فى الصفوف الأمامية كما علمه خليله عليه الصلاة والسلام.. وقد استشهد أبو دجانة بعد أن حارب بسيفه، ثم أخذ يحمى الرسول بجسده، ويتلقى الطعنات الكثيرة، إلى أن خرجت روحه الطاهرة إلى أعظم رحاب.

ومن الصور الرائعة للجهاد، صورة أنس بن النضر، الذى حث بعض القاعدين من المسلمين عن الجهاد، بعد أن صدقوا أن النبى قد قتل، وطلب منهم أن يموتوا على ما مات عليه الرسول الكريم، وقاتل بشجاعة منقطعة النظير، حتى سقط شهيدا..

ويجاهد عبد الرحمن بن عوف جهادا عظيما، حتى كسرت أحدى ساقيه.. وتدافع الكفار صوب الرسول العظيم.. السهام مصوبة نحوه ..والسيوف متجهة إليه.. والرماح تنطلق تريده.. حتى الحجارة استعملوها للنيل منه، وكسرت سنة للنبى، وشج وجهه.. وخرجت الدماء تملأ وجهه الشريف.. وتقدم إليه (أبى بن خلف) يريد قتله، فأخذ النبى حربة وصوبها نحوه، فسقط مضرجا فى دمائه.. وبدأ القتال يهدأ.. فقد اعتقد الكافرون أن النبى قد قتل، وكذلك بعض المسلمين، فقريش قد اعتقدت أنها حققت النصر الأعظم بقتلها النبى.

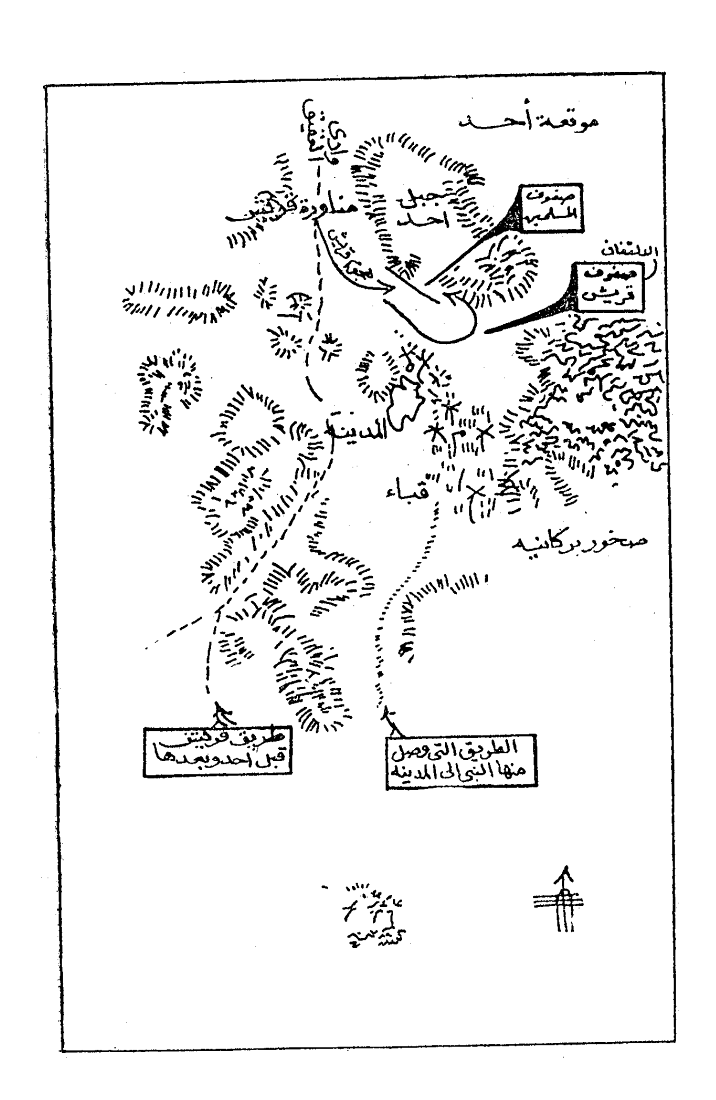
ورأى كعب بن مالك النبى ﷺ، فصاح يبشر المسلمين بأن النبى على قيد الحياة، وأمره النبى بالصمت فصمت، وجاء أبو بكر وعمر، وعلى بن أبى طالب، حيث الرسول الكريم، والدماء تنزف منه. فأخذوه إلى كهف بجبل أحد يشاهد المعركة من مكانه الأمين هذا.

وانشغل المشركون بقتلاهم.. وأخذوا يُمَثلون جثث الشهداء من المسلمين.. وقد بلغت قسوة هند بنت عتبة، أن أخرجت كبد سيد الشهداء حمزة ولاكتها بفمها.. ولم يتورع أبو سفيان نفسه، أن يذهب إلى جثة حمزة، ويضربها برمحه ويقول له: ذق عقق (أى تذوق أيها العاق).

وعندما رآه سيد الأحباش، واستنكر فعلته، خجل وخشى أن يعير بذلك، فطلب من (الحليس) ألا يذكر شيئا عما رآه!

بيننا وبينكم موعد..

وكان منتهى أمل أبى سفيان، أن ينتشى طربا ويتأكد من موت النبى، فنادى المسلمين، يسأل عن النبى وأصحابه.. وساد الصمت.. استجابة لأمر رسول الله.. ولكن عمر بن الخطاب ما كان ليحتمل تشفى أبى سفيان فى النبى، وفرحه بموته فرد على أبى سفيان:


موقعة أحد
جبل أحد
مناورة قريش
صفوف قريش
الالتفاف
المدينة
قباء
صخور بركانيه
طريق قريش قبل احد وبعدها
الطريق التى وصل منها النبى الى المدينه

- كذبت يا عدو الله . . قد أبقى الله لك ما يسؤوك . .

قال أبو سفيان: أقتل محمد؟

قال عمر: أنه يسمع كلامك الآن . .

قال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبر . .

وصاح أبو سفيان: إن الحرب سجال . . أعل هبل . . أعل هبل . .

أمر النبى عمر أن يرد عليه بقوله: إن الله أعلى وأجل . . لا سواء . . قتلانا فى الجنة . . وقتلاكم فى النار.

وأنصرف أبو سفيان وهو يقول: إن موعدكم بدر للعام القادم . .

وأمر الرسول من يرد عليه: نعم هو بيننا وبينكم موعد . .

وأمر النبى على بن أبى طالب أن يتبع قريشا، هل هم يريدون المدينة . . فالمدينة ليس فيها من يحميها، أم أنهم يتوجهون إلى مكة . .

فقال لعلى:

- «اخرج فى آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وساقوا الأبل، فإنهم يريدون المدينة . . والذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم».

وخرج على فى أثرهم وعاد ليخبر النبى أنهم اتجهوا صوب مكة . .

انتهت المعركة التى سقط فيها سبعون شهيدا من المسلمين، وسقط فيها من المشركين اثنان وعشرون قتيلا . . وانفض تراب المعركة . . وخرج المسلمون يدفنون موتاهم . . هؤلاء الذين مثل بهم المشركون . . وقد خرج النبى من هذه المعركة مثقلا بالجراح . . فقد كان الهدف الأول لانتقام مكة. ولكن النبى العظيم . . الذى قال لعلى الذى أحضر له ماء يمسح به جراحه: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟

النبى العظيم رغم جراحه.. وإرهاقه، سأل عن سعد بن الربيع هل هو فى الأحياء أم فى الأموات؟ وكان سعد جريحا فى الرمق الأخير، توجه إليه أحد الأنصار فرآه فى آخر لحظات عمره.. من أثر الجراح.

قال له الأنصارى:

- إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟

قال: أنا فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام، وقل له: أن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك.. عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: أنه لا عذر لكم عند الله أن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف.. و..مات سعد وأخبر الأنصارى خبره لرسول الله.

وخرج النبى إلى ساحة المعركة.. ووجد عمه حمزة، وكيف مثلوا بجسده الطاهر..وأمام هذا المشهد الحزين.. وجثث الشهداء فى العراء..وقف أمام جثة حمزة وقال:

- لن أصاب بمثلك أبدا.. ما وقفت موقفاً أغيظ إلىّ من هذا .. إنا لله وإنا إليه راجعون.. رحمك الله يا عمى، لقد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، فوالله لئن نصرنى الله عليهم لأمثلن بسبعين منهم.

نزل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وجاءت حيث الشهيد العظيم حمزة أخته صفية، ورأت ما أصاب أخاها.. فقالت بكل الإيمان:

- إن يوما أتى عليك ليوم كدرت شمسه وكان مضيئا..

وكان النبى يخشى عليها من هذا المشهد فأمر ابنها الزبير أن يردها حتى لا تشاهد ما يحزنها. .ولكنها شاهدت أخاها وترحمت عليه، واحتسبته عند الله.

وفى ساحة المعركة رأى النبى الكريم «مصعب بن عمير» الداعية الأول للإسلام فى يثرب، وهو راقد بين الشهداء فى حلة بالية. . فقال له الرسول العظيم:

- «لقد رأيتك بمكة، وما بها أحد أرق حلة، ولا أحسن لمة منك ثم أنت اليوم أشعث أغبر الرأس فى بردة»!!

ودفن المسلمون قتلاهم. . وقد أصابهم ما أصابهم من الإعياء الشديد. . ووقف النبى على قبورهم وقال:

أنا شهيد على هؤلاء. . إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا وبعثه الله يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك. .

ثم يعزم الرسول الكريم على العودة إلى المدينة. . وحوله الأنصار والمهاجرون. . وفى طريق العودة. . كان يدور فى نفوس المسلمين ما يدور من تلك الأحداث الدامية. . ماذا لو أطاعوا الرسول. . ولم يخالفوا أمره. . وينزل الرماة من فوق الجبل؟ وماذا لو لم يتفرق البعض منهم عن النبى والمعركة فى أوج عنفوانها ؟. . و. . ما أكثر الأسئلة التى دارت فى الأذهان. . لكن النبى الكريم. .أخذ يسير فى طريقه إلى مكة. . وهو الذى على خلق عظيم كما وصفه خالقه فلم يثر حول ما حدث أى حديث. . ترك أتباعه يستوعبون بأنفسهم الدرس. . ويعرفون أن النصر وإن كان من عند الله إلا أن عليهم أن يتخذوا أسباب النصر. . من جهاد وكفاح وتضحية. . وإطاعة لأمر النبى.

ولكن مع ذلك فالنبى الكريم يقول لهم كلمة تطمئن نفوسهم أن ما حدث فى أحد لن يتكرر مرة أخرى. . ولكن الانتصارات سوف تتوالى، وأن المسلمين سيدخلون مكة نفسها حيث بيت الله الحرام. قال لهم:

- والله لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الحجر».

وعاد نبى الله إلى المدينة.

استقبلته النساء اللائى فقدن أزواجهن أو أخواتهن أو أولادهن.. يعلو وجوههن الصبر الجميل.. فقد أطلت فى قلوبهن الآمال، وهن يرين رسول الله بينهن.. أن النبى يشاهد أم سعد بن معاذ التى فقدت ابنها عمر فى المعركة.. فيعزيها الرسول..فتقول له: أما إذا رأيتك سالما فقد هانت على المصيبة.

وعاد الرسول إلى بيته.. متعبا.. وأذن بلال لصلاة المغرب، فخرج إلى المسجد، وصلى بالناس جالسا.

ويعبر القرآن الكريم بكلماته المعجزة، عن هذه المعركة، وما ينبغى أن يستفيد المسلمون بما فيها من دروس.

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٤٠].

ثم يصور القرآن العظيم، منزلة هؤلاء الذين آثروا الموت على الحياة دفاعا عن العقيدة:

﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٧٠].

وما كان اليهود والمنافقون فى المدينة إلا أن يفرحوا.. وأن يظهروا شماتتهم حينا، ويخفوها أحيانا.. ولكن النبى العظيم كان يعرف ما يدور فى عقول هؤلاء الكافرين والمنافقين.. وحتى يظهر لهم أن الإسلام لم يضعف من جراء ما حدث فى أحد.. فإنه قد قرر فى اليوم التالى من العودة من أحد، أن يذهب فى أثر كفار قريش، وأمر النبى أن يخرج معه للجهاد الذين

شهدوا معه معركة أحد. . رغم جراحهم. . وأمر النبى عبد الله بن أم مكتوم أن يكون أميرا على المدينة أثناء غيابه عنها، وأعطى اللواء لعلى بن أبى طالب. . وأقام بحمراء الأسد ثلاثة أيام. . وعلمت قريش أن النبى قد خرج فى أثرهم فقرر أبو سفيان العودة إلى مكة وخشى أن يجابه المسلمين مرة أخرى، فينتصروا عليه، ويذهب النصر الذى حققته مكة فى أحد.

وكان هذا الموقف الرائع من النبى ﷺ، هو ما جعل اليهود والمنافقين يخشون قوة المسلمين وبأسهم. . وعلموا أن حركة الإسلام لن تتوقف. . وأن قوة المسلمين لم تضعف. . بل أن هذه المحنة زادتهم إصراراً على مجابهة الكفر والشرك. . وإنهم ماضون مع النبى وهو ينشر الرسالة مهما كانت ضراوة المعارك. . وقد وقع فى قبضة المسلمين أثناء عودتهم إلى المدينة (أبو عزة الشاعر) . . وكان النبى قد عفا عنه يوم بدر، على ألا يهجو المسلمين ووعد بذلك، ولكنه أخلف وعده. . وها هو اليوم وقد وقع فى قبضة المسلمين. . فأراد أن يحتال مرة ثانية. . وأن يتوسل للرسول أن يتركه، وأخذ يستعطف النبى، ولكن ما كان أن يخدع المسلمين مرتين. . فأمر النبى بقتله. . بعد أن قال له:

- «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرتين. . ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». .

* * *

- ٦ -

النبى ويهود بنى النضير

تربص اليهود بالنبى ﷺ، فبينما توجه إليهم فى أمر دية قتيلين من حلفائهم، فإذا بهم يبيتون أمرا خطيرا، بأن يقتلوا النبى ﷺ، بأن يرموا حجرا على رأسه أثناء جلوسه بجانب جدار من جدرانهم، ولكن الله خيب أملهم، فقد أوحى الله إليه بما يدبره اليهود، فرجع النبى إلى المدينة، وأصيب اليهود بالحيرة بعد أن أذهب الله ما يبيتون من جريمة بشعة . . !

وما كان النبى أن يهادنهم بعد أن قطعوا كل الحبال بينهم وبينه وبعث إليهم النبى يأمرهم بالخروج من المدينة، وأصيبوا بالذعر، وأخذوا يفكرون فى أمر النبى لهم بالخروج بعد عشر ليال من إنذارهم، ومن يبقى منهم فى المدينة بعد ذلك سوف يقتل . . لقد أصيبوا بالذعر، ولكن حليفهم زعيم المنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول، سولت له نفسه أن يكيد للإسلام، فحرضهم على قتال النبى، ووعدهم بالوقوف بجانبهم، وإمدادهم بالرجال والعتاد، مما جعل اليهود يرسلون إلى النبى برفضهم الجلاء عن المدينة . . وكان لابد من قتالهم . . وأرسل النبى إليهم على بن أبى طالب قائدا للمهاجمين . . وحاصرهم . . وأحكم الحصار عليهم . . مما اضطر اليهود إلى قبول أمر النبى . . وطلبوا من الرسول أن يخرجوا بأموالهم، وسمح الرسول لهم أن يخرجوا على قدر ما تحمل الأبل من الأموال، ما عدا السلاح . . ورحل اليهود بعد أن حملوا ما معهم من متاع على ستمائة جمل، وتوجهوا إلى خيبر فى الشام . .

وكان جلاء يهود بنى النضير فى شهر ربيع الأول فى العام الرابع الهجرى .

وهكذا خرج اليهود، ولم يستطع أن يناصرهم ابن أبى وآلت غنائم اليهود من السكن وما تركوه من غنائم إلى المسلمين، وقد آثر النبى أن تكون هذه الغنائم للمهاجرين دون الأنصار. . لأن المهاجرين كانوا يشاركون الأنصار فى السكن. . ففضل أن يستقلوا فى بيوت لهم. . وقد استشار النبى الكريم الأنصار فى هذا الأمر فوافقوا عليه. .وبلغ بهم الإيثار. وحبهم للمهاجرين، أن عرض سعد بن معاذ، وسعد بن عباده، أن يأخذ المهاجرون هذه الغنائم ويظلوا مع الأنصار فى مساكنهم. . مما جعل النبى ﷺ أمام هذا الموقف الكريم من الأنصار، يدعو ربه قائلا:

- «اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار». .

ودخل فى هذه القسمة رجلين من فقراء الأنصار هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة. .

واستقرت الأحوال بالمسلمين. . وأخذ النبى يرشد الناس إلى ما فى الإسلام من مبادئ وقيم ودستور حياة، ثم نزل الوحى بتحريم الخمر تحريما قاطعا. . وكان هذا التحريم قد بدأ بالتدريج. . فقد بدأ القرآن الكريم يحث الناس على ترك الخمر لما فيها من ضرر فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [**البقرة**: ٢١٩].

وظل بعض المسلمين يشربونها، فحرم القرآن شرابها قبل الصلاة حتى لا يؤدوا الصلاة وهم سكارى. .

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [**النساء**: ٤٣].

ثم حرمت بعد ذلك تماما بنزول قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

مدينة رسول الله تعيش أسعد أيامها.. فقد تغيرت الأحوال الاقتصادية للمسلمين مع بداية الإذن لهم بالجهاد.. وقد أنعم الله عليهم بما ربحوه من غنائم الأعداء، فأصبحوا بفضل من الله فى حالة أكثر يسرا ..ولكنهم كانوا يترقبون أيضا ما تأتى به الأحداث.. فقريش ما زال يؤلمها ويؤرقها ما وصل إليه المسلمون من قوة ومنعة، ورغم ما حققوه من انتصار فى أحد، فلم يكن هذا الانتصار حاسما.. لأنه لم يقض على المسلمين، ولم يضع نهاية للدعوة.. ولا أوقف مسارها.. فالإسلام ينتشر فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية.. والدعوة وصل صداها إلى كل مكان.. فقد علم بها الذين ظلوا على دين الأباء والأجداد.. وأخذوا يفكرون فى الدعوة.. ورغم أن العادة تغلبت على الأكثرية فظلوا يؤمنون إيمانا أعمى بما توارثوه من عقيدة الآباء والأجداد.. إلا أنهم ما عادوا يأمنون على عقيدتهم من أن يزلزلها ما جاء به محمد من عقيدة تخاطب العقل والقلب جميعا.. وتصل إلى القلب والعقل بسهولة ويسر.

فالإسلام أصبح قوة يعمل لها ألف حساب..فقد بلغت من قوة المسلمين أنهم أخرجوا بالقوة يهود بنى قينقاع من المدينة، وأرغموا يهود بنى النضير على الجلاء منها.. وهزموا قريشا فى بدر، وصمدوا لها فى أحد.. وقوة المسلمين فى ازدياد، وأتباعهم فى ازدياد أيضا.. وكان أشد الناس حقدا وبغضا للنبى وبما جاء به من رسالة يهود بنى قريظة ..فهم يعلمون أنهم معرضون لانتقام النبى ﷺ، طالما لم يحفظوا العهد الذى بينهم وبينه..واليهود لا يحتفظون بعهود أو مواثيق ..ومن هنا فقد قرروا أن يؤلبوا على النبى قريشا وسائر القبائل.. وخرج منهم حيى بن أخطب وكنانة بن

الحقيق وسلام بن الحقيق وغيرهم ليؤلبوا عليه أهل مكة وعددا من القبائل الموتورة من النبى والمسلمين.. وقرروا موفدين من اليهود أن يحققوا أمل اليهود فى هزيمة المسلمين على يد كل الموتورين مهما كانت النتيجة، ومهما كانت الوسيلة أيضا.. وذهبوا إلى قريش ..وتقابلوا مع زعمائها.. وأخذوا يسهلون لقريش الأمر، وأنه من الممكن أن يقضوا على الإسلام والمسلمين قضاءً مبرماً.. فيهود بنى قريظة سوف تؤازرهم من داخل المدينة، وبذلك يمكنهم إحداث ربكة فى صفوف المسلمين، عندما يزحف جيش الشرك الذى يضم مشركى مكة، والقبائل التى سوف يؤليها اليهود على المسلمين..واقتنع زعماء مكة بأقوال وفد اليهود ..والعجيب أن اليهود وهم أهل الكتاب، عندما سألهم مشركو مكة أيهما أفضل دين محمد؟ أم عبادة الأصنام؟.. قالوا فى ردهم أنهم يفضلون الوثنية على الذين يعبدون الله الواحد الأحد.. فقالوا لهم: إن دينكم خير من دينه!

بهذه الوقاحة.. وهذا الافتراء لم يعد لهؤلاء اليهود حدود يقفون عندها.. فأوغلوا فى الباطل فضلوا وأضلوا.

وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف المزرى لليهود بقوله فى سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

واقتنعت قريش برأى اليهود، وقرروا الهجوم على المسلمين فى المدينة، وصمموا أن يكون الهجوم هذه المرة كاسحا.. يقضون فيه تماما على الإسلام ونبى الإسلام.. فخرجت قريش بجيش هائل يضم أربعة آلاف مقاتل وألف وخمسمائة رجل يركبون إبلهم، وثلثمائة فارس.. وانضم إليهم مقاتلون من قبائل غطفان، وبنى مرة، وبنى فزارة، وبنى سليم، وبنى سعد، وأشجع

وبنى أسد.. تلك القبائل التى أوغر اليهود صدورهم على الإسلام.. وأصبح الجيش المتقدم صوب المدينة لمحاربة المسلمين قرابة عشرة آلاف مقاتل.. جيش هائل لم تشهده الحجاز فى أى عصر من عصورها.. يتقدم بكل قوة وخيلاء لاستئصال المسلمين!

وعلم النبى بما حدث.. وبما دبره اليهود.. وأخذ يشاور المسلمين فى الأمر، واقترح سلمان الفارسى، أن يحفر المسلمون خندقا حول المدينة.. وعمل المسلمون بهمة حتى أنهم تمكنوا من حفر الخندق فى ستة أيام، ثم حصن بيوت المدينة المواجهة للخندق، ووضع الحجارة فى الجانب الذى يلى المدينة، حتى يمكن استخدامه فى الدفاع عنها.. وأمر أن يذهب الأطفال والنساء إلى البيوت البعيدة عن الخندق..

وتقدمت جيوش الأعداء.. وكانت تتوقع أن ترى النبى عند أحد.. ولكنها ذهبت فلم تجد أثرا للمسلمين، فتقدمت صوب المدينة، وهالها أنها ترى هذا الخندق الذى لم يكن لهم عهد بمثله.. ووقفوا حائرين.. وحاولوا أن يشفوا غل قلوبهم فقالوا ما فعل محمد ذلك إلا لأنه جبن على قتالهم!

واستعد النبى للمعركة، وخرج قائدا للمسلمين فى ثلاثة آلاف مقاتل.. ونصبوا للنبى خيمته.. وأصبح المسلمون مستعدين للقتال وأصبح اجتياز الخندق مغامرة بالنسبة للمشركين.. واحتار أعداء الله.. فلم يكن أمامهم للقتال فى هذه الحرب، سوى التراشق بالنبال!

وتمر أيام وأيام..ولا وسيلة للحرب سوى تبادل الرمى بالنبال .. وهذا لا يمكن أن يحسم معركة من المعارك.. وكان الوقت شتاء.. والليل قارس.. والبرودة تفرى العظام.. وخشى حيى بن أخطب أن توهن كل هذه الظروف فى الأحزاب.. وقرر أن يلعب لعبة أخرى وهو أن يقنع يهود بنى قريظة بأن ينقضوا عهد النبى، حتى يخلخلوا الجبهة الداخلية فى المدينة.. وقد ذهب لمقابلة كعب بن أسد صاحب الكلمة المسموعة عند يهود بنى

قريظة.. وقد خشى كعب فى أول الأمر مغبة هذه المقابلة.. فهو يعلم تماما أن غدره بالمسلمين معناه مواجهة حاسمة مع النبى، وأن مصيرهم سوف يكون معروفا.. فهم يعلمون ما فعله بيهود بنى قينقاع، وبنى النضير.. ربما يكون لليهود مكانة عالية لو تحقق النصر للمشركين ..ولكن هذا الأمر ليس أكيدا.. انه لا يريد أن يغامر بمصير قومه.. ولكن حيى صمم على مقابلته.. وفتح له باب الحصن.. وتقدم حيى يقول لكعب:

– ويحك يا كعب!.. جئتك بعز الدهر، وببحر طام.. جئتك بقريش وغطفان مع قادتها وسادتها.. وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى تستأصل محمدا ومن معه..

وظل حيى يحبب لكعب نقضه لعهده مع النبى..ووقوفه مع أعداء النبى، حتى أقنع كعب، ونقض عهده، وانضم للأحزاب!

وعلم النبى بهذا التآمر الخسيس فأرسل وفدا من المسلمين يقنع اليهود بالحفاظ على عهودهم.. أرسل النبى سعد بن معاذ، وسعد بن عباده، وهما سيدا الأوس والخزرج، وعبد الله بن رواحه، وحوات بن جبير إلى اليهود يذكرهم بعهدهم من خيانة النبى، ولكنهم أصموا آذانهم.. وطلبوا من رسل رسول الله أن يرد أخوانهم من يهود بنى النضير إلى المدينة ..وحذرهم سعد ابن معاذ وكان حليفهم أن خيانتهم تلك لن تكون فى صالحهم.. وسيلقون ما لقيه يهود بنى النضير.. ورد كعب بوقاحة قائلا لسعد:

– من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!!

وكظم المسلمون غيظهم، ورجعوا للرسول ﷺ يخبرونه من أمر اليهود وما حدث منهم!

فاليهود قرروا عدم إمداد المسلمين بأى معونة، وفى نفس الوقت انضموا إلى أعدائهم، وقرروا القتال ضد المسلمين.. وهكذا أصبح موقف الإسلام فى غاية الحرج..وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف بقوله:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٣].

كان المشهد على الجانب الآخر من الخندق يبعث على الرهبة، فالأحزاب تشعل النيران بالليل.. فيبدو تجمعهم الكثيف كأنه شئ لا يقاوم.. وفى نفس الوقت كان بعض المغامرين من يهود المدينة يحاول بث الذعر فى نفوس المسلمين حتى أن صفية بنت عبد المطلب قتلت أحد هؤلاء اليهود الذى كان يحوم حول منزلها.. وأمام هذا الموقف أراد النبى أن يفك هذا التحالف الآثم.. فأرسل إلى غطفان يعدها بثلث ثمار المدينة على أن ترحل!

وتقدم للنبى نعيم بن مسعود الأشجعى.. وكان قد أسلم، ولم يعلم بإسلامه اليهود، ولا المشركون..وعرض على النبى أن يقوم بدور يفتت فيه وحدة هؤلاء الأحزاب.. فقال له النبى ﷺ:

- «أنت رجل واحد وما عسى أن تفعل، ولكن اخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة».

وكان المشركون وقد غاظهم عجزهم عن اقتحام الخندق، قرر بعضهم مناوشة المسلمين، واقتحام الخندق، واقتحمه عمرو بن ود وكان من أشجع شجعان قريش، كما اقتحمه عكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب.. وأخذ عمرو بن ود يتحدى المسلمين، ويطلب من يبارزه، وكان فى كل مرة، يبرز له على بن أبى طالب.. وكان النبى يطلب من على التريث، وفى المرة الثالثة وافق النبى أن يخرج له على بن أبى طالب، بعد أن ألبسه عمامته.

وطلب على من عمر قبل مبارزته أن يعلن إسلامه حتى يحفظ دمه !

كان عمرو صديقا لأبى طالب فقال لعلى:

- كان أبوك خلا لى ولا أريد أن أقتلك!

قال على:

- ولكنى أريد أن أقتلك.

واغتاظ عمرو.. وتصارع الفارسان.. وكان المسلمين يرقبون المشهد بخوف شديد على - على - ..وانقشع غبار المعركة فإذا بعلى قد تمكن من قتل عمرو.. وحاول أحد فرسان المشركين اقتحام الخندق، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، فدق عنقه ومات وأراد أبو سفيان أن يدفع للمسلمين ديته مائة من الأبل وكان جواب النبى ﷺ:

- «خذوه فإنه خبيث الدية»..

ولعب نعيم بن مسعود دورا عظيما فى تفتيت جبهة الأعداء، وقد ساعده على ذلك أنه كان صديقا لليهود، وصديقا لأهل قريش فى نفس الوقت، .. وكانوا يصدقونه فيما يقول..

ذهب إلى يهود بنى قريظة.. وأقنعهم بأن يأخذوا سبعين من أشراف قريش وغطفان كرهائن، عندهم.. لإنهم إذا تخلوا عن اليهود، ورجعوا إلى ديارهم فإنه لا قدرة لليهود على مجابهة المسلمين، وسيتعرضون للانتقام من المسلمين.. واقنع اليهود بذلك!!

واستحلفهم نعيم أن يكون ما كان بينه وبينهم سرا.

وذهب إلى قريش ليجتمع بسادتها وأخبرهم أن اليهود مترددون وانهم على نقضهم العهد للنبى .. ونصحهم بالحذر من اليهود!

أرادت قريش وغطفان أن تتأكد من الكلام الذى قاله نعيم ..فأرسلتا وفدا يطلب من اليهود قتال النبى فى الغد.. ولكن اليهود ردوا عليهم أنهم لا يقاتلون يوم السبت، وأن عليهم حتى يحاربوا بجانب الأحزاب، أن يتركوا لهم سبعين رجلاً رهينة!!

وهكذا بلبلت أفكار اليهود ومشركى قريش، وفقد كل طرف الثقة بالآخر وصدق اليهود، والأحزاب ما قاله نعيم، ودب الشقاق بين المتحالفين !

واستجاب الله دعاء رسوله:

- «اللهم منزل الكتاب.. سريع الحساب.. اهزم الأحزاب.. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم».

وجاء نصر الله.. أظلمت السماء حتى أصبح من العسير أن يرى الرجل كف يده، ثم هبت ريح عاصفة اقتلعت خيام الأحزاب، ودمرت مواقدهم، وأطفأت نيرانهم.. وبث الله الخوف فى قلوبهم.. وهيئ إليهم أنهم سيفاجئون بالمسلمين يعملون فيهم تقتيلا.. وهيئ إليهم أن اليهود سوف ينضمون إلى النبى خوفا منه، ويخلعون عهدهم للأحزاب.. وبث الله الفزع فى قلوبهم فإذا بطلحة بن خويلد يصيح فى معسكر الأحزاب:

- ان محمدا قد بدأكم بشر، فالنجاة النجاة !

وقال أبو سفيان:

- يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع (وهى الخيل والبغال والحمير) والخف، وأخلفنا بنو قريظة.. وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فانى مرتحل..

وسمع النبى ضوضاء الأحزاب.. فطلب من المسلمين أن يذهب أحدهم يستطلع الخبر.. كان الجو بالغ الرطوبة، والريح شديدة.. والظلام قاتما فصمتوا.. فطلب النبى ﷺ من حذيفة بن اليمان أن يستطلع الأمر.. فقرر الرجل المخاطرة، وعاد ليخبر النبى برحيل الأعداء !

وكشف الله الكرب عن المؤمنين..

وفكر النبى فى الأمر.. وما حدث من هؤلاء الذين يجاورونه وهم اليهود، الذين غرروا بالمسلمين، ووقفوا إلى جانب الأعداء فى أشد اللحظات

حرجا على المسلمين، ولم يكن هدفهم إلا القضاء على الإسلام ونبى الإسلام.. فما عاد المسلمون يأمنون جانبهم ..وأمر النبى من ينادى فى المسلمين:

- «من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة».

وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب.. وأخذ المسلمون يتدفقون نحو حصون اليهود ..وقد أطل عليهم حيى بن أخطب وبعض اليهود، وأخذوا يتقولون على نبى الإسلام، ويطعنون فيه.. وجاء النبى ﷺ.. وطلب منه «علىّ» ألا يقترب من حصون اليهود.. وكان «علىّ» يخشى أن يؤذوا النبى بكلماتهم البذيئة، ولكن الرسول الكريم تقدم إليهم ..تقدم إليهم مهيبا.. جليلا.. ونادى عليهم قائلا:

- «يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته»..

قالوا:

- يا أبا القاسم ما كنت فينا جهولا !

لقد حاصرهم المسلمون خمسة وعشرين ليلة، ذاق فيها اليهود ذل الحصار ووجدوا أنه من الصعب مهاجمة المسلمين، ومن الأصعب أن يظلوا فى الحصار إلى الأبد.. وأنهم سيقعون فى قبضة المسلمين إن عاجلا أو آجلا .. فقرروا مفاوضة النبى .. عرضوا عليه الجلاء بأموالهم وترك السلاح، فرفض النبى، وعرضوا عليه الجلاء بأموالهم وترك السلاح، فرفض النبى أيضا، وطلبوا منه أن يرسل أبا لبابه إليهم.. وهو من الأوس الذين كانوا حلفاء لبنى قريظة.. وذهب إليهم أبو لبابة.. واستقبلوه بالبكاء والنحيب وفى لحظة ضعف أخبرهم أن مصيرهم هو القتل.. فخافوا على أنفسهم .. وفكروا كيف يخرجون من المأزق الذى وضعوا أنفسهم فيه..

حتى أن زعيمهم كعب بن أسد طلب منهم الدخول فى الإسلام حتى ينجوا من القتل فرفضوا، واقترح أحدهم أن يقتل اليهود نساءهم وأولادهم حتى لا يخشوا على أحد منهم عند هزيمتهم ويقاتلوا المسلمين حتى الموت! ورفض هذا الاقتراح. .

وأمر النبى أن يحكم فى اليهود واحد من حلفائهم. . وقد اختار اليهود سعد بن معاذ. . وسعد بن معاذ هذا هو الذى ذهب إليهم يطلب منهم أثناء الحصار العودة إلى ما تعاهدوا عليه مع النبى، وعدم نقض اتفاقهم معه، ولكنهم أصروا على عنادهم، ورغبتهم فى القضاء على النبى والمسلمين. . وها هى الأيام تدور، ويصبح هو حكما فى موقفهم المخزى الذى وقفوه من الإسلام ونبى الإسلام. .

وكان حكم سعد أن يقتل الرجال وتسبى النساء والذرية. .

وكان تعقيب النبى على هذا الحكم قوله:

- لقد حكمت فيهم بأمر الله يا سعد. .

وتم تنفيذ الحكم فى يهود بنى قريظة فقتل نحو سبعمائة رجل، وقد نجا من القتل أربعة منهم لإعلانهم الإسلام. وقد أخذ الرسول خمس الغنائم، ووزع الباقى على المسلمين.

وكان سعد قد انتقل ليحكم فى هذه القضية من خيمة كانت مقامة لعلاج جرحى الحرب، وكان قد جرح بعد أن أصابه سهم من سهام العدو أثناء حصار المدينة بالأحزاب، وقد مات سعد بن معاذ بعد ذلك متأثرا بجراحه. . وهو أحد المبشرين بالجنة. . وكان قريبا إلى قلب النبى ﷺ . . وقد قال عنه عندما انتقل إلى رحاب الله:

- «لقد اهتز العرش لموت سعد بن معاذ». .

وقد روت عائشة رضى الله عنها، أنها سألت أمه، عن الصفات التى جعلت من سعد حبيبا لرسول الله. . فقالت إن سعداً أخبرها:

- «ثلاث خصال أنا منهن كما ينبغى، وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس». .

سألته أمه: وما تلك الخصال؟

قال سعد: ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثا قط إلا علمت إنه حق من الله. .ولا كنت فى صلاة قط فشغلت نفسى بغيرها حتى أقضيها. .ولا كنت فى جنازة قط فحدثت نفسى بأمر من أمور الدنيا حتى أنصرف عنها». .

وبالقضاء على فلول اليهود. . استقبلت الحياة فى المدينة عهدا أكثر أمنا واستقرارا، وضعفت شوكة المنافقين وارتفعت راية الإيمان. .

أما صاحب فكرة حفر الخندق حول المدينة، وهو سلمان الفارسى، فقد كان النبى يحبه حبا جما، حتى قال عنه:

- «سلمان منا أهل البيت». .

وكان سلمان فارسياً، ترك بلاده فارس بحثاً عن الحقيقة، واعتنق المسيحية، وصحب راهبا فى عمورية فى الشام، وعند وفاة هذا الراهب، أخبره أن زمان نبى آخر الزمان قد اقترب. . وأنه سيكون فى بلاد الحجاز فقرر الرحيل إلى مكة. .

ولكنه هوجم وهو فى الطريق وأخذ أسيرا. . ثم بيع كرقيق وكان يتذكر ما حكاه له راهب عمورية فى بلاد الروم بأن نبى آخر الزمان سوف يهاجر إلى أرض ذات نخيل بين حرتين. . وقد نصحه الراهب أن يذهب إليها. .

وقال له راهب عمورية يصف له هذا النبى الكريم الذى سيكون نبى آخر الزمان. . أن له آيات لا تخفى فهو لا يأكل الصدقة ويقبل الهدية. .وأن بين كتفيه خاتم النبوة. .

. . لقد بيع سلمان إلى رجل يهودى. . وكانت البلدة التى حطوا إليها الرحال ذات نخل كثيف. . فتمنى سلمان أن تكون هذه الأرض هى التى سيهاجر إليها النبى المنتظر.

إلى أن جاء ذات يوم يهودى من بنى قريظة اشتراه وذهب به إلى يثرب. . وقد سعد سلمان أن رأى نفسه فى المدينة فقد كان يشعر فى أعماق نفسه أن هذه المدينة هى التى ستكون دار هجرة النبى. .

ودار الزمن. . وإذا به يسمع أن النبى القادم من مكة قد نزل فى المدينة. . فهرول إلى النبى. . وأعلن إسلامه وحال الرق بينه وبين الاشتراك فى معركتى بدر وأحد. . إلى أن طلب منه النبى ﷺ أن يكاتب سيده حتى يعتقه. . وعاونه الصحابة للتخلص من الرق، حتى فك رقه. . وأصبح واحدا من المقربين إلى النبى عليه الصلاة والسلام. .

وسلمان لا ينسى هذا الموقف أبدا. .

يوم أشار على النبى ﷺ بحفر الخندق. . وقد اعترضته صخرة ضخمة لم يستطع أن يحطمها. . فتقدم النبى عليه الصلاة والسلام إلى هذه الصخرة ومعه المعول. . فضرب الصخرة ضربة قوية خرج منها وهج وتناثرت بعض أجزائها. . وقال النبى عليه الصلاة والسلام:

- «الله أكبر. . أعطيت مفاتيح فارس. . ولقد أضاء لى الله منها قصور الحيرة، ومدائن كسرى. . وأن أمتى ظاهرة عليها».

وضرب بالمعول الصخرة الضربة الثانية. . فخرج منها وهج وهلل الرسول الكريم مكبرا وقال:

- «الله أكبر أعطيت مفاتيح الروم، ولقد أضاء لى منها قصورها الحمراء، وأن أمتى ظاهرة عليها».

ثم ضرب الصخرة الثالثة فتحطمت، وخرج منها وهج شديد وقال الرسول لهم إنه يبصر مدائن الأرض التى ستفتح للمسلمين. .

وقد سمع كل هذا سلمان الذى كان على مقربة من رسول ﷺ، وعاش حتى رأى كل ما تحدث به الرسول الكريم حقيقة واقعة. . بعد أن

اجتاحت جيوش الإسلام أراضى الفرس والروم، ورفعت راية الإسلام على بقاع ما كان يظن أحد أن تنطوى تحت راية الإسلام.. وقد تنبأ لهم الرسول بذلك.. والمدينة تحت حصار مر رهيب.. وتحطم الحصار ..ورجع كفار مكة يجرون أذيال الخيبة والمرارة والهزيمة..

عاش سلمان حتى أصبح أميرا على المدائن نفسها.. ولكنه كان زاهدا فى السلطة ومتاع الحياة الدنيا، وعاش يأكل من عمل يده وكان يقول:

- «إن استطعت أن تأكل التراب ولا تكونن أميرا على اثنين فافعل».

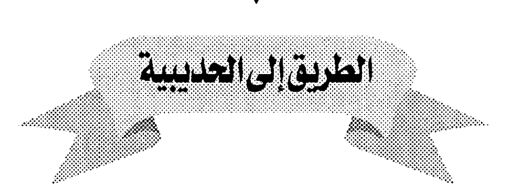
هذا هو الإنسان العظيم.. تلميذ مدرسة النبى ﷺ الذى قال عنه النبى الكريم:

- «سلمان منا آل البيت».

فلم يكن غريبا أن يحتفى به أصحاب الرسول، حتى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خرج لاستقباله عندما جاء يوما لزيارة المدينة أثناء خلافته..

* * *

- ٧ -



تحققت انتصارات هائلة للمسلمين يوم انسحب الأحزاب، ودحر اليهود وتطهرت المدينة من مكائدهم ومكرهم وجدالهم.. ومحاولاتهم المتكررة للنيل من الإسلام ونبى الإسلام..

.. وأصبحت المدينة فى موضع القوة..يعيش فيها رجال آمنوا بربهم .. فرسان بالنهار.. عابدون بالليل.. فى جو معطر بجلال الإيمان.. يسعى بينهم ويقود خطاهم محمد بن عبد الله أعظم من عرفته الحياة فى نبله .. وزهده.. وخشيته لله.. وعبادته له.. وطهارته.. ورأفته وحبه للمؤمنين.. ووحى السماء يهبط عليه.. يملى عليه قواعد الدين وأركانه.

لقد استقر المؤمنون فى المدينة.. وشعروا بالأمن.. وفى ظل هذه الظروف، نزلت آيات القرآن الكريم، ترشد إلى ما ينبغى أن تكون عليه زوجات الرسول، لأنهن القدوة والمثل لباقى المسلمات.. ففرض عليهن الحجاب.. لأن المرأة حتى ذلك الوقت..كانت فى لباسها كما كانت أيام الجاهلية.. تلبس من الملابس ما يظهر مفاتن صدرها.. كانت تستوى فى ذلك الحرة والأمة.. وكانت نفس عمر بن الخطاب تتوق إلى أن يفرض الحجاب على النساء..! إلى أن جاء وحى الله:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وإذا كان هذا الخطاب موجها لنساء النبى، حتى لا يطمع فيهن الذى فى قلبه مرض، أو بعض الجفاة من الأعراب الذين لم تهذبهم روح الإسلام بعد. . فقد نزل القرآن يعلم الناس آداب السلوك مع آل البيت.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثم يوضح القرآن الكريم ما ينبغى أن تكون عليه نساء النبى فى ثيابهن. . وكذلك بالطبع نساء المسلمين. .

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وإذا كان لزوجات الرسول منزلة خاصة. . لأنهن أمهات المسلمين وقدوة للمسلمات. . فإن لهن جلالهن. . فقد حرم الله زواجهن بعد النبى لأحد. .

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وإذا كان القرآن الكريم قد بيّن ما ينبغى أن تكون عليه نساء النبى، فقد وضع أيضا ما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة. . أن تكون طاهرة. . تبدو فى منظر محترم. . فعليها ألا يبدو منها إلا الوجه والكفين. .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وكان من عادة النساء فى الجاهلية، أن يضربن بأرجلهن، وكن يلبسن (الخلاخيل). . فيلفتن الأنظار إليهن. . فنهى الإسلام عن ذلك. . وقال تعالى:

﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كان التشريع الإسلامى يوضح للناس ما ينبغى أن يكون عليه سلوكهم.. وفى نفس الوقت كان الرسول الكريم يواصل تدعيم الدعوة.. فهو يؤمن المدينة من الذين يحاولون انتهاك حرمتها من الأعراب الذين يحيطون المدينة.. وفى نفس الوقت يتأهب لتأخذ الدعوة طريقها إلى القلوب والعقول..

وهنا نتوقف أمام موقف عظيم من مواقف الرسول الكريم.. يوم خرج المسلمون وقد علموا أن هناك قافلة لقريش قادمة من الشام فتعرضوا لها، وأخذوا ما فيها من غنائم.. وكان فى هذه القافلة (أبو العاص بن الربيع) الذى كان زوجا لزينب بنت الرسول.. وقد فرق بينهما أنها اتبعت الإسلام، وظل هو على دينه.. وقد خشى الرجل أن تظن مكة أنه خانها، وأنه حن لزوجته بنت الرسول فتهاون فى حقوق أهل مكة.. فذهب إلى المدينة، واستجار بزوجته السابقة، وخير الرسول الكريم أصحابه الفئ.. فوافقوا عن طيب خاطر أن يتنازلوا عن هذا الفئ إكراما لبنت رسول الله، ورجع الرجل بأموال أهل مكة إليها.. ثم أعلن إسلامه ورجع إلى المدينة إلى زوجته بعد أن وحد بينهما من جديد الإسلام غير انها لم تلبث بعد ذلك إلا قليلا ورحلت إلى أكرم جوار، تاركه طفلة.. كانت قرة عين لجدها العظيم وكان اسمها (أمامة)..

وكان على النبى ﷺ أن يؤمن الدعوة، ويظهر قوة المسلمين وهيبتهم.. وأن دين الله جاء للعالم كله ولم يأت للمدينة أو مكة وحدها.. وكان عليه أن يوسع رقعة النفوذ الإسلامى.. وأن يزيل العراقيل التى تحول دون تقدم المسلمين.. والتى تحول دون أن يعيشوا فى أمن وأمان.. فهناك عند دومة الجندل قرى محصنة تهدد تجارة المسلمين إلى الشام.. فأرسل الرسول سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف إليها.. وكان فى هذه السرية

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومئات من صحابة الرسول.. وأمر النبى بلالا أن يعطى عبد الرحمن اللواء.. وقال له بعد أن حمد الله وصلى على نفسه:

-« خذ يا ابن عوف فاغز فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا بمن قتلتم، ولا تقتلوا وليدا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم»..

وعرف ابن عوف وجهته.. وأنها دومة الجندل.. فطلب من الرسول أن يسمح له بالزواج من ابنة سيدهم (الأصبغ) فى حالة الانتصار عليهم.. ووافق الرسول.. وتقدم عبد الرحمن بجيشه متجها إلى دومة الجندل.. وهو يحث الخطى خمسة عشر ليلة حتى وصل إلى هذه القرى المحصنة وحاصرها ثلاثة أيام.. بعد أن عرض عليهم الإسلام، آثر القوم السلام والإسلام وبايع (الأصبغ) عبد الرحمن.. وتقدم له عبد الرحمن يطلب يد ابنته (تماضر).. ووافق الرجل.. ودخل أهل هذه القرى فى الإسلام..

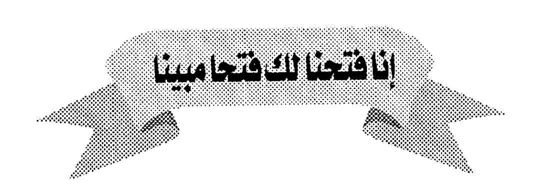
وكانت هناك أيضا قبيلة (بنى بكر بن كلاب) تقطع الطريق فأرسل إليهم النبى (محمد بن سلمة).. واستطاع مفاجأتهم وغنم الكثير من ماشيتهم.. وفى طريق العودة أسروا (تمامة بن آثال).. وهو من بنى حنيفة.. وكان راجح العقل وصاحب كلمة مسموعة فى قومه.. أسره المسلمون وهم لا يعرفونه، وعادوا به إلى المدينة فعرفه النبى ﷺ وأكرمه وأحسن إليه، وعرض عليه الإسلام فأبى، فتركه النبى إلى حال سبيله.. فلا إكراه فى الدين.. وعاد الرجل إلى قومه وهو مازال يتذكر كرم الرسول معه، فرجع إلى المدينة وأعلن إسلامه.. وذهب إلى مكة معتمرا.. وحاول أهل مكة إيذاءه ولكنهم تذكروا إنهم محتاجون إلى عشيرته التى تمدهم بالحبوب فآثروا الصمت على مضض.. وهم يرونه يطوف البيت دون أن يخفى إسلامه.. ومع ذلك فقد عاد الرجل إلى اليمامة ومنع الحبوب عن أهل مكة.. هؤلاء

الذين يناصبون نبيه العداء . .ويضمرون له البغضاء. .لا لشئ إلا حسدا وحقدا على النبى الخاتم. . إنهم لا يستحقون أن تمد لهم يدا بخير. . ولكن قريشا وقد خشيت مغبة هذا الحرمان من قمح اليمامة. . أرسلت للنبى ﷺ فى أن يتوسط لها لدى (ثمامة) حتى يعيد إليهم ما كان يبعثه أهل اليمامة إليهم من حبوب. . !

ولم تخجل قريش من ذلك. . فهم يعرفون معدن النبى الكريم. . معدن هذا الإنسان الذى طوى قلبه على الرحمة والبر بأهله. . هؤلاء الذين حاربوه. . ونكلوا بأصحابه. . وحاصروه وأهله فى إحدى شعاب مكة ثلاث سنوات. . ومع ذلك شفع لهم النبى !

* * *





مضت على هجرة رسول الله ستة أعوام فى المدينة.. تلك المدينة التى شاهدت أحداثا كثيرة.. وكانت بمثابة نقطة هائلة لانطلاق مبادئ الإسلام..

وشاهدت المدينة الجهاد الهائل الذى خاضه المؤمنون فى سبيل عقيدتهم.. ولكن قلوبهم كانت تهفو إلى بيت الله الحرام.. قبلة المسلمين ..والذى وضع القواعد منه خليل الرحمن إبراهيم.. ولكن مكة بصلفها وطغيانها منعتهم دون سائر الناس بالدخول إلى هذا الحرم الآمين..

وفرض الركن الخامس من الإسلام فى العام السادس الهجرى.. فهفت النفوس أكثر إلى البيت العتيق.. وإلى تأدية الحج والعمرة..

وذات صباح سمع الناس من النبى أنه رأى رؤيا.. وهذه الرؤيا نزلت بردا وسلاما على قلوب المؤمنين.. لقد رأى أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين.. لقد عمتهم الفرحة ..وجاشت بهم الذكريات.. فهناك فى أم القرى تذكر المهاجرون أهلهم وديارهم وذكريات عزيزة إلى نفوسهم وهفت قلوب الأنصار إلى الطواف حول البيت العتيق.

وقرر النبى ﷺ التأهب للذهاب إلى البلد الحرام فى الشهر الحرام.. أذن فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة..ودعا القبائل المجاورة أن تذهب مع المسلمين إلى الحج.. وكان بذلك يوضح للقبائل كلها ولقريش أنه ما جاء إليها محاربا.. ولكنه جاء يؤدى فريضة الحج..

أما القبائل المجاورة فقد درست الفكرة ولم تتحمس لها فقد كانت توقن أنه لابد أن يحدث صدام مسلح بين النبى وبين أهل مكة. . فأهل مكة لن يتركوا المسلمين يدخلون عليهم بلدتهم، ويرونهم مهللين مكبرين، دون أن يثير ذلك فى أعماقهم الحقد والحسد، والعداوات المتأصلة فى القلوب. . ولن تنسى مكة الدماء التى أُريقت فى حروبها مع النبى. . كما انها إذا سمحت للمسلمين بالطواف حول الكعبة فقد يؤدى ذلك إلى انضمام المستضعفين من المسلمين فى مكة إلى المسلمين، وأن تقوى بذلك شوكتهم . .وقد يساعد ذلك على أن يظهر من بين صفوف مكة من يخفى إسلامه . .ويتحمسون للنبى. . وقد يؤدى كل ذلك إلى حرب أهلية لا يعرف نهايتها أحد !. .

فالخطوة إذن صعبة !

ومكة لن تسمح بهذا الحج. .

ولكن النبى خرج مع أصحابه فى موكب رائع وجليل وهو يركب ناقته (القصواء). . وكان عدد من خرج معه ألف وأربعمائة. . وكان سلاحهم سلاح السيوف فقط، حتى تعرف مكة أنهم جاءوا لتعظيم البيت الحرام. . وليس فى نيتهم خوض الحرب. . وساقوا معهم من الهدى سبعين بدنة. . ووضعوا لها القلائد. . ومعهم عشرين فارسا. . وهذا المشهد يعنى انهم لا يبغون شيئا سوى الحج الذى أصبح الركن الخامس من أركان الإسلام . . فقد نزل قوله تعالى:

﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [**آل عمران** : ٩٧].

وعلمت قريش بما عزم عليه المسلمون. . وانهم تحركوا بالفعل صوب البلد الحرام. . أحب بلاد الله إلى الله وأخذ قادتها يدرسون الموقف، وقرروا عدم السماح للنبى بالدخول إلى مكة مهما كان الثمن. . !

هل يمكن أن يدخلها محمد عنوة !

لقد جاء النبى يؤدى فريضة الحج، ولم يدر بخلده أن يريق دما . . أو ينتهك حرمة الشهر الحرام . .

ومضى النبى فى طريقه . . وعلم من أحد القادمين من مكة أن قريشاً قد استعدت للحرب، وأنها قررت أن تمنعه من دخول مكة، وقد خرج رجال منهم وعلى رأسهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل لمنع المسلمين من دخول مكة . .

وقال الرسول الكريم وقد سمع ما سمع من عزيمة قومه على التصدى له هذه الكلمات المعبرة البليغة:

-« يا ويح قريش . . لقد أكلتهم الحرب . . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش . . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة» . .

ومضى الركب العظيم . . وشاهدوا على البعد فرسان مكة، بقيادة خالد بن الوليد فطلب النبى أن يسلك بهم أحدهم طريقا آخر حتى لا يواجه مكة وفى نفس الوقت يعلم العرب جميعا أنه ما جاء إلا قاصدا البيت الحرام، لا قاصدا الحرب . . وقادهم أحد الرجال عبر طرق وعرة متشعبة حتى وصل بالمسلمين إلى الحديبية . . (حيث بركت القصواء) . . وهى نفس الناقة التى ركبها النبى عندما هاجر إلى المدينة . . وعندما كان الناس يمسكون زمامها حتى يشرفوا بضيافة الرسول، كان النبى يقول لهم:

-« اتركوا زمامها فإنها مأمورة . . » . .

نزل المسلمون عند الحديبية، وهى على مسيرة يوم من مكة فبينها وبين مكة حوالى (٣٠ كيلو متراً) . .

.. لقد بركت القصواء عند هذه البقعة.. وتناهى إلى سمع النبى من يقول:

- « خلأت القصواء .. بمعنى أنها حرنت ورفضت المسير»..

فقال النبى عليه الصلاة والسلام:

- ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.. والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها..

وقد عاد خالد بفرسانه إلى مكة خشية أن يكون فى نية المسلمين مهاجمة أم القرى، ثم عاد بفرسانه إلى الحديبية عندما علم أنهم وصلوا إليها، وعندما حاول بعضهم التسلل إلى معسكر المسلمين..أسر، غير أن النبى عفا عنهم.. وهنا بدا واضحا تماما لمكة أن محمدا ما جاء محاربا، ولكنه جاء معظما لبيت الله الحرام. ولكنهم مع ذلك أصروا على منعه من دخول البلد الحرام، بحجة أن ذلك سيقلل من هيبتهم أمام العرب.. وفى نفس الوقت خشيت مكة أن يشاع بين العرب أنها منعت قوما يريدون تعظيم البيت الحرام.. والبيت الحرام كان يزوره الناس على اختلاف اعتقاداتهم .. فما بال قريش تريد أن تمنع محمدا وصحبه من الطواف حول الكعبة..ومن هنا فكرت قريش فى طريقة تحفظ عليها ماء وجهها.. وتبدو أمام العرب أنها ما منعت محمدا إلا أنه جاء ليدخل مكة عنوة.. وبينما مكة تأخذها العزة بالإثم فكرت كثيرا أمام تصميم المسلمين على العمرة، ووجدت مكة أنه لا مفر أمامها من مفاوضة محمد بن عبد الله، فأوفدت إليه بديل بن ورقاء شيخ خزاعة للمفاوضة.. وسمع من النبى أنه ما جاء محاربا وإنما جاء لزيارة بيت الله الحرام.. ورجع الرجل إلى قريش يقنعهم أن محمدا ما جاء إلا معظما للبيت الحرام.. ولكن قريشا أسمعوه كلاما غليظا..

وأرسلت قريش سفيرا آخر إلى النبى عليه الصلاة والسلام وهو عروة بن مسعود الثقفى.. وأخذ يفاوض النبى .. ثم اقترب من النبى وأخذ يمد يده اليمنى إلى لحية الرسول الكريم.. كأنه صديق له.. وبينما هو يفعل ذلك إذ (بالمغيرة بن شعبة) يضرب يده بكعب سيفه ليبتعد عن لحية رسول الله.. فهو ليس له ندا ولا صديقا.. وكان عروة خاله.. وكان المغيرة يغطى وجهه بالمغفر. وسأل عروة النبى عن هذا الرجل الذى يضرب يده بكعب سيفه كلما اقترب من الرسول، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام انه ابن أخيك المغيرة!

وتعجب عروة.. كيف يصنع به هكذا ابن أخيه، الذى وقف بجانبه فى مواقف كثيرة، بل ودفع عنه بعض الديات وقال له:

- أتصنع هذا بعمك يا غدر !!

وعاد عروة إلى مكة وهو منبهر بما رأى من تماسك المسلمين وحبهم لرسول الله، وتفانيهم فى طاعته.. حتى أن أقرب الناس إليه.. ابن أخيه المغيرة حال دون أن تمتد يده إلى لحية رسول الله.. بينما هو كان يقصد من وراء ذلك إلغاء المسافة بينه وبين الرسول.. كان يحاول أن يظهر صداقته وأنه يفاوضه وهو يحمل له ودا.. ولكن أين هو من محمد فى نظر أتباعه..

رجع عروة إلى قومه وقد انبهر بما رأى فقال لهم:

-« انى والله جئت كسرى فى ملكه.. وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه.. والله ما يمدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت.. وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ فيفعل ما يريد، وقد حزرت القوم فرأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم، فروا رأيكم، وقد عرض عليكم فأنى ناصح لكم! مع أنى خائف ألا تنصروا عليه أن أردتم له حربا»..

ولم يعجب قريش ما سمعت من عروة، فهو يخوفهم من النبى، ويبدو من كلامه ما يثير فيهم الخوف من المسلمين، فأرسلوا سيد الأحابيش (الحليس) لمفاوضة النبى.. وكان الأحابيش حلفاء لقريش.. وكان الرجل وقومه يعظمون (الهدى).. وعندما علم النبى بسفارة هذا الرجل أمر أصحابه أن يطلقوا الهدى حتى يراها سيد الأحابيش، ويعلم أن المسلمين ما جاءوا مقاتلين، ولكن جاءوا مسالمين، يريدون بيت الله.. رأى الحليس هذا، فرأى القضية واضحة لا تحتاج إلى مفاوضات.. وأن محمدا على حق، فرجع إلى قريش، وقال لأهل مكة انهم ما حالفوا مكة لتمنع الناس من زيارة بيت الله الحرام !

وخشيت قريش أن يذهب عنها حلفاؤها، فآثرت أن تفاوض النبى على ألا يكون هذا العام هو عام الزيارة، فلتؤجل للعام القادم، حتى تظهر أمام العرب أنها لم تمنع أحدا من زيارة بيت الله الحرام، وفى نفس الوقت لم ترضخ لقوة المسلمين وبينها وبين نفسها تمنت أن يبدأ النبى بالمفاوضة حتى لا تظهر هى بمظهر الضعف، أو مظهر الذى يريد السلام مع المسلمين !

وأرسل النبى عثمان بن عفان إلى مكة، فعثمان من بنى أمية، وبنى أمية من أقوى عشائر مكة، وقد دخل عثمان فى جوار (أبان بن سعيد بن العاص).. وعثمان بن عفان من أوائل الذين آمنوا.. ومن أوائل المهاجرين إلى الحبشة وقد تزوج من رقية ابنة النبى، وعندما انتقلت إلى جوار الله تزوج أختها أم كلثوم.. وسرت إشاعة أن عثمان بن عفان قتل !

وسمع النبى والمسلمون هذه الإشاعة.. إن الأمر خطير للغاية.. كيف يقتل عثمان، والرسل لا يقتلون، فقد جرى العرف بذلك، ومن الذى قتل؟ إنه عثمان بن عثمان كيف يقتل، ولم تحمه العصبية القبلية؟.. إن الأمر يبدو خطيرا، لو صح هذا فإن قريشا قد اختارت طريق الحرب.. وهنا جلس النبى تحت شجرة فى الحديبية، وقال لأصحابه:

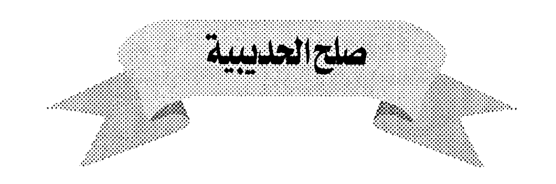
- لا نبرح مكاننا حتى نناجز القوم !

وأسرع المسلمون إلى النبى يبايعونه على القتال.

وبايع الرسول عن عثمان..

وهنا كان هذا المشهد رائعا وجليلا.. فقد صمم المسلمون على الاستشهاد.. ومجابهة قريش بما تملك من مال وعتاد ورجال وسلاح، وهم لا يملكون سوى السيوف فى القرب !!

* * *



استعد المسلمون لخوض معركة غير متكافئة مع مكة رغم أنهم لا يملكون من السلاح إلا السيوف، وإذا بسهيل بن عمرو يركب بعيره متجها صوب المسلمين. . وكان سهيل ذكيا واسع الحيلة والدهاء، وقد جاء يفاوض النبى، وينهى هذا الوضع المتفجر القابل للاشتعال بين مكة والمسلمين، وطلب أن يعود النبى وأصحابه إلى المدينة، ويؤجلوا دخول مكة للعام القادم، على أن تخلو لهم مكة لأيام ثلاثة يؤدون العمرة، وأن تعقد هدنة بين مكة والنبى، ويكون للناس حرية الدخول فى حلف النبى أو مع مكة، على شرط أن يرجع المسلمون من يدخل الإسلام من أهل مكة ويهاجر إلى المدنية مادام دخل الإسلام دون أذن وليه. . وأن من يرجع إلى مكة من المسلمين لا ترده مكة إليهم !

وقبل النبى هذه الشروط، بينما ملأ الغضب قلوب المسلمين. . كيف يردون من يسلم إلى أهل مكة؟.

وكيف لا ترد قريش مسلما عاد إلى مكة؟. .

وكيف يعودون إلى المدينة وهم على مسيرة يوم واحد من مكة ولا يدخلون بيت الله الحرام. .

وكيف تنص المعاهدة على أن المسلمين عندما يأتون للعمرة فى العام القادم لا يأتون إلا بالسيوف فقط. .

ثم يبلغ الضيق بالمسلمين مبلغا عظيما، وهم يتذكرون مشهد النبى عليه الصلاة والسلام، وكان قد استدعى على بن أبى طالب ليكتب اتفاق الصلح. . وأمر عليا أن يكتب: « بسم الله الرحمن الرحيم». .

ويرفض سهيل ذلك، ويطلب أن يكتب كما تعود العرب باسمك اللهم. ويوافق الرسول !

وأمر النبى عليا أن يكتب:

-« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» . .

ويرفض سهيل ذلك ويطلب من على أن يشطب رسول الله تلك ويقول للنبى:

- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك !!

ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . .

ووافق النبى . .

وكانت الصيغة التى كتبها على بن أبى طالب:

-« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر . . ».

قبل النبى هذه الشروط الذى ظنها المسلمون مجحفة بهم، وبكرامتهم . . وبلغ الغضب الذروة عندما تصادف أن أقبل واحد من مكة يعلن إسلامه وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو . . وكان يجرر قيوده التى قيدها به أبوه، وهو يطلب من المسلمين حمايته . . وكان والده حاضرا فى مجلس الرسول فأخذ يضرب ابنه وهو يطلب من النبى أن يعيده إلى مكة على حسب الاتفاقية !

وقد بلغ من غضب المسلمين أن اقترب عمر بن الخطاب من أبى جندل وهو يظهر له سيفه، حتى ينتزعه من عمر ويضرب به والده . . ولكن أبا جندل لم يفعل ذلك . . وأمر النبى أن يعود أبو جندل إلى مكة . .

بلغ الغضب الذروة فى صفوف المسلمين . . فقد وجدوا فى هذا المشهد إهانة . . مسلم يستنجد بهم . . ولا يستطيعون حمايته، بل تبلغ وقاحة أبيه أن يضربه أمامهم وهو يطالب النبى بتنفيذ الاتفاقية !

وقال النبى لأبى جندل:

-« يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا» . .

كم كان النبى عظيما . . وقد ضبط أعصابه، فلم يغلب على سلوكه هوى من غيظ أو غضب أو غيره، وإنما كان ينفذ ببصيرته الملهمة أمر الله . . وأمر الله غالب رضى الناس أم سخطوا، فالناس لا يعرفون تصاريف الأقدار . . والله غالب على أمره . . فما كان المسلمون يرونه ضعفا وهوانا واستسلاما، كان فتحا مبينا . .

ولكن الأفهام عجزت عن الفهم فى هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ الإسلامى، حتى أن عمر بن الخطاب نفسه، قد ذهب إلى الصديق، وهو ضائق متبرم من هذه الاتفاقية . .

- أليس محمد برسول الله ؟

- بلى

- أولسنا على الحق !

- بلى

- أليسوا بالمشركين ؟

- بلى

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

- الزم غرزك (رحلك) فانى أشهد أنه رسول الله . .

- وأنا أشهد أنه رسول الله.

ويذهب عمر إلى النبى عليه الصلاة والسلام، والغضب يعتصر نفسه.

- يا رسول الله ألست برسول الله ؟

- بلى

- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

- بلى

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا.

- أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى..

ومع كل هذا فإن ابن الخطاب لم يهدأ.. يعتصره القلق والألم ويذهب إلى الصديق.. صاحب الرسول العظيم.. الذى لو وزن إيمانه بإيمان نصف الأمة لرجح.. والذى سمى صديقا لإيمانه العميق بدعوة صاحبه.. وهو الذى ذهب إليه أهل مكة بعد أن أعلن الرسول إسراءه.. لعلهم يرون فى هذا القول ما يرد أبا بكر عن الإسلام. فإذا بهذا المؤمن العظيم يقول لهم:

- أى بأس؟ انى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.. أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة وروحة.. إن كان قال فقد صدق..

هذا الصديق العظيم يأتى إليه عمر..

-« يا أبا بكر ألم يذكر لنا رسول الله أننا داخلون مكة، طائفين بالبيت محلقين ومقصرين!».

ورد عليه الصديق:

-« ثكلتك أمك يا ابن الخطاب.. أذكر لنا أننا ندخله هذا العام ؟ انه رسول الله فاستمسك بغرزه حتى تموت»..

وطلب النبى من أصحابه أن يتحرروا.. ويحلقوا ويحلوا.. ولكن المسلمين كان الغضب قد أعمى عيونهم فلم يسمعوا كلام الرسول ..ودخل النبى خيمته حزينا، وكانت معه زوجته أم سلمة، التى سألت النبى عما أحزنه.. وعلمت منه كيف أن المسلمين لم ينفذوا ما أمرهم به !!

وأشارت على النبى أن يخرج ولا يكلم أحدا، وينحر فديته، ويحلق رأسه.. وهم سوف يفعلون ما يفعل..

وخرج النبى وفعل ذلك ..صلى ونحر هديه.. وحلق رأسه للعمرة.. و.. بدأ المسلمون يفعلون ما فعله الرسول.. بعضهم حلق.. وبعضهم قصر شعره..

وقال رسول الله ﷺ:

-« يرحم الله المحلقين »..

قالوا:

- يا رسول الله والمقصرين.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- والمقصرين.

سألوا النبى: فلم ظاهرت يا رسول الله المحلقين دون المقصرين ؟

قال الرسول الكريم: لأنهم لم يشكوا فى الله ورسوله .

عشرون يوما قضاها الرسول وأصحابه فى الحديبية، ثم ركب النبى العظيم ناقته (القصواء) متجها بها صوب المدينة.. والمسلمون خلفه.. وفى الطريق نزل وحى السماء:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١ إلى آخر السورة].

وتقدم عمر إلى الرسول قائلا:

- أوفتح يا رسول الله ؟

- نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح.

وتناهى إلى سمع النبى قول أحدهم:

- ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وعن هدينا.

فقال عليه الصلاة والسلام:

-« بئس الكلام.. بل هو أعظم الفتح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم فى الأمان. وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظهركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح..»..

وأخذ النبى ﷺ يذكرهم بالمواقف التى مر بها المسلمون .. وكيف نجاهم الله منها.. قال لهم:

-« أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟..

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »..

وتذكر المسلمون كل هذه الأحداث.. وأيقنوا أن رسول الله ﷺ أبعد نظرا لأنه يرى بنور الله..

وتمضى الأيام.. وتتكشف الأمور.. وما خفى عن المسلمين..

لقد كان صلح الحديبية فتحا ونصرا بكل المقاييس.. فمكة قد اعترفت بأن المسلمين أنداد لها.. بدليل أنها فاوضتهم بعد أن كانت لا ترى حلا لها مع المسلمين سوى السيف، وأن المسلم الذى يظل على دينه فى مكة لم يخسر شيئا فالإيمان فى قلبه يلهمه السكينة والأمان.. والذى يرتد من المسلمين إلى مكة مزعزع العقيدة لا فائدة ترجى منه.. وكانت الهدنة فرصة لانتشار الإسلام فى مختلف القبائل العربية بعد أن آمن المسلمين من هجوم قريش.. وقد شهد المسلمون بعد عامين فقط من هذا الصلح عندما انتهكت مكة الاتفاقية، ففتح المسلمون مكة نفسها بجيش هائل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل.

والأيام تمضى.. ويعرف المسلمون أن هذا الصلح كان بالفعل فتحا.. فهم يرون مثلا أحد المسلمين يفر من مكة إلى المدينة وهو أبو بصير.. يعلن إسلامه للرسول، ويتمنى أن يعيش مع اخوانه المسلمين، ولكن قريش تأبى عليه ذلك، وتطلب من النبى أن يرده إلى مكة حسب الاتفاق، وترسل مكة من يأخذه رجل من بنى عامر ومولى لهم.. ويوافق الرسول أن يعود الرجل إلى مكة حسب الاتفاقية.. والرجل يخاف أن يفتن فى دينه. وفى الطريق إلى مكة يقتل أبو بصير مبعوث مكة، ويفر المولى إلى النبى يخبره بالذى حدث من قتل أبى بصير لمبعوث مكة.. ويأتى الرجل يقول للنبى أنه قد وفى بعهده، أما هو فلن يرضى لنفسه أن يفتن فى دينه، وتوجه إلى مكان على ساحل البحر الأحمر.. وما كاد يعلم قصته المستضعفون من المسلمين فى مكة حتى هرعوا إليه.. وأصبحوا يهددون قوافل مكة التجارية المتجهة إلى الشام.. وهكذا شعرت مكة بأن هذا الشرط الذى اشترطته على النبى أن يرد إليها من أسلم لم يكن فى صالح مكة، ولكن كان فى صالح المسلمين..

والعجيب أن أهل مكة طلبوا من النبى أن يحميهم من الخارجين عليها من المسلمين أو الذين فروا مع أبى بصير وهددوا تجارتها إلى الشام.. وأنهم

لا يتمسكون بهذا الشرط أن يعيد إليهم من أسلم.. وطلبوا أن يقبلهم فى المدينة حتى لا يتصرفوا إلا بأمر ويأمنوا خطرهم.. وهكذا كشف المسلمون بأنفسهم أن الشرط الذى تصوروه امتهانا لكرامتهم كان عبئا على قريش وليس على المسلمين..

وإذا كان النبى فى هذه الاتفاقية، قد وافق على أن يرد من يسلم إلى أهل مكة، فإن هذا الشرط لم يطبقه النبى على المسلمات.. لأن المسلمة محرمة بحكم الإسلام على زوجها المشرك.. وقد حدث أن فرت أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط إلى المدينة بعد الهدنة، وحاول أخوها عمارة ردها إلى مكة إلا أن النبى رفض ذلك.. وأن هذا الشرط ينطبق على الذكور لا على الإناث..فقد نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [**الممتحنة**: ١٠].

وهكذا عرف المسلمون أن هذا الصلح كان فتحا.. وأن نبى الله لا ينطق عن الهوى.. وأنه يرى أعمق وأبعد مما يرون ..وأن شفافية النبى ..واتصاله بالملأ الأعلى قمة لا يصل إليها من البشر سواه..

فالإسلام بعد هذا الصلح قد سلك طريقه نحو الانتشار السريع فى شبه الجزيرة العربية، وأخذ شكله العالمى بأن أخذ النبى يرسل إلى ملوك العالم وقادته يدعوهم للإسلام.. لأن الإسلام لم ينزل إلى العرب وحدهم.. ولكن إلى الناس كافة.. وصدق جل علاه:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [**الفتح**: ٢٨].

عقب صلح الحديبية.. ابتدأ الناس فى المدينة يتأملون ما مر من أحداث.. وموقفهم من الرسول.. واتضح لهم بُعد نظر النبى الخاتم.. فهو لا ينطق عن الهوى.. والناقة عندما بركت عند الحديبية لم يكن ذلك إلا أمرا من الله ..والله وحده الذى يعرف الغيب وما تأتى به الأيام.. وما ظنوه هزيمة وانكسار، كان نصرا وفتحا مبينا..

ولم يكن غريبا أن يكون أقرب الناس إلى صدر النبى هو أبو بكر الصديق.. فإيمانه عميق راسخ كرسوخ الجبال.. لم يتردد لحظة فى تصديق كل ما جاء على لسان نبى الله.. ولا وهنت له عزيمة،..وهناك موقف أورده البخارى..

حدث يوما خلاف بين الصديق أبى بكر وعمر بن الخطاب، وذهب أبو بكر يشكو ذلك إلى النبى وكان النبى يجلس بين أصحابه، ورأى الصديق من بعيد وقد تغير وجهه.. حتى إذا ما جلس قال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى، فأبى على فأقبلت إليك.

فقال النبى ﷺ:

-« يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر »..

ولكن الغضب لم يطل بابن الخطاب فذهب إلى صديقه أبى بكر فى منزله ولم يجده، فعلم أنه عند الرسول، فتوجه حيث النبى ﷺ..وتغير وجه النبى عندما رأى عمر، وخشى الصديق على صاحبه، فقال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله والله أنا كنت أظلم. والله أنا كنت أظلم..

وهنا يبدو جلال الصداقة بين أبى بكر وعمر، فأبو بكر يقول للنبى أنه كان هو المخطئ فى حق عمر. .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام:

- أن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق. .

وآسانى بنفسه وماله. . فهل أنتم تاركون لى صاحبى. . فهل أنتم تاركون لى صاحبى. .

* * *

- ١٠ -

اتساع رقعة الإسلام

لم يمض على صلح الحديبية إلا نصف شهر، أو أكثر قليلا أو شهر فى بعض الروايات، حتى كان النبى يتخذ خطوتين فى غاية الجرأة والشجاعة..

الخطوة الأولى: أنه قرر أن يرسل رسائل للملوك وحكام العالم من حوله بما فيهم كسرى وقيصر يدعوهم إلى الإسلام، واتباع رسالته التى جاءت لتخرج الناس من ظلمات الجهل والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة ..وبما فى هذه الرسالة الخالدة من مبادئ تعيد للإنسانية مسارها السليم.. وتأخذ الخط المستقيم.. فهى رسالة مكتملة العناصر..لا تغفل الروح على حساب المادة، ولا تغفل المادة على حساب الروح.. وهى بهذا التوازن كفيلة بخلق مجتمعات بالغة الرقى والحضارة..عارفة موضع خطاها فى الحياة.. وعارفة أيضا واجباتها تجاه دينها..

والخطوة الثانية: هو قرار النبى إخضاع يهود خيبر تحت الراية الإسلامية، حتى يأمن غدر اليهود الذين يكرهون الإسلام ونبى الإسلام كراهية شديدة، لا تقل عن كراهية أهل مكة للنبى، بل هم أكثر خطرا من مكة.

لقد أمن المسلمون تحرك مكة بعد صلح الحديبية، ولو لبعض الوقت إلا أن اليهود من الممكن أن يتحولوا إلى طابور خامس فيما بعد لو تحرشت القوى الكبرى فى العالم للرسالة، وعلى رأسهم الفرس أو الرومان خاصة بعد أن أرسل النبى رسله إليهم يدعوهم إلى الإسلام.. وهذا أمر بالغ الخطورة.. فإذا كان الفرس أو الرومان قد نظروا إلى مجتمع شبه الجزيرة العربية.. على انه قفر..وصحارى جرداء.. وقبائل متنازعة متنافرة لا خطر منها.. فقد تنبه هذه الرسائل كسرى وقيصر إلى هذه الدولة الفتية الجديدة،

التى أسسها على دعائم الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ.. وأنهم سوف يرون فى هذه الدولة الجديدة خطرا شديدا. وخاصة بعد أن خضعت له العديد من القبائل، وأوشك على توحيد البلاد كلها تحت راية الإسلام..

لقد أغمضت كلتا الدولتين عينيها عن هذه البلاد كما قلنا لأنها ليست بذات وزن، ومع ذلك فقد سقطت اليمن تحت حكم الفرس، أم البلاد المجاورة فكلها تخضع لإحدى هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين.. العراق تحت يد الفرس.. والشام ومصر والشمال الإفريقى تحت يد الرومان..والقوتان الكبيرتان رغم الحروب الكثيرة التى دارت رحاها بينهما، وأضعفت من قواهما إلا أنهما مازالت كل منهما تملك ترسانة عسكرية بالغة العنف والقوة، يسندهما حضارة عريقة.. وإن كان هناك عوامل فى الداخل فى كلا المجتمعين أضعفت قواهما..

ففى فارس صراع بين الوثنيين والمجوس..

وفى الرومان صراع بين المذاهب المسيحية المختلفة..

ومع ذلك.. فلكل دولة جهاز عسكرى مدرب، مزود برجال وعتاد لا يحصيه العد..

من هنا قلنا أن رسائل النبى إلى هؤلاء يدعوهم إلى الاسلام كانت دعوة جريئة للغاية ..

والنبى عندما أرسل هذه الرسائل لم يكن يرسلها لمجرد أن يدعو هؤلاء للإسلام، حتى يثبت أن الإسلام دين عالمى بعث للناس كافة فى مشارق الأرض.. ومغاربها.. ولكنه يعرف بلا شك أن هذه الرسائل وراءها ما وراءها من خطوات محسوبة بلا شك.. فى أنه سوف يجابه القوى الكبرى.

والرسول كما عرفنا من قبل أثناء غزوة الأحزاب.. قد بشر المسلمين بأن الإسلام سيرتفع فوق كل البقاع.. فى الشام.. وبصرى.. واليمن..بشرهم

بذلك وهو محاصر فى المدينة.. والمسلمون يعيشون فيها تحت وطأة حصار رهيب.. فالأمر إذن كان بالغ الخطورة.. وإن كانت خطواته واضحة فى ذهن النبى الخاتم العظيم..

فالمجتمع الإسلامى الجديد قوة صاعدة.. وقوة روحية هائلة تدفع المسلم إلى دفع حياته رخيصة فى سبيل هذا الدين الحنيف حتى ينال إحدى الحسنيين..

وإذا كانت الصلاة التى يقوم بها المسلمون فيها سمو بأرواحهم وفيها نظافة لأبدانهم، وكان الصيام الذى فرض فى السنة الثانية للهجرة فيه سمو بالروح، ويعلم معنى التعاطف والرحمة بين أبناء الدين الواحد.. فقد كان لابد أن تنتهى عادة سخيفة كانت سارية بين العرب.. وهى شرب الخمر .. وكانت هذه العادة منتشرة بشكل لافت للنظر، بل أن بعضهم كان يذهب إلى الصلاة والخمر تتلاعب برأسه، ولا يدرى ما يقوله فى الصلاة !!

حتى أن عمر بن الخطاب دعا ربه أن يبين حقيقة هذه الخمر التى تذهب بالعقل، وتذهب بالمال..

..و..كان لابد أن تحرم الخمر.. وكان تحريمها على مراحل.. وقد اختلف المؤرخون فى سنة تحريم الخمر.. البعض قال إنها حرمت فى السنة الرابعة من الهجرة، والبعض الآخر قال أنها حرمت بعد صلح الحديبية..

وإذا كان عمر بن الخطاب قد رأى بثاقب نظره أن الخمر وهى مضيعة للعقل.. ومضيعة للصحة.. ومضيعة للمال.. وفى نفس الوقت لها من النتائج ما لا يحمد عقباه.. عندما تلعب الخمر بالنفوس.. ويأتى السكارى من الأفعال المشينة ما يحط من قدر النفس الإنسانية.. فما بالك بسكير يترنح وهو بين يدى الله ..فدعا الله أن يبين فى الأمر ما بها !

وجاء التحريم .. وإن كان التحريم.. جاء على خطوات..

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

.. وبعد ما نزلت هذه الآية.. ظل بعض المسلمين يتعاطونها .. ثم نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ولكن هذا الأمر النهائى لم يجعل الناس يقلعون نهائيا عن الخمر، إلى أن نزل الأمر الإلهى بالتحريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

والعجيب أن بعضهم.. وقد نزل التحريم النهائى للخمر، كان لا يروقهم ذلك.. فقد ألفوا الخمر وألفتهم.. وكان من الصعب عليهم التخلص من عادة سرت فيهم مسرى الدم فى العروق حتى أن بعضهم تساءل كيف تكون الخمر رجسا وقد مات بعض شهداء المسلمين فى المعارك الفاصلة كبدر وأحد وكان منهم من يتعاطى الخمر !.

ونزلت الآيات البينات:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

وبهذا التحريم أزيلت عادة من أسخف العادات التى عششت فى عقول الناس فى هذا العصر وما سبقه من عصور جاهلية ..

وها هو النبى العظيم يحول خطته الجريئة إلى واقع.. فأرسل النبى رسائله إلى ملوك العالم المعروف وحكامه برسائله يدعوهم إلى الدين الخاتم، وكان يختم رسائله بخاتمه الذى صنعوه له من الفضة ومكتوب عليه «محمد رسول الله».

والغريب أن هناك بعض المستشرقين حاول أن يشكك فى أن النبى قد أرسل رسائله إلى حكام العالم، ولا أعرف السر وراء هذا التشكيك.. هل لأنهم يريدون أن يقولوا أن الإسلام لم يكن يخطط له النبى أن يخرج خارج إطار شبه الجزيرة العربية وبالتالى فإن خلفاء النبى هم الذين حققوا هذه الانتصارات بدافع من التوسع عندما شعروا بقوتهم العسكرية..

وهذا وهم.. لأن النبى احتك بالروم فى حياته فى معركة مؤتة.. وكانت هذه المعركة بداية للانطلاق الإسلامى الساحق للعالم كله..

وهؤلاء المستشرقون قالوا.. أن هرقل أمر بالقبض على (أبى سفيان بن حرب) عندما كان فى تجارة إلى الشام، وأنه قبض عليه فى دمشق.. عندما أصدر أمره بالقبض على أى عربى من مكة ليعرف عنه أخبار النبى العربى الذى ظهر فى بلاد العرب بدين جديد.. وأن هرقل سأل عن هذا النبى أبا سفيان بن حرب فأخبره - كما تقول رواية لبعض المستشرقين - أنه بالفعل التف حول محمد الضعفاء والمساكين والفقراء، بينما عارضه أصحاب النفوذ والأقوياء من أهل مكة..

والمستشرقون يرون فى ذلك ليس ردا على رسالة النبى إليهم، ولكن هرقل قد جاءته الأنباء بظهور رجل يدعى النبوة، فأراد أن يعرف ..مجرد معرفة ما يدور فى هذه البقعة من العالم !.

وهذا كلام سخيف.. وفيه مبالغات أيضا.. فهرقل قد قابل بالفعل أبو سفيان.. وكان اللقاء كما تقول كتب السيرة الإسلامية فى غزة، وليس فى دمشق.. وقد أجمعت كل الدراسات التاريخية الإسلامية على أن النبى

بعث برسائله إلى حكام العالم.. وأوردت هذه المصادر التاريخية نصوص الرسائل، ومع من أرسلت.. وكيف قوبل هؤلاء الرسل من هؤلاء المرسل إليهم..

وكان حامل رسالة النبى إلى ملك الروم (دحية الكلبى) ..أما نص الرسالة فهى:

- « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين.. وإن تتول فإن إثم الاكارين عليك »..

وتقول الروايات الصحيحة.. أن هذه الرسالة عندما وصلت إلى هرقل، جمع مستشاريه، وأخبرهم بأمر هذه الرسالة، وطلب رأيهم. ولكنهم أظهروا له نفورهم من هذه الدعوة.. فما كان من هرقل إلا أن قال لأتباعه أنه كان يختبرهم فى مدى تمسكهم بدينهم !

وبعث النبى رسالة مع شجاع بن وهب، إلى الحارث بن شمس الغسائى صاحب دمشق..

وكان نص الرسالة:

-« سلام على من أتبع الهدى، وآمن بى وأنا أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده ولا شريك له يبقى لك ملكك »..

وعندما جاءته الرسالة قال:

- «لن ينزع ملكى أنا سائر إليه »..

ولم يعتنق الإسلام..

وبعث برسالة إلى كسرى، وكان حامل الرسالة عبد الله بن خزاعة السهمى.. وكان معه رسالة فيها:

-« بسم الله الرحمن الرحيم. . من محمد بن عبد الله إلى كسرى عظيم فارس. . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا. . أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك أثم المجوس ».

وقابل كسرى هذه الرسالة بفظاظة. ومزق رسالة النبى ﷺ . .وقد دعا عليه النبى ﷺ عندما علم منه فعلته الكريهة قائلا:

-« مزق الله ملكه ».

وقد استجاب الله دعوة رسوله، فلم تمض سوى أيام حتى قتل كسرى ابنه شيرويه.

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى النجاشى ملك الحبشة حملها عمرو بن أميه الضمرى يقول له فيها:

-« من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلام على من أتبع الهدى أما بعد: فأنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. . وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وانى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى، وتوقن بالذى جاء لى . . فأنى رسول الله وأنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى ». .

ويقول الرواة أن النجاشى استقبل الرسالة استقبالاً حسناً، وانه قال:

-« أشهد أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل. . ولكن أعوانى من الجيش قليل. .فانظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب. . ».

ويقول بعض الرواة أيضا أنه أسلم..

وكذلك أرسل النبى رسائل إلى أمير بصرى وكانت تابعة للروم.. وكان الرسول الحارث بن عمير الأزدى، وكذلك إلى ملك البحرين المنذر بن سارى حملها العلاء بن الحضرمى وقد أسلم ملك البحرين، وأرسل للنبى ﷺ رداً لخطابه قال فيه:

-« أما بعد: يا رسول الله،فأنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام، وأعجبه ودخل فيه،ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود فأخذت فى ذلك أمرك.»..

وكان رد الرسول:

-« من محمد بن عبد الله إلى المنذر ساوى.. سلام عليك، فأنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد فأنى أذكرك الله عز وجل، فإن من ينصح ينصح لنفسه، وإن من يطع رسلى، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى.. وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى شفيعك فى قومك فاترك المسلمين وما أسلموا عليه.. وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم عملهم، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.. وإنك مهما تصلح فلن نغيرك من عملك والسلام..

وبعث النبى حاطب بن بلتعه إلى المقوقس عظيم مصر، ولم يسلم هذا الرجل ولكنه قابل رسول النبى مقابلة حسنة وأرسل معه هدايا وجاريتين (مارية القبطية واختها سيرين)، ومارية هى التى تزوجها النبى ﷺ، وأنجب منها ابنه إبراهيم، وسيرين تزوجها الشاعر حسان بن ثابت وقد أرسل معهما طبيبا.. وهذا الطبيب أعاده النبى إلى مصر قائلا كلمته المأثورة:

-« لا حاجة لنا بك..نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع».

كما أرسل بعض الهدايا الأخرى . .

كما أرسل النبى رسالة إلى ملكى عمان جعفر وعبد الخليدى مع عمرو ابن العاص . . وقد أسلما كذلك بعث بكتاب إلى ملك اليمامة هوذه بن على ، مع سليط بن عمرو العامرى . . ولكن هذا الرجل أراد أن يشركه النبى فى بعض الأمر . . وقد غضب النبى من هذا الرد . . وقد مات هذا الرجل بعد فترة وجيزة . .

وواضح أن هؤلاء الرسل لم يذهبوا كل إلى الوجهة الذى وجهه إليها رسول الله ﷺ فى وقت واحد . . ولكن على فترات . . بعض هذه الرسائل أرسلت قبل غزوة خيبر ، وبعضها الآخر أرسل بعد هذه الغزوة . .

وأراد الحارث الغسانى أن يهاجم النبى فى المدينة ، وطلب من هرقل السماح له بالزحف نحو المدينة ، ولكن هرقل رفض ذلك ، فقد جاءته رسالة من النبى ﷺ ، وكان هو فى نشوة انتصاره ، فقد حقق نصرا على الفرس ، فقابل رسول رسول الله مقابلة حسنة . . وبالتالى لم يسمح للحارث بالقيام بمغامرة عسكرية ! .

ولم يكن هرقل يعرف أن اتباع هذا النبى سوف يجتاحون بلاده ، بعد سنوات قليلة ، ويضعون نهاية أبدية لحكم الرومان فى بلاد الشام .

❊ ❊ ❊



غزوة خيبر

كان يهود خيبر الذين يسكنون فى الشمال قوة.. فهم يملكون المال ويملكون العتاد.. وحصونهم منيعة فوق قمم الجبال..ولهم مزارع وحدائق تدر عليهم الكثير ..وكانوا يكنون للنبى عداوة شديدة ..وكانوا ينتهزون الفرص للقضاء عليه.. ولم ينسوا ما فعله النبى فى يهود المدينة لخيانتهم العهود والمواثيق..وكراهيتهم للرسالة والرسول..

وكان لابد أن يأمن المسلمون أنفسهم من غدر يهود خيبر فى الشمال .. كما آمنوا مكة فى الجنوب.. حتى يتمكن النبى ﷺ من نشر الدعوة. وبث ما فيها من مبادئ وقيم فى القلوب.

وهكذا لم يمض سوى خمسة عشر يوما بعد العودة من الحديبية، أو شهر فى أقوال أخرى، حتى قرر النبى أن يهاجم يهود خيبر، حتى لا يسود فى شبه الجزيرة العربية إلا الدين الخاتم.. وحتى يقضى على نفوذ اليهود السياسى.. ويأمن ألا يكون عونا للأعداء عليه.. وخاصة لو جاء هذا العدو من قبل الروم أو الفرس، أو حتى القبائل العربية التى طالما تآمرت معهم اليهود للقضاء على الدعوة الإسلامية !

وقد كان يهود خيبر يحسون بالخطر الإسلامى أشد ما يكون الإحساس وخاصة بعد صلح الحديبية.. التى آمن من خلالها المسلمون من جبهة قريش.. ومن هنا فقد فطن إلى ذلك زعيمهم سلام بن مشكم.. ونادى بأن يتحد كل يهود الشمال.. خيبر وفدك ووادى القرى، وتيماء.. ليكونوا يدا واحدة فى مواجهة النبى ﷺ..

وعلم الرسول بمؤامرة أخرى يحيكها اليهود وهو اتفاقهم مع (غطفان) على أن يعطوها بعض الثمار، وتقوم هى كخط دفاع عنهم.. فإذا هاجم المسلمون خيبر.. وقع المسلمون فى مصيدة بين قوات غطفان من الخلف وقوات اليهود من الأمام..

وقرر النبى ﷺ مفاجأتهم فى عقر دارهم.. فجهز جيشه من الذين كانوا معه فى صلح الحديبية.. هؤلاء الذين بايعوه بيعه الرضوان، وقرروا الاستشهاد فى سبيل الله.. ووضعوا يدهم فى يد الرسول يبايعونه على الموت.. هؤلاء أقدر الناس على تحمل المسئولية فى هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الإسلام.. وهم أحق الناس بالغنائم.. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

وخرج النبى بهذا الجيش الذى كان تعداده ألفا وستمائة ومعهم مائة فارس فى قول، وفى قول آخر ألف وأربعمائة رجل منهم مائتا فارس فى قول آخر لمهاجمة يهود خيبر الذين يربو عدد جنودهم على عشرة آلاف مقاتل..

وقد حاول بعض الأعراب الذين دعاهم النبى إلى الحج معه يوم اتجه صوب الحديبية أن يذهبوا مع النبى لقتال اليهود طمعا فى الغنائم، فرفض النبى دعوتهم.. لأنهم تخاذلوا وتحججوا بأوهى المعاذير حتى لا يخرجوا مع النبى لأنهم كانوا يظنون أن المسلمين سوف تهزمهم مكة هزيمة منكرة لأنهم لا يملكون معهم إلا السيوف.. وأن قريشا سوف تنتهز هذه الفرصة للانتقام.. ومن هنا فقد هربوا من مواجهة الموقف.. وأنزل الله فيهم:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١١ - ١٣].

خرج النبى بجيشه الذى يضم المؤمنين الصامدين، الذين ملأ الإيمان قلوبهم صوب خيبر التى تبعد قرابة مائة ميل عن المدينة.. قطع هذه المسافة فى ثلاث ليال.. وكانت معه فى هذه الغزوة أم المؤمنين (أم سلمة) التى كانت معه فى الحديبية..

وكان المسلمون يريدون أن يفاجئوا العدو قبل أن يعرف بهجومهم فيستعدوا له.. فكانوا يسرعون الخطى.. وكان صوت (عامر بن الأكوع) يحثهم على الجهاد وكان يغنى شعر ابن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنـا ولا صلينا

فأنـزلـن سكينـة علينـا

وثبت الأقـدام إذ لاقينـا

وفاجأ النبى يهود خيبر.. فقد كان بعضهم قد خرج فى صباح هذا اليوم لرعاية حدائقهم وزرعهم.. وفوجئوا بجيش المسلمين، فرجعوا بسرعة إلى حصونهم.. وكانت حصون اليهود عددها ثمانية..

وبدأ المسلمون هجومهم على حصن يسمى حصن الناعم.. فحاصروه سبعة أيام دون جدوى.. وكان لابد من مهاجمة الحصن، وأمر النبى أبا بكر الصديق أن يتوجه إلى مهاجمة الحصن ولكن لم يتم الفتح المشهود، فأمر النبى عمر بن الخطاب أن يقود المعركة.. ولكنه عاد ولم يتحقق النصر، فقال النبى ﷺ:

- «لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله. ويحبانه، ويفتح على يديه وليس بالفرار»..

وأشرأبت النفوس إلى من سيخطى بهذا الشرف.. وأصبح كل صحابى يتمنى أن يكون هذا الرجل الذى سيكون على يديه فتح هذا الحصن، ويكون حبيبا لله ورسوله..

وفى صبيحة اليوم التالى كان يحمل الراية على بن أبى طالب، وأسرع نحو الحصن يقود جيش المسلمين بشجاعته المعهودة، وخرج إليه فارس يهودى يدعى (مرحب) كان فارسا صعب المراس، مدججا بالسلاح.. متدرعا بدروعه.. وضرب عليا ضربة شديدة اسقطت الترس من يده، فما كان من على إلا أن التفت بسرعة حوله، فوجد باباً ضخما كان بجوار الحصن، فأخذه، وقاتل به، وضرب (مرحب) ضربة قوية أسلمته للموت.!

وشاهد اليهود هذا المنظر فحاولوا الفرار، ولكن المسلمين أسرعوا خلفهم واستولوا على الحصن المنيع!

ويقول الرواة أن (الباب) الذى كان يقاتل به على بن أبى طالب كان من الضخامة والثقل بمكان لدرجة أن سبعة من الصحابة لم يستطيعوا حمله!!

وبدأ الزحف الإسلامى نحو مختلف الحصون اليهودية، وقاتلوا اليهود قتالاً عنيفاً ضارياً.. وتساقطت الحصون الواحد تلو الآخر.. وفى حصن (القموص) وجد المسلمون فيه بعد سقوطه نساء زعماء اليهود.. وكان من بينهن صفية بنت حيى بن أخطب التى تزوجها الرسول وأصبحت أماً من أمهات المسلمين..

ووجد اليهود أن الهزيمة واقعة لا محالة، فقرر زعيمهم كنانة بن الربيع أن تحقن الدماء، وأن يجلو اليهود تاركين أموالهم وأرضهم وسلاحهم.. ورضى الرسول بهذه الشروط وقال لكنانة:

- «وبرئت ذمة الله وذمة رسوله أن كتمتمونى شيئا من أموالكم»..

وعلم النبى من أحد أسرى اليهود بأن كنانة قد أخفى أموال (حيى بن أخطب).. وبحث النبى عن هذه الأموال ووجدها، فأمر بقتل (كنانة) لخيانته.. وكنانة كان زوجا (لصفية بنت حيى)..

وقد عرض اليهود بعد الهزيمة أن يزرعوا أرض خيبر، ويظلوا بها، وهم أهل خبرة بزراعة هذه الأرض، على أن يكون نصف ريعها للمسلمين،

ونصفها الآخر لهم.. ووافق الرسول على ذلك واشترط أن من حقه طردهم من خيبر متى شاء..

وغنم المسلمون غنائم هائلة.. وفى نفس الوقت ارتفعت روح المسلمين المعنوية، لتحقيق هذه الانتصارات الهائلة على اليهود، وبالتالى فقد أصبح المسلمون فى أمان من اليهود ومن مشركى مكة..

وكلف النبى (ابن رواحة) أن يكون هو الحكم بين المسلمين وبين اليهود فى تقدير نصف المحصولات كما نص الاتفاق بين النبى وبين اليهود، وكان الرجل عادلا لا يرعى إلا الحق.. والعجيب أن اليهود حاولوا رشوته حتى يكون نصيب المسلمين أقل من النصف، ولكن الرجل اليقظ الضمير أبى ذلك، وقال لهم:

- «يا أعداء الله تعطوننى السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ، ولأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير.. ولا يحملنى بغضى إياكم أو حبى إياه على ألا أعدل بينكما»..

وواضح أن الغدر من طبيعة اليهود.. فقد حدث أن جاءت زينب بنت الحارث وهى يهودية وقدمت طعاما للنبى ﷺ، وقد زعمت أن هذا الطعام هدية للرسول الكريم الذى أبقى قومها فى ديارهم، وعاملهم معاملة كريمة.. وكانت هذه المرأة قد وضعت السم فى لحم الشاة.. وأخذ النبى قطعة من اللحم فلاكها فى فمه، ثم قذفها وهو يقول:

- «ان هذا العظم ليخبرنى بأنه مسموم»..

وقد كان (بشر بن البراء بن معرور).. يأكل مع النبى فابتلع اللحم.. ولم يلبث أن شعر بأعراض السم، ولفظ أنفاسه الأخيرة..

وأحضروا المرأة وسألوها لماذا فعلت هذه الفعلة القبيحة.. وكان ردها إنها أرادت أن تنتقم لقومها، وأن محمدا لو كان نبيا فسوف يخبره الله بأن الطعام مسموم!

وقد قتلت هذه المرأة لأنها كانت السبب فى موت بشر..

وبعد سقوط حصون خيبر، تهاوت قبائل اليهود الأخرى فقد أيقنوا استحالة الانتصار على المسلمين، فاستسلمت (فدك) للنبى بشروط خيبر.. وكانت أرض فدك للنبى ﷺ، لأن أحدا من المسلمين لم يقاتل فيها..

أما (وادى القرى) فقد استسلموا بعد حصار بسيط، واستسلمت (تيماء) على أساس دفع الجزية.. وهكذا زالت سطوة اليهود من الشمال، وغنم المسلمون غنائم رفعت مستوى حياتهم المعيشية ارتفاعا كبيرا..

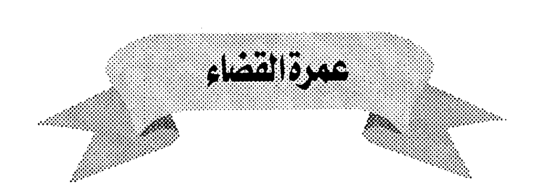
وعاد النبى بعد هذه المعارك التى استمرت قرابة الشهرين ليواصل جهاده العظيم..

وكم كانت فرحة المسلمين غامرة، عندما عادوا إلى المدينة فوجدوا المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وقد رجعوا إلى مدينة رسول الله بعد تلك الغربة التى امتدت قرابة العشر سنوات.. وكان من هؤلاء الذين عادوا أم حبيبة التى تزوجها النبى.. بعد أن علم أن زوجها (عبيد الله) قد ارتد عن الإسلام، وأنها أنكرت عليه ذلك فبعث النبى إلى نجاشى الحبشة أن يزوجها له، وقد حقق النجاشى رغبة رسول الله.. وكان وكيلها خالد بن سعيد ابن العاص، وعقد الزواج جعفر بن أبى طالب بن عم النبى عليه الصلاة والسلام.. أما الصداق فكان هدية من النجاشى لنبى الإسلام وكان أربعمائة دينار..

وقد فرح النبى بعودة ابن عمه جعفر من رحلة الغربة الطويلة وقال:

- «ما أدرى بأيهم أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»..

* * *



عمرة القضاء

عاد النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن هزم يهود خيبر، حيث مكث فى هذه الغزوة قرابة الشهرين، وشعر المسلمون فى المدينة بأنهم وقد فتح الله عليهم بالأمان والأمن.. فقد أمنوا اليهود فى الشمال، وأمنوا غدر مكة فى الجنوب، ولم يعد أمامهم إلا التطلع إلى عمرة القضاء.. أى الذهاب إلى مكة لأداء العمرة التى منعتهم عنها قريش فى العام الماضى، ومن حقهم بمقتضى صلح الحديبية العودة بعد شهور لأداء هذه العمرة.. ومرت ثمانية أشهر، وحان الوقت للذهاب إلى مكة.

وفى أول ذى القعدة.. وكان ذلك فى العام السابع للهجرة.. خرج النبى وأصحابه، وقد بلغوا حوالى الألفين متوجهين إلى أم القرى.. وقد كان المشهد رائعا وجليلا، والمسلمون يتقدمهم النبى الكريم، ومن حوله كبار الصحابة.. نحو مكة، ليس معهم من السلاح سوى السيوف - حسب اتفاقية الحديبية - وإن كان الرسول قد أمر أن يسبقهم فى الطريق إلى مكة مائة فارس بقيادة محمد بن مسلمة، وكانت مهمة هذا الجيش أن يكون تحت أمر النبى لو غدرت مكة، وكان النبى قد أصدر لهم الأمر ألا يدخلوا بسلاحهم مكة، بل يظلوا على مقربة من البلد الحرام، للدخول فى أى معركة يثيرها كفار مكة، فإذا لم يحدث ما يعكر الصفو.. حل محلهم من إخوانهم المسلمين من أدى العمرة، وذهبوا هم الآخرين يؤدون العمرة.

وساق المسلمون أمامهم الهدى ستين ناقة.. وسار النبى على ناقته القصواء.. تلك الناقة التى ركبها النبى منذ سبع سنوات مهاجرا من بلده..

ومهبط رأسه.. ومن أحب البلاد إلى نفسه، حيث شهدت طفولته وصباه وشبابه.. خرج عليها مهاجرا بدينه، وها هو يعود إلى مهبط الذكريات.. وحوله ألفان من الذين آمنوا به يؤدون العمرة.. وأصواتهم ترتفع إلى عنان السماء:

- لبيك اللهم لبيك.

وعلمت مكة بقدوم النبى فهالها الأمر.

البعض ملأ قلبه الحقد والحسد على رسول الله الذى جاء يطوف الكعبة.. وحوله المسلمون.. تملأ السعادة قلوبهم.. فقرروا الرحيل إلى قمم التلال المحيطة بمكة!

والبعض الآخر أخذ يشيع أن النبى ومن معه من المسلمين قد أنهكت قواهم الحروب التى خاضوها ضد اليهود، وأثر عليهم مناخ المدينة، فتأثرت بذلك صحتهم..!!

ولكنهم مع ذلك كانوا يترقبون هذا المشهد الجليل.. ويريدون أن يروا محمدا وأصحابه.. على أية صورة هم..؟

وكان جبل قبيس يمتلىء بالخيام حيث ذهب إليه أهل مكة ليخلوها للنبى وأصحابه لأداء العمرة.. ومن أبواب هذه الخيام كانوا ينظرون إلى النبى وهو يتقدم المسلمين وحوله كبار الصحابة فى مشهد بالغ الجلال والعظمة.. فإذا بهم يرون المسلمين قد بدا على وجوههم سمات القوة والمهابة.. وصوتهم يرتفع إلى عنان السماء:

- لبيك اللهم لبيك..

فيهز القلوب من الأعماق.. وإذا بأهل مكة يشاهدون هذا المشهد الفريد.. ويرون أن محمدا وصل إلى مكانة لم يصل إليها أحد.. وأنه مطاع بين أتباعه بصورة لم يعرفوها حتى لملك من الملوك.. ورأوا النبى وقد أخرج

عضده اليمنى من ردائه، حتى يظهر بمظهر القوة.. وكذلك فعل أصحابه عندما سمعوا النبى يقول لهم:

- «رحم الله امرءا أراهم اليوم قوة من نفسه»..

ها هم المسلمون فى ذورة القوة.. لا يخافون شيئا، ولا يهابون قريشا، وليس فيهم ضعف أو مرض كما أشاع البعض!

ويقترب الموكب العظيم نحو بيت الله الحرام.. والعيون تتطلع إليه من فوق قمم التلال.. يقول النبى لشاعر الأنصار عبد الله بن رواحة قل:

- «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»..

فإذا بابن رواحه يردد هذا النداء الخالد، ومن خلفه أصوات مئات المسلمين يرددون خلفه هذا النداء العظيم..

وكأن النبى والمسلمون بالبيت الحرام، وسعى بين الصفا والمروة، سبعة أشواط، ثم نحر هديه عند المروة.. وكذلك فعل المسلمون.

وغاظ المشركون صوت بلال عندما صعد فوق الكعبة، وأذن أذان الظهر، وأصداء صوته يتجاوب عبر آفاق مكة!

ولكنهم تيقنوا بما لا يدع مجالاً لأى شك أن محمدا أصبح قوة لا يستهان بها، وأنه من الصعب.. بل من المحال أن تهزم دعوته أو أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه قبل أن ينادى النبى بالإسلام.. فقد تغيرت معالم الحياة تماما فى هذه البقعة من الأرض.. ونور الله ينتشر.. والشرك قد ضرب فى الصميم.. فقد رأوا المسلمين وهم يطوفون بالبيت العتيق لا يأبهون بالأصنام التى فى البيت.. وهم الذين كانوا قبل ذلك يقدمون لها القرابين، ويتخذونها آلهة من دون الله.. نفس هؤلاء الأشخاص الذين هاجروا بدينهم إلى يثرب.. يعودون اليوم يعظمون بيت الله الحرام ويمرون بهذه الأصنام البكماء

الصماء.. وهم يزدرونها ولا يقيمون لها وزنا، بل ترتفع أصواتهم ملبية لخالق الكون والحياة وما وراء الحياة!

الصورة جد مختلفة قبل دعوة النبى وبعدها.!..ولا عودة مطلقا للوراء.. فقد اهتزت الصورة نهائيا.. وتغير الحال غير الحال وأصبح من المستحيل أن تعود لهذه الأحجار مكانة فى قلب أحد.. فالعقول أخذت تفكر فى هذه الأصنام التى لم تنصرهم على محمد وأتباعه.. ولم تنتقم هى لهوانها على المسلمين..!.. وفطن العقلاء منهم أن أشياء كثيرة من صورة الحياة سوف تتغير ولا سبيل إلى وقف زحف نور الإسلام.. كما سوف نرى عندما قرر خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة أن يدخلوا فى دين الله..

ومرت الأيام الثلاثة، وآن للركب العظيم أن يعود من أم القرى، وفى أثناء هذه الأيام خطب النبى (ميمونة بنت الحارث) شقيقة أم الفضل زوجة عمه العباس.

ولقد أراد النبى ﷺ أن يمد مكوثه فى مكة حتى يعرس (بميمونة) بها..أراد ﷺ أن يدعو أهل مكة إلى وليمة بهذه المناسبة، حتى يزيل ما فى قلوبهم من أحقاد وحسد على الإسلام ونبى الإسلام، ولكن قريشا رفضت ذلك وطالبته أن يرحل عن مكة بعد الأيام الثلاثة حسب صلح الحديبية.. ووافق النبى ﷺ.. وقد أعرس النبى بها فى مكان اسمه (شيرن)..وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها، وخالة خالد بن الوليد، وكانت أرملة، وكانت هى آخر أزواج النبى ﷺ..

وعاد النبى وصحبه الكرام إلى المدينة التى عاشت فى ظل الرسالة أعز أيامها.. والأثر الذى تركته العمرة على المسلمين وعلى أهل مكة على حد سواء كان أثراً كبيراً..

فالمسلمون شعروا بالعزة والكرامة.. وأن مكة إن عاجلا أو آجلا سوف تنضوى تحت راية الإسلام..

والمشركون أخذ عقلاؤهم يفكرون فى الأمر تفكيرا عميقا فهداهم التفكير إلى الإيمان.

فها هو خالد بن الوليد.. فارس مكة الشجاع، الذى كان من أبرز قادتهم فى محاربة الإسلام يفكر مليا فيما آلت إليه الأمور.. فالإسلام ينتشر، ولم تستطع قوى مكة والقبائل الأخرى أن تحول بين الإسلام والانتشار. انتصر المسلمون فى بدر.. وقلبوا موازين القوى فى شبه الجزيرة العربية رغم قلتهم، ورغم هزيمة أحد.. فإن نصر مكة لم يكن كاملا فقد انسحبت جيوش مكة دون أن تجهز على قوات المسلمين، وحصار الأحزاب للمسلمين انتهى نهاية فى صالح المسلمين، وانتصر المسلمون على اليهود وهاهم المسلمون وقد دخلوا بيت الله الحرام، وعادوا إلى البلد الذى أخرجوا منه على صورة أخرى.. خرجوا تحت جنح الظلام وعادوا إليها بعد صلح الحديبية وقد اعترفت مكة بهم.. وجاءوا إليها وسيوفهم معهم.. عاقدين على مجابهة قريش بقوة السلاح لو خانت العهود والمواثيق.. فماذا بقى للإسلام حتى يعم نوره كل مكان..

.. أسئلة كثيرة دارت فى ذهن خالد بن الوليد، وهو يترك لخياله استحضار ما مر من أحداث.. ولقد خرج خالد بن الوليد من مكة حتى لا يرى المسلمين يطوفون بالبيت، ويعودون إلى بلدهم التى طردوا منها.. عالية رؤوسهم.. غير هيابين ولا وجلين من أحد..

ولكنه عاد بعد أن رجع المسلمون إلى يثرب، ووجد من أخيه الوليد الذى جاء للعمرة مع النبى ﷺ رسالة يقول له فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد.. فأنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وأنت فتى عاقل وهل يجهل الإسلام أحد مثلك وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك فقال أين خالد ؟

فقلت: يأتى به الله مسلما.

فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان يجهل نكايته على المشركين لكان خيرا له ولقدمناه على غيره.

فاستدرك يا أخى ما فاتك، فقد فاتتك مواقف كريمة مع المسلمين..

وكان هذا الخطاب الذى يفيض حبا وإخلاصا من أخ لأخيه خاتمة المطاف أمام فكر خالد.. فقد أيقن أنه آن الآوان أن يحكم عقله .. وأن يدخل فيما دخل فيه عقلاء الناس.. أن يرمى وراء ظهره أهواء الجاهلية وأباطيلها، وقرر أن يذهب إلى الرسول الكريم ويعلن إسلامه..

وقد زاد يقينه عندما رأى فى منامه حلما أنه خرج من مكان قفر إلى مكان وارف الخضرة.. وقرر الرحيل إلى الرسول وأصداء كلمات أخيه عن قولة النبى عنه تملأ تفكيره كله:

-« ما مثل خالد يجهل الإسلام ».

وقد أراد خالد أن يصحب معه إلى يثرب بعض من كان يراهم ذوى عقل راجح، فعرض الأمر على صفوان بن أمية فرفض، ثم عرض الأمر على عكرمة بن أبى جهل فرفض، فعرض الأمر على عثمان بن طلحة فوافق رغم أن عثمان قد قتل أبوه، وعمه وأربعة أخوة له فى معركة أحد..

وعلم أبو سفيان بإسلام خالد، وأحس أن إسلام رجل فى مكانة خالد ابن الوليد سيكون له دوى كبير فى مكة، فأرسل فى طلبه يستفسر عما تناهى إليه من أنباء.. وانعقدت الدهشة على وجهه، وهو يسمع من خالد أنه سيعلن إسلامه أمام النبى فى المدينة، واغتاظ أبو سفيان قائلا له:

- واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد!

ورد عليه خالد:

- فوالله انه لحق على رغم من رغم.

وفى الطريق تقابل خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص الذى كان هو الآخر متوجها ليعلن إسلامه.. وتوجهوا ثلاثتهم إلى المدينة.. وكان ذلك فى أول صفر من العام الثامن من الهجرة.. وأمام سيد البشر أعلنوا إسلامهم.. وقال خالد بن الوليد لرسول الله ﷺ:

- استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله.

فقال الرسول الكريم:

- «إن الإسلام يُجِبُّ ما قبله».

قال خالد: يارسول الله على ذلك..

فقال: أشرف الأنبياء والمرسلين.:

- «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك»..

ثم بايع كل من عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وكان عمرو بن العاص قد فكر هو الآخر فى الأمر مليا، وآثر أنه يرحل إلى الحبشة، وهناك قابل نجاشى الحبشة وكان يحاول أن يغرى به (عمرو ابن أمية) رسول النبى إلى النجاشى ولكن النجاشى لم يعجبه كلام عمرو، وقال له انه رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام.. ونصحه أن يذهب ويعلن إسلامه.. وقلب عمرو الأمر على جميع وجوهه، وقرر العودة من الحبشة، ويذهب إلى النبى ويعلن إسلامه.. وفى الطريق تقابل مع خالد وعثمان بن طلحة حيث تقدموا للرسول وبايعوه..

وقد قال عمرو للرسول وهو يتقدم لمبايعته:

- يارسول الله أنى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى.

فقال له الرسول:

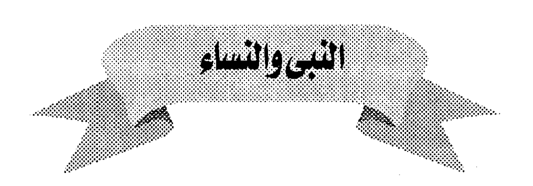
- يا عمرو بايع فإن الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله.

وهكذا دخل الإسلام اثنان من أعظم القادة الذى عرفهما تاريخ الإسلام فى فتوحاته الكبرى. . خالد بن الوليد قاهر المرتدين والروم وعمرو بن العاص فاتح مصر. . وكلاهما كانت لهما أدوار بالغة الخطورة فى مسيرة التاريخ الإسلامى. .

وقد عبر النبى تعبيرا بليغا وهو يرى هؤلاء الثلاثة وقد قدموا لإعلان إسلامهم فقال لأصحابه:

- «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها». .

* * *



لنقف قليلا عند حياة النبى نفسها.. لنرى أننا أمام شخصية لم ولن يعرف التاريخ لها مثيلا.. تلك الشخصية الفذة التى كانت قدوة للمؤمنين، ونور وهداية للناس فى كل العصور.. فالأمى علم أجيالا وصنع تاريخاً، وكان أستاذا لكل أفذاذ العلماء..

واليتيم علم الناس معنى الرحمة والتعاطف الإنسانى.. والذى عاش فى ظل مجتمع قبلى له تقاليده وعاداته.. وضع أسس سليمة لبناء المجتمعات الواعية.. وأسس الحكم السليمة لأى زمان وأى مكان..

وعندما نقترب من حياة هذا النبى العظيم فى جهاده ونضاله فى صبره على قومه وتحمله ما يفوق طاقة البشر.. فى محاولة هدايته لقلوب أقسى وأصلب من الحجارة.. بجانب كل ذلك فى عبادته وخوفه من الله وهو الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. نرى صورا بالغة الروعة والإشراق..

وتبلغ الصورة أروع ما يمكن أن يتصوره الإنسان، وهو يقف عند حياة النبى نفسه.. بين أسرته.. وبين أولاده وأحفاده وزوجاته.. صورة تهز الوجدان.. رغم أن بعض الحاقدين من المستشرقين، حاولوا أن يخلقوا من خيالاتهم المريضة نسيجا لقصص خيالية أبعد ما تكون عن الموضوعية..

محمد العظيم هذا.. عندما ندرس حياته وسلوكه مع نفسه.. ومع أسرته ومع الآخرين.. تزداد عظمته فى النفوس، ونعرف وزنه الحقيقى.. حتى بالمقياس البشرى.. كأعظم من عرفه الوجود..

وقد فشلت كل محاولات الحاقدين فى تشويه معالم الصورة فى عيون المؤمنين برسالته . . فما أكثر الافتراءات التى افتراها هؤلاء المستشرقون . . ومن قبلهم المنافقون الذين زعموا زورا وبهتانا الإيمان . . وكانوا أبعد ما يكونوا عن دين الله . .

صوروه . . إنسانا مفتونا بالنساء . . مغرما بهن . . يعيش قصص حب كتلك التى يكتبها كتاب القصص والروايات الخيالية!

وقالوا فيما قالوا . . إن الإسلام لم ينصف المرأة؟!

ونسوا أنهم يغالطون أنفسهم بأنفسهم . . وأن الإسلام رفع مكانة المرأة التى هى نصف المجتمع ـ إلى مكانة لم تحظ بها فى أى عصر من العصور . . بل أعطاها حقوقا لم تحصل عليها حتى الآن فى أرقى المجتمعات الإنسانية . .

فالمرأة فى الجاهلية كانت مجرد متاع للرجل . . ولم يكن لها ذكر ولا مكانة . . وكان أسوأ خبر يمكن أن يقع على قلب رجل جاهلى عندما يسمع أنه ولدت له أنثى . . يومها يرى كل شىء من حوله قاتما . . حالك السواد وقد يبلغ به الأمر إلى قتل هذا الوليد بلا ذنب جناه . .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾
[**النحل**: ٥٨، ٥٩].

. . وجاء الإسلام ليغير معالم الصورة كلها . . فالمرأة مثل الرجل تماماً . . لها نفس الحقوق، وعليها نفس الواجبات . . والاختلاف فقط أن الإسلام أعطى الرجل بعض المميزات التى عندما ندرسها بموضوعية نراها منتهى العدل . . فإذا كان للرجل مثل حظ الأنثيين فى التركة مثلا فإن الرجل هو الملزم دون المرأة بالإنفاق على البيت، حتى لو كانت المرأة تملك ثراءً عريضاً . . فالإنفاق للرجل، وأعفيت المرأة من هذه المهمة . .

.. والمرأة ترث ولها حرية التصرف فى أموالها حتى بعد الزواج وأصبح للمرأة حرية العقيدة.. وكان النبى عليه الصلاة والسلام يبايع من تدخل منهن الإسلام.. أى انها ليست تابعة للرجل فى هذا الأمر الحيوى من حياة أى إنسان له حرية التفكير والاختيار.

والإسلام يبين أن الذكر والأنثى من نفس واحدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

وأصبح من حق المرأة فى ظل الإسلام أن يكون لها حق المبايعة على تنفيد ما جاء به الشرع..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

.. وحقوق المرأة التى حصلت عليها فى ظل الإسلام.. تسمو بمكانة المرأة، وترفعها إلى مكانة ما كانت تحلم بها، لأن هذه الحقوق وضعها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى.

فالمرأة حرة فى تصرفها فى حدود ما رسمه لها الإسلام فقد رفع عنها ما كانت تنوء به فى الجاهلية.. وألغى نظام الاستبضاع.. وكانت هذه العادة موجودة فى الجاهلية.. وهو أن يرسل الرجل زوجته أو ابنته إلى رجل مشهور بالشجاعة أو الحيلة أو الذكاء، حتى تنجب منه ذرية شبيهة له!!!

وكانت هناك عادة أغرب أيضا من الجاهلية نهى عنها الإسلام فعندما كان يموت الزوج يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه، أو يزوجها بمهر جديد لأحد أخوته وهو ما يسمى بزواج المقت!

. . كل هذه الصور الكريهة أبطلها الإسلام. . وأصبحت المرأة المسلمة لها احترامها فهى أم أو زوجة أو أخت لها مكانتها فى المجتمع الإسلامى.

ولنعد لنرى صورا من حياة الرسول مع نسائه. . فالمستشرقون صوروا النبى عليه الصلاة والسلام بأنه مزواج. . لأنه تزوج تسعة نساء. . بينما حرم على غيره أن يتزوج أكثر من أربع!

وهذا كلام سخيف وفيه مغالطات. . فقد نزل قوله تعالى:

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩].

. . هذه الآيات نزلت فى السنة الثامنة للهجرة، وكان النبى قد تزوج كل زوجاته. . أى أن القرآن الكريم شرع الزواج بأربع بعد أن كان إلى وقت نزول هذه الآيات مطلقا. . وهذا يعنى أن النبى ﷺ لم يبح لنفسه ما حرمه على باقى المسلمين.

بل أن هذه الآيات توضح كيف أن الإسلام، مع إباحته للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة، حتى أربع، فضل الزواج من زوجة واحدة. . لأنه اشترط فى الزواج من أكثر من واحدة العدل بين الزوجات، وبين أن هذا الأمر ليس سهلا. . ومن هنا فضل الزواج بواحدة. .

ولكن لأن الإسلام لم يأت لعصر دون عصر. . بل لكل العصور. . فقد أباح التعدد لأسباب اجتماعية. . فهناك عصور تنتشر فيها الحروب. . والذين يشاركون فى هذه الحروب هم الشباب، وكثيرا ما تحصدهم هذه الحروب حصدا، ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال. . ومن هنا لابد من التوازن فى المجتمع حتى لا تتحول النساء إلى عوانس. . وهنا تظهر عظمة التشريع

الإسلامى فى إباحة التعدد.. وقد حدث أن أباحت ألمانيا وبعض الدول الأوربية بعد الحربين العالميتين أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة ! رغم معارضة ذلك لمعتقداتهم .. فقد فرضت الظروف الملحة عليهم ذلك.. وهذا يعنى أن الإسلام أكثر فهما لحاجات البشر، لأنه جاء من عند خالق البشر..

بجانب أن هناك ظروفا أخرى توجب الزواج بأكثر من واحدة.. كمرض الزوجة مرضا يقعدها عن إجابة مطالب زوجها.. فأيهما أفضل أن يتزوج بأخرى، ويرعى زوجته الأولى وأولاده منها.. أم أن يتحول إلى طريق الشيطان.

ومع ذلك فالنبى ﷺ، لم يكن رجل شهوة، ولا مغرم صبابة بالنساء.. ولا كان عنده من الوقت الذى كان يقضيه إما مجاهدا أو عابدا، أو شارحا للناس أمور دينهم.. ليس عنده من الوقت ليكون.. (زير النساء) كما تصوره حكايات المستشرقين وآراؤهم الفجة.

ولقد لخص مولاى محمد على فى كتابه (محمد رسول الله) حياة النبى بإيجاز، وهو رد عميق على هؤلاء الأدعياء عندما قال:

- يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام:

- كان أعزب حتى الخامسة والعشرين، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى..

فالنبى ﷺ.. عاش شبابه لم يقل عنه أحد من ألد أعدائه شيئا يمس الشرف والفضيلة حتى تزوج خديجة وكان عمره خمسة وعشرين عاما.. فى هذه السن التى كان فيها محمد بن عبد الله فى عنفوان الشباب ورونق الرجولة.. وله ما له من جمال التكوين، وفصاحة اللسان، وعراقة النسب.. ما يغريه أن يتزوج بأكثر من واحدة.. وكان المجتمع المكى لا يرى فى هذا ما يضير أى رجل.. لم يتزوج سوى خديجة بنت خويلد.. وهى تكبره بخمسة

عشر عاما.. عاش معها أجمل أيام عمره.. وظل طوال حياته يشيد بهذه الزوجة العظيمة التى وقفت معه بمالها.. وتشجعه بحنانها، وهو يؤدى الرسالة.. وقبل ذلك وهو يطيل التأمل والفكر فى ملكوت الله.. يستشف ما وراء الكون من أنوار.. حتى جاءه وحى السماء.. وظل معها إلى أن وصل الرابعة والخمسين من العمر.. فقد جاوز مرحلة الشباب..

ولم يكن عنده من الوقت أى متسع إلا للرسالة.. لقد كان عاشقا لله.. عابدا لله.. متهجدا.. تتورم قدماه وهو قائم للصلاة.. ويصف القرآن ذلك بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١ - ٤].

فزواج النبى بعد الرابعة والخمسين؟ هل يمكن أن يكون زواج شهوة.. لقد تزوج زوجاته بين الرابعة والخمسين والستين.. وهو السن الذى يكون الإنسان فيه قد تخطى مرحلة الشباب، ودخل فى الشيخوخة.. فما بالك برجل كمحمد بكل انشغاله بتبليغ الرسالة..

وفى هذه المرحلة بالذات.. مرحلة تخطيه الرابعة والخمسين.. كان قد هاجر إلى المدينة.. وكان يقيم فيها الدولة الإسلامية.. وكان الصراع على أشده بين النبى وأعداء الدعوة من مكة.. إلى مختلف القبائل العربية الأخرى.. بجانب عداوة اليهود.. هذه الأعباء الثقيلة التى تقع كلها على كاهل النبى ﷺ.. هل يمكن بعدها أن نقول أنه كان مشغولا بالنساء..

ولكن ما هو سبب تعدد زوجات الرسول؟

إن الإجابة على هذا السؤال سهلة ويسيرة.. فهو يريد أن يربط ويقوى روابط الصداقة بينه وبين المسلمين.. فتزوج عائشة بنت أبى بكر وأبو بكر كان أقرب الناس إلى رسول الله.. وأول من آمن به من الرجال.. وصديقه فى الغار.. وهو الذى تحمل ما تحمل فى سبيل الدعوة..

وتزوج حفصة بنت الفاروق عمر بن الخطاب.. والفاروق عمر لا أحد ينكر كيف أعز الله به الإسلام.. وقد جاهر بإسلامه.. وخرج يعلن الإسلام على ملأ مكة كلها غير مبال بشئ.. وكان أيضا من أقرب الناس إلى رسول الله..

ومما يدل على أن زواج النبى من عائشة وحفصة يرجع إلى هذا السبب ما يرويه الرواة عن قول عمر:

- «والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم.. قال: فبينما أنا فى أمر ائتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا!

فقلت لها: ومالك أنت ولما ها هنا وما تكلفك فى أمر أريده!

فقالت لى: عجبا لك يا ابن الخطاب. ما تريد أن تراجع أنت وأن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان!

قال عمر: فآخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة.. فقلت لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه.

فقلت: «تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله.. يا بنية لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله إياها.. والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك»..

..وفى هذه الكلمة الأخيرة يوضح عمر لابنته أن النبى ما تزوجها إلا إكراما له.. لا حبا فيها.. ولا ولعا بها.

وقد تزوج النبى أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان.. وأبو سفيان كان زعيم قومه.. وظل مشركا حتى فتح مكة.. وكانت أم حبيبة قد هاجرت مع

زوجها إلى الحبشة.. وبعد أن استقرت معه فى أرض الهجرة عشر سنوات فإذا بزوجها يرتد عن دينه بعد أن أنجب منها طفلة (حبيبة).. ومن هنا أطلق عليها أم حبيبة لأن اسمها رملة.. وكانت فجيعتها فى زوجها وابن عمها فى نفس الوقت (عبيد الله بن جحش) فجيعة أليمة.. وسمع النبى قصة هذه المجاهدة العظيمة، فأرسل إلى النجاشى رسولا وهو عمرو بن أمية العمرى ليخطبها للنبى.. وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة.. وهكذا أزال النبى عنها جراحها.. وأصبحت أما من أمهات المسلمين..

..وكانت رملة بنت أبى سفيان قوية الإيمان مقدرة للرسول الكريم موقفه الكريم منها.. ويتضح عمق إيمانها عندما يتوجه أبو سفيان بعد صلح الحديبية.. وبعد أن نقضت قريش هذا الصلح، فخشى زعماء مكة عاقبة هذا.. فقوة المسلمين بلغت الأوج.. وأبو سفيان يعلم أنه لا قبل لقريش على مهاجمة الرسول.. فذهب ليعتذر.. ولكنه خشى لقاء النبى ﷺ فتوجه إلى بيت ابنته (أم حبيبة) أولا.. وعندما أراد الجلوس سحبت فراش النبى من تحته.. على اعتبار أنه رجل مشرك لا يحق له أن يجلس على فراش الرسول ﷺ، وقد تعجب أبو سفيان من ذلك وقال لها:

- ما أدرى أرغبت بى عن الفراش أم رغبت به عنى؟

قالت له:

- بلى هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك ولا أحب أن تجلس على فراش النبى.

قال لها أبو سفيان:

- لقد اصابك يا بنيه بعدى شر!

ومهما يكن من شئ فإن أبا سفيان لم ينس موقف النبى الكريم من ابنته.

وقد تزوج النبى فى العام السابع للهجرة، بعد أن أصبح وحيدا.. بعد

وفاة زوجته العظيمة خديجة بنت خويلد.. تزوج النبى سودة بنت زمعة.. وكانت هذه السيدة زوجة لأحد الذين هاجروا إلى الحبشة وهو (السكران بن عمر).. وقد مات الرجل، وكانت هى سيدة مسنة.. رعت أولاد النبى إلى أن هاجر إلى المدينة وهاجرت معه، ثم تزوج النبى عائشة بنت أبى بكر الصديق فى السنة الأولى للهجرة، وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب فى العام الثالث للهجرة.. وكانت حفصة أرملة فى الثامنة عشرة من عمرها، وكان زوجها خنيس بن جذامة السهمى أحد شهداء بدر.. وكانت تجيد القراءة والكتابة.

وتزوج النبى زينب بنت خزيمة.. وكان يطلق عليها أم المساكين.. وكانت زوجة لابن عم الرسول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقد استشهد فى معركة بدر ..وقد لقبت بأم المساكين لحبها الشديد للفقراء والمساكين .. فقد كانت دائبة العطف عليهم وقد تزوجها النبى فى السنة الرابعة للهجرة، غير انها انتقلت إلى جوار الله بعد ثمانية أشهر من زواجها بالرسول الكريم.. وقد تزوج النبى بالسيدة هند أم سلمة المخزومية.. وقد استشهد زوجها على أثر الجراح التى أصابته فى معركة بدر.. فمات بعد هذه المعركة بعدة شهور.. وكان زوجها هو عبد الله بن عبد الأسد (المخزومى) فقد هاجر معها إلى الحبشة عندما كان المسلمين الأوائل يهاجرون إليها فرارا من الاضطهاد حيث رزقا بولدهما (سلمة) .. ومن هنا اشتهرت بأم سلمه.. وقد تزوجها النبى لأنها كانت تعول ثلاثة أبناء..

وكان الزواج فى العام الرابع للهجرة أيضا.. وقد عمرت طويلا وماتت فى خلافة يزيد بن معاوية..

وقد تزوج النبى من زينب بنت جحش، وكانت زينب، ابنة عمة النبى، لان أمها أميمة بنت عبد المطلب عمه النبى ﷺ، ..وكانت قد تزوجت زيد بن حارثة.. وكان زيد هذا مولى للسيدة خديجة بنت خويلد زوجة

رسول الله وكانت قد وهبته للنبى قبل البعثة فأعتقه وتبناه.. وقد زوجها النبى لزينب، وكانت زينب ترى فارقا بينها وبينه، فهى تنتمى إلى أعرق بيوتات مكة، وزيد كان رقيقا، رغم أن النبى قد اعتقه وتبناه.. ولكن (زينب) كانت تجد دائما هناك فارقا بينه وبينها، وكرهت عشرته، وطالما اشتكى زيد ذلك إلى رسول الله، وكان الرسول يقول له:

-« امسك عليك زوجك »..

ولكن زيدا لم يستطع أن يعيش معها فطلقها، وقد أمر الله النبى بالزواج منها، ولكن النبى كان يخشى أن يتقول عليه العرب واليهود، ويقولون أنه تزوج من زوجة ابنه بالتبنى فنزل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [**الأحزاب**: ٣٧].

وتزوجها النبى امتثالا لأمر الله بعد انقضاء العدة، كان العرب يعتبرون الابن بالتبنى كالابن تماما.

﴿ لَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [**الأحزاب**: ٣٧].

وقد حرم الإسلام التبنى بعد ذلك فنزل قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [**الأحزاب**: ٤٠].

وقد سمى زيد باسم أبيه (زيد بن حارثة) بعد أن كان يطلق عليه زيد ابن محمد..

ولكن العجيب أن المستشرقين أخذوا هذه القصة، وتركوا لخيالهم أن يرسم لهم ما شاءوا من الأهواء، فقالوا فيما قالوا أن محمدا رأى زينب بنت جحش، عندما ذهب ذات يوم لزيارة زيد، فلما رآها بهر بجمالها الفاتن،

فقرر الزواج منها، بعد أن أمر زيدا بأن يطلقها.. والقصة بهذا السياق الذى ساقه هؤلاء المستشرقين مضحكة، فزينب هى ابنة عمة الرسول، أى أن النبى يعرفها حق المعرفة، ويعرف مقدار جمالها قبل أن تتزوج من زيد، بل هو الذى زوجها له.

وتزوج النبى بمارية القبطية وأنجبت منه ابنه إبراهيم، وكانت عائشة تقول عنها: « ما غرت من امرأة إلا أقل مما غرت من مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة النهار عندها،.. فجزعت فحولها إلى (العالية) بأقصى المدينة وكان يذهب إليها هناك فكان ذلك أشد علينا »..

وتزوج النبى من صفية بنت حيى بن أخطب وجويرية بنت الحارث من سبايا اليهود..

* * *

فزوجات النبى حسب ترتيب زواجهن بعد خديجة هن:

- سودة بنت زمعة.
- عائشة بنت أبى بكر..
- حفصة بنت عمر..
- هند أم سلمة..
- زينب بنت جحش..
- رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة)..
- صفية بنت حيى بن أخطب..
- مارية القبطية..
- ميمونة بنت الحارث..

وكان لكل واحدة منهن ظروف دفعت النبى إلى الاقتران بها.. أما ظروف اجتماعية أو سياسية، وإذا كان المقام الأول فيما يتعلق بهذا الزواج أنه أمر من الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقد فسر الإمام ابن كثير قوله تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

يقول الله تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أى فيما أحل له وأمره من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾.. أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصانا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه..

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .. أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن..

والحديث عن النبى ومعاملته لزوجاته يمكن أن يفرد له مجلدات.. ومن هنا فسوف نلم إلمامة سريعة عن بعض الجوانب لنرى كيف كان النبى بسلوكه مع زوجاته نموذجا لما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فى أسرته.. لأنه قدوة للمسلمين.. وأيضا نعرف كيف كانت أمهات المسلمين مدرسة علمية، عن

طريقهن تعلم المسلمون الكثير من سنة النبى ﷺ . .بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. . وخاصة فى الأمور التى تتعلق بالمرأة. .

وقد قال عن عائشة عروة بن الزبير:

– لقد صحبت عائشة فما رأيت أحدا قط كان أعلم بآية أنزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشهر ولا بيوم. . من أيام الحرب ولا بنسب ولا بقضاء ولا بطب منها. .

وكانت حفصة بنت عمر بن الخطاب تجيد القراءة والكتابة، وهذا ساعدها على تدوين ما تسمعه من القرآن الكريم. . وعاشت نساء النبى معه عيشة هانئة سعيدة، لا يعكر صفوها شئ، سوى ما يوجد بين الضرائر من غيرة. . فالغيرة طبيعة بشرية. .

ولعل أشق محنة تعرض لها النبى، هى ما يسمى فى التاريخ بحادثة الأفك. . فقد شقت هذه الحادثة على النبى، وعلى عائشة رضى الله عنها. . فقد حدث أن صحب النبى فى غزوة بنى المصطلق زوجته عائشة وبعد أن انتهت المعركة، ذهبت هى لقضاء حاجتها بعيدا فى الصحراء، وكان عقدها قد انفرط، فأخذت تجمعه. . فى الوقت الذى كان الجيش الإسلامى يأخذ طريقه عائدا إلى المدينة. . وعندما عادت عائشة لم تجد الجيش. . وأعيتها الحيرة والقلق والتعب. . فأسلمت نفسها للنوم. .

وحدث أن جاء أحد المسلمين وهو (صفوان بن المعطل السلمى). . فوجد عائشة وعرفها، فأركبها راحلته وقادها للمدينة، حيث وصلها إلى الظهيرة. . ولم يكن فى الأمر شيء. . فالقصة عادية. . زوجة تخلفت فى الرحل، ثم عادت مع من قيضه الله ليعيدها إلى بيتها،ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد تقول عليها زعيم المنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول. وقال فيها زورا – قولا عظيما – فاتهمها فى شرفها مع الذى أنقذها من تيه

الصحراء.. وسرعان ما انتشرت الإشاعة الظالمة بين الناس.. لم يصدقها المؤمنون الصادقو الإيمان، ولكن المنافقين أخذوا يتهامسون بها.. حتى وصلت إلى مسامع الرسول، فآذته، أذى شديدا.. وأراد أن يضع للفرية نهاية فقال للناس:

- «يا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرا.. ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيرا وما أدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى»!!

وسمعت عائشة ما دار حولها، فحزنت حزنا شديدا.. فهى تعلم يقينا أنها بريئة تماما مما نسب إليها، وخرجت غاضبة إلى بيت أبيها الصديق.. وذهب إليها الرسول فى بيت الصديق وقال لها:

- «إذا كنت قد قارفت سوءا مما يقوله الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده»..

وردت عائشة باكية:

- «والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا.. فلئن قلت لكم أنى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى.. فوالله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليه السلام: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»..

وزاد من أحزان عائشة أن النبى سأل بعض أصحابه فى هذه المسألة فبرءوا ساحة عائشة، غير أن علىٍّ بن أبى طالب قال له:

- «يارسول الله النساء كثيرات، وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك»..

وكانت الجارية هى بريرة التى أنكرت كل ما يمس شرف سيدتها بسوء..

وهذا الموقف من علىّ ترك فى نفسية عائشة شيئا ظل يلازمها طوال

حياتها مما يعرفه الدارس للتاريخ الإسلامى، عندما قامت عائشة بثورة على الإمام عندما تولى الخلافة.. وكانت نتيجة هذه الثورة.. تلك المعركة الدامية الرهيبة فى تاريخ الإسلام، والتى تعرف بمعركة الجمل حيث استشهد فيها قرابة الخمسة عشر ألفا من المسلمين!

وقد تبخرت هذه الإشاعة، عندما برأها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١١ - ١٩].

وقد أقيم حد القذف بعد براءة السيدة عائشة على الذين روجوا لهذه الإشاعة الآثمة.. تنفيذا لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وهكذا عادت لعائشة كرامتها.. وسكنت العاصفة..

وقد قبض الرسول إلى الرفيق الأعلى فى حجرة عائشة بعد أن استأذن نساءه أثناء مرضه أن يقيم عند عائشة..

وعاشت نساء النبى معه.. فسوى بينهن فى الحقوق والواجبات، ولم يفضل إحداهن على الأخرى.. أما الميل القلبى فلم يكن له حيلة فيه.. وهذا لا ينفى أن يحدث دائما ما يحدث بين الضرائر.. ومن الطريف مثلا أن انشقت نساء النبى إلى حزبين.. حزب عائشة وحفصة وسودة.. وحزب ضم زوجات النبى الأخريات.. عندما تزوج النبى ابنة عمته زينب بنت جحش، وكانت جميلة، واتفق حزب عائشة أن يتهموا النبى ﷺ بأن رائحة فمه كريهة عقب ما أكله عند زينب، وكان ﷺ يكره الروائح الكريهة.. وكان ﷺ قد شرب بعضا من عسل النحل حتى أنه امتنع عن شرب العسل!!

وفى مرة تالية، اتفق نساء النبى بعد أن رأوا أن الأموال تدفقت على المسلمين بعد هزائم اليهود، فاتفقن على أن ينفق عليهن الرسول أكثر.. وكن الرسول رفض طلبهن، واعتزلهن جميعا شهرا، ونزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

و.. اختارت نساء النبى أن يعشن مع النبى.. وفضلن معه عيشة الكفاف على عيشة الرغد التى سولت لهن أنفسهن ذات يوم أن يحرصن عليها.. فالنبى ليس ملكا من الملوك، ولا امبراطوراً من الأباطرة، لا يعيش فى قصر من القصور، ولا تستهويه حياة القصور.. ولا لين العيش.. إنما هو بشر رسول.. يعيش بين الناس كواحد منهم.. ويمشى فى الأسواق.. ويتزوج كما يتزوجون، لكنه أكثر الجميع زهدا.. وأكثرهم عبادة لله وأكثرهم تقوى..

وسمعت نساءه ما أنزل على رسوله من القرآن فآثرن الحياة فى بيت النبوة، وما عاد يستهويهن ما كانت تصبو إليه نفوسهن من رغد العيش.. فلهن وضع يختلف عن الأخريات.. إنهن قدوة لكل المؤمنات..

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن فدخل على فقال:

- سأذكر لك أمرا لا تعجلى حتى تستشيرى أباك..

فقالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: إنى أمرت أخيركن.. وتلا عليها آية التخيير إلى آخر الآيتين. قالت فقلت: وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك؟ فإنى أختار الله ورسوله، فسر رسول الله ﷺ بذلك، وعرض ذلك على بقية نسائه.. فتتابعن كلهن، فاخترن الله ورسوله ﷺ..

ويورد الإمام ابن كثير حديثا مرفوعا لعلى رضى الله عنه قال:

- إن رسول الله ﷺ خيّر نساءه من الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق وهذا منقطع..

وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك وهو حالات الظاهر من الآية فإنه قال:

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾.

أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، وقد اختلف العلماء فى جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين أصحهما نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح... والله أعلم..

وقال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن، وكان تحته ﷺ صفية بن حيى النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن وأرضاهن أجمعين..

ثم كان هذا الدستور الخالد للإسلام بالنسبة لزوجات النبى، وهن قدوة لباقى المسلمات. .

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

وفى سورة النور يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

هذه هى الصورة النقية الطاهرة التى رسمها الإسلام للمرأة. . وبجانب ذلك منحها حقوقا لم تكن تحلم بها. . ومع ذلك لم يتورع الحاقدون أن يحاولوا النيل من نبى الإسلام. . والعقاد يرد عليهم بقوله:

– قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء. . فالنبى ﷺ أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى فى معاملة زوجاته بالعدل، ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا

يقتضيه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدم لهن.. من متاع هذه الدنيا، وبذلك تسعد الأسرة بنجاحها، وتقوم بواجبها نحو الله والمجتمع الإنسانى..

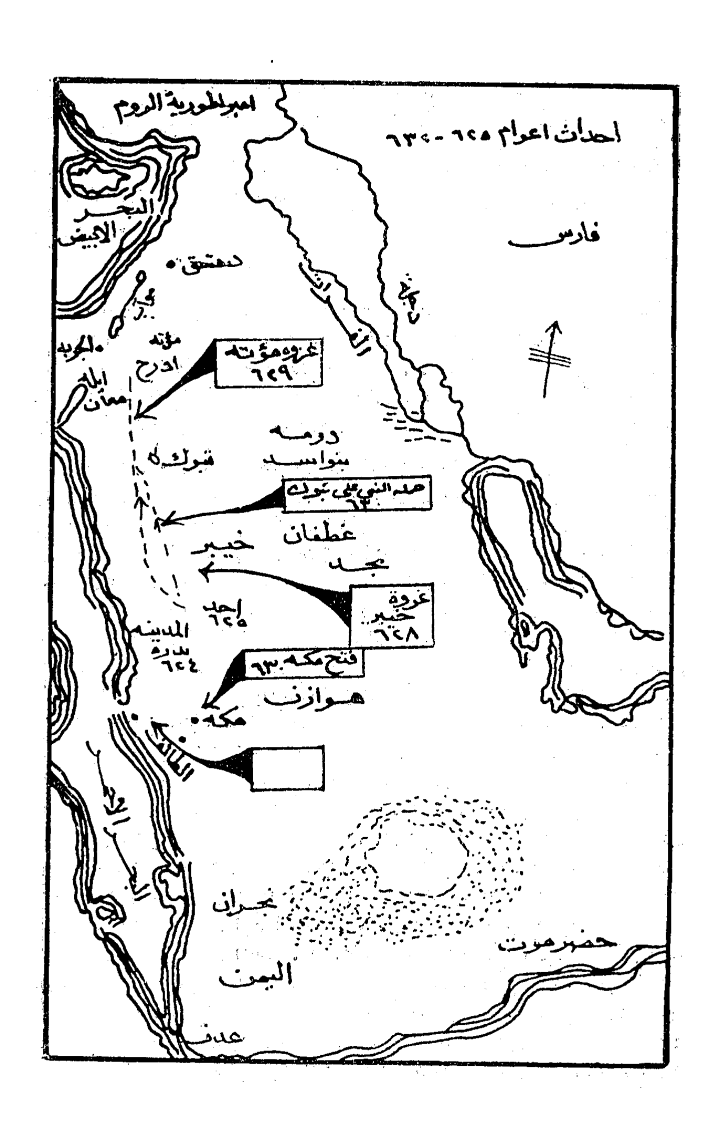
ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى من نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية..

فالإسلام وهو يحترم الطبيعة والفطرة، لم يفعل ما فعله رجال الكنيسة، ولم يقل الإسلام عن المرأة ما قالوا عنها بأنها ليست كائنا بشريا ولكنها الشيطان نفسه، وأن صوتها هو فحيح الأفعى!!

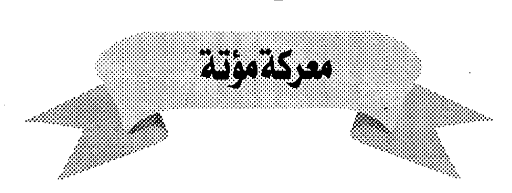
وقد كفل الإسلام للمرأة حق التعلم مثلها مثل الرجل تماما.. فقال عليه الصلاة والسلام:

- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة..

* * *


احداث اعوام ٦٢٥ - ٦٣٠
امبراطورية الروم
البحر الابيض
دمشق
فارس
غزوة مؤته ٦٢٩
حملة النبي على تبوك ٦٣٠
دومه
بنواسد
تبوك
غطفان
خيبر
نجد
غزوة خيبر ٦٢٨
احد ٦٢٥
المدينه
بدر ٦٢٤
فتح مكه ٦٣٠
هوازن
مكه
نجران
حضرموت
اليمن
عدن

- ١٤ -



فى جمادى الأولى سنة ثمان، جهز النبى ﷺ جيشا مكونا من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة ليتوجه نحو الشام ومجابهة الروم.. وتلك المعركة التى عرفت فى التاريخ باسم معركة مؤتة.. كان أمر النبى ﷺ أنه إذا أصيب زيد أن يتولى القيادة جعفر بن أبى طالب، وإذا أصيب جعفر يتولى القيادة عبد الله بن رواحة.. وإذا أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا يجعلونه أميرا عليهم..

وقد اختلف الرواة فى هذه الحملة.. أرجعها البعض إلى أن السبب يرجع إلى شرحبيل بن عمرو.. وكان عميلا للروم فى الشام قتل (الحارث ابن عمير) رسول رسول الله إلى أمير بصرى..

وأرجعها البعض الآخر، إلى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد أرسل خمسة عشر رجلا إلى ذات الطلح وهى فى الشمال ناحية الشام، وكان سبب إرسالهم دعوة الناس فى هذه المنطقة إلى الإسلام، ولكنهم قتلوا جميعا ولم ينج غير رئيسهم.

واستعد الجيش للرحيل، وانضم إلى هذا الجيش خالد بن الوليد الذى عرفه التاريخ الإسلامى فيما بعد قائدا من أعظم قادة التاريخ..

وودعهم النبى ﷺ ومعه صحابته.. وقد بكى عبد الله بن رواحة وهو يودع النبى ﷺ..

وسئل ابن رواحة عما يبكيه فقال:

- أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم : ٧١] .

فلست أدرى كيف يكون الصدور بعد الورود . .

وقد أوصى رسول الله ﷺ الجيش بألا يغدروا ولا يغلوا وألا يقتلوا وليدا، ولا امرأة ولا شيخا فانيا، ولا راهبا فى صومعته، وألا يقربوا نخلا، أو يقطعوا شجرا، أو يهدموا بيوتا . .

وسار الجيش فى طريقه نحو الشام بعد أن ودعهم الرسول الكريم ونزلوا فى معان بالشام . . وكانت أنباء هذا التحرك قد وصلت إلى هرقل فجهز لهم جيشاً قوامه مائة ألف مقاتل فى رواية، وضعف هذا العدد فى رواية أخرى . . وفكر المسلمون بعد أن علموا أنهم سيواجهون جيشا ضخما لا طاقة لهم به . . فكروا أن يبعثوا للنبى فى المدينة يسألونه ما ينبغى عليهم أن يفعلوه . . ولكن ابن رواحة قام فخطب فيهم، وأشعل فيهم الحماسة، وأنصتوا إليه وهو يقول لهم:

-« يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أمرنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة » . .

واقتنع الناس بضرورة القتال رغم قلة عددهم . . وكان جيش هرقل قد زحف بتخوم البلقاء، فاتجه المسلمون نحو قرية اسمها (مؤتة) . .وتهيأ المسلمون للقتال . . وجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة اسمه قطب ابن قتادة وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار اسمه عياية بن مالك . . والتقى الجيشان، وكان القتال رهيبا قاسيا . . وظل يقاتل زيد حتى سقط شهيدا فحمل الراية جعفر بن أبى طالب . . وكان يعرف تماما أنه سوف يستشهد فى هذه المعركة . .

كان يشم رائحة الجنة، فركب فرسه، وخاض المعركة . . ودخل بين الصفوف يقاتل بضراوة، حتى أن فرسه لم يستطع المضى إلى الأمام وسط

زحام الجنود فنزل عن فرسه وعقرها وأخذ يحارب براية رسول الله . .حتى إذا هوى سيف على يمينه فقطعها، أخذ الراية بشماله، فضربه الأعداء فقطعوا يده اليسرى، فاحتضن الراية بعضديه !!حتى قتل . .وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره !

وحمل الراية عبد الله بن رواحة، وقد تردد فى أول الأمر قليلا ثم عاد فاقتحم المعركة حتى قتل . .

وأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان. . فقال للناس:

- يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. .

فلما طلب منه الناس أن يقودهم رفض القيادة، فاتفقوا على أن يقودهم خالد بن الوليد. . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقود فيها خالد بن الوليد جيشا من جيوش المسلمين. .

وهنا ظهرت عبقرية خالد العسكرية. . لقد قاوم العدو مقاومة باسلة، حتى إذا ما أظلم الليل، أعاد ترتيب جيشه. . وغير من ترتيب الجنود. . ثم طلب من بعض جنوده أن يذهبوا بعيدا فى مؤخرة جيشه. . ومهمتهم أن يثيروا كثيرا من الغبار، والصياح والضوضاء، حتى يظن العدو أن هناك مددا قد جاءهم من المدينة، فيبث فى قلوب أعدائه الرهبة والخوف.

وجاء الصباح. . وشاهد العدو جيش المسلمين. . ورأى على البعد الغبار والجلبة والصياح. . وشاهد الجيش يتقدم بشجاعة منقطعة النظير. . فأيقن العدو أن مدداً من المدينة قد جاء يقوى عضد المسلمين . .ثم شاهد خالد ابن الوليد يتقهقر بجيشه فظنوا أن هذه خدعة من القائد العربى يحاول بها أن يوقع صفوف الروم فى شباك قد نصبها لهم. . فلم يتقدموا وراءه. . وكانت خطة خالد أن يعود بجيشه سالما إلى المدينة حتى لا يهلك عن آخره فى معركة يفوقه العدو عددا وعتادا. . وكانت خسارة المسلمين فى هذه المعركة اثنى عشر شهيدا !

وشاهد الناس فى المدينة النبى ﷺ فى اليوم التالى للمعركة حزينا.. لابد أن فى الأمر شيئا أحزن الرسول.. إنهم يريدون أن يعرفوا ما الذى أحزنه.. وصمت الناس.. وصوت النبى الكريم ينقل إليهم ما حدث فى مؤتة!

- أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا.. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا..

ثم صمت الرسول حتى تغيرت وجوه الأنصار، وأخذوا يتطلعون إلى كلمات النبى ﷺ، فإذا به يقول لهم:

- ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا.

ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه.. فقلت عم هذا؟ فقيل لى: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى ..

وذهب النبى إلى بيت جعفر بن أبى طالب، وطلب من زوجته أسماء بنت عميس أن تأتى بأبناء جعفر وتشممهم وذرفت عيناه بالدموع..

وسألته أسماء إن كان قد حدث لزوجها شئ، فأخبرها الرسول باستشهاد جعفر، وخرج النبى إلى أهله قائلا:

- لا تغفلوا آل جعفر أن تضعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم..

وزارهم عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بثلاثة أيام، واستضافهم فى بيته ثلاثة أيام، وقال لابنه عبد الله:

- هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة فى الجنة..

وأقبل خالد بجيشه إلى المدينة، واستقبله الرسول ﷺ.. وكان الناس يرون فى انسحاب خالد من المعركة هزيمة، وجرح فى قلب المسلمين، فاستنكروا عليه ذلك، وقابلوا جيشه بقولهم:

- يا فرار.

ولكن الرسول العظيم قال لهم:

- ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله..

وقد لقب النبى ﷺ خالد بن الوليد بسيف الله اقتناعا منه بموهبته، ومقدرته العسكرية الفائقة.. وكانت عودة جيش مؤتة فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة الهجرية..

* * *

- ١٥ -



وكان لمعركة مؤتة كبير الأثر فى القلوب والعقول، على مختلف المستويات.. وأعادت التفكير العميق لدى كل الأطراف فى الجزيرة العربية وخارجها نحو الإسلام.. وأصبحت أنباء القوة الإسلامية الصاعدة فى شبه الجزيرة العربية تشد الأسماع فى كل مكان..

لقد بدأ الروم يفكرون بجدية فى هذه القوة العربية الإسلامية التى أصبح مركزها المدينة المنورة، والتى شاهدوا من خلال معركة (مؤتة) مدى ضراوتها فى القتال، وحرصها على الموت فى سبيل عقيدتها.. وأيقنت أنها أمام خطر داهم بالغ الخطورة..

ورأى عرب الشمال فى نجد فى هذه الأراضى المتاخمة لحدود الشام والعراق فى الإسلام قوة لم تكن تخطر ببالها قط..

لقد شاهدوا سطوة الروم، وعرفوا بطشها وجبروتها، ولم يجرؤوا يوما على التمرد على سلطان روما، التى تملك من الجنود فى البر، والأساطيل فى البحر ما يفوق الخيال.. فما بال هؤلاء المسلمين القادمين من المدينة.. لا يهابونهم، ولا يعملون لهم حسابا، ولا يخشون هجوم الرومان الكاسح فإذا بهم فى أعداد قليلة يذهبون إلى الرومان ليجابهوهم فى بلاد الشام، ويعودوا إلى ديارهم سالمين، ولم يخسروا إلا عددا قليلا من الشهداء.. لقد أكبر هؤلاء العرب من سكان شمال شبه الجزيرة المسلمين، فانبهروا بما سمعوا عن الإسلام ودين الإسلام، وفزارة وذبيان.. بل أن أحد قادتهم وهو (فروة بن عمرو الجذامى) قد أعلن إسلامه، رغم أنه كان أحد قادة الجيش الرومانى..

وحاول هرقل استمالته للعودة إلى المسيحية مرة أخرى، ويعود إليه نفوذه ووظيفته فى الجيش الرومانى مرة أخرى، فرفض مقتنعا بأن الإسلام الذى خلق فى المسلمين هذه الروح العالية من الشجاعة هو الدين الحق، وقد قتل فروة.. ولكن قتله هذا.. وقصة تمسكه بدينه، جعلت قصته تنتقل من مكان إلى مكان.. ومن إنسان إلى آخر.. فإذا بالناس يقبلون على اعتناق الإسلام..

ولكن قريشا رأت فى انسحاب المسلمين فى - مؤتة - هزيمة للمسلمين.. فهم لم يستطيعوا الصمود للرومان.. ومعنى هذا أن شوكتهم قد ضعفت، وهذه فرصة لتشفى غليلها من المسلمين، فإذا كان بينها وبين النبى عهد وهو عهد الحديبية، فلماذا لا تنقض هذا العهد !

وكان صلح الحديبية، قد أعطى الحرية للقبائل فيمن يدخل فى عهد النبى، أو يدخل فى عهد مكة، وكانت خزاعة قد دخلت عهد النبى، وكانت بنو بكر قد دخلت فى عهد قريش.. وكان بين بكر وخزاعة حسابات قديمة.. وقد أمسكت كل قبيلة عن الثأر بعد الحديبية.. ولكن الأحقاد فى النفوس تأججت فى الصدور بعد أن علمت مكة أن جيش المسلمين رجع إلى المدينة دون أن يحقق نصرا فى (مؤتة).

وهكذا أراد البعض فى مكة أن يثير من جديد تلك العداوات القديمة بين بكر وخزاعة، وكان على رأس المحرضين على الفتنة عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية.. وأخذوا يوقدون العداء بين بكر وخزاعة، وفى نفس الوقت يمدون بكرا حليفتهم بالمال والسلاح، ويساعدونهم فى القتال ليلا، فأغاروا على ماء لخزاعة اسمه (الوتير).. وقتلوا منهم بعض رجالهم.

وكان من الطبيعى أن تستنجد خزاعة بالنبى ﷺ فذهب عمرو بن سالم، مع جماعة من قومه إلى المدينة، وكان النبى فى المسجد فقال له:

يا رب انى ناشد محمدا

حلف أبينا وأبيه الأتلدا

ولما انتهى من إلقاء قصيدته قال له الرسول الكريم:

- نصرت يا عمرو بن سالم.. والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى.

وكان البعض من خزاعة قد فر إلى مكة إلى دار (بديل بن ورقاء).. واحتموا بها، فذهب بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة إلى الرسول فى المدينة.. وقص عليه ما يفعله بنو بكر، بمساندة قريش، ونقضهم صلح الحديبية، وعاد إلى مكة..

وشعرت مكة أن الأمور بدأت تتأزم..

وخافوا من تدخل المسلمين، وأخذوا يحسبون الأمور، فإذا بهم يشعرون إنهم لا قبل لهم بالمسلمين بعد أن قوى سلطانهم، واتحدت كلمتهم تحت راية الإسلام، وأن ما فعله بعض شبابها من تحريض بنى بكر على خزاعة هو نوع من الطيش لم يكن له ما يبرره سوى الأحقاد، فآثرت أن ترسل أبا سفيان ابن حرب إلى المدينة لعله ينجح فى أن يمد من عهد الحديبية، وأن يذيب ما قد ينشأ من صدام بين المسلمين ومكة عندما يعلم النبى بما حدث بين بنى بكر وخزاعة..

اتجه أبو سفيان إلى دار ابنته أم حبيبة، وكان يضع على وجهه لثاما وعرفته، وإن كانت قد احتارت فى الأمر الذى دعا إلى قدوم والدها.

وأراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبى، فسحبت الفراش من تحته، وتعجب أبو سفيان وقال لابنته الذى لم يكن قد رآها منذ عشر سنوات منذ أن هاجرت فرارا بدينها إلى الحبشة.

- يا بنيه، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفرش أم رغبت به عنى ؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس فى فراش رسول الله ﷺ.

قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى الشر !

وخرج أبو سفيان إلى النبى فى مسجده، وطلب منه أن يمد فى صلح الحديبية، فلم يرد عليه بشئ، وأخذ أبو سفيان يتردد على كبار الصحابة. قابل أبا بكر وعمر، وعلى بن أبى طالب ليشفعوا له عند الرسول، فرفض الصديق، بينما قال له عمر بن الخطاب:

- أنا أشفع لك إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به!

وذهب لبيت على بن أبى طالب وزوجته فاطمة الزهراء، وكان الحسن صغيرا.. فتوجه لعلى قائلا:

- يا على إنك أمس القوم بى رحما، وإنى قد جئتك فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لى !

قال على: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما استطيع أن تكلمه فيه.

ولما خاب مسعى أبو سفيان، حاول أن يستشفع بفاطمة بنت النبى فقال لها:

- يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى نبيك هذا الحسن فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !

ولم تنطل حيلة أبى سفيان على فاطمة فقالت له:

- والله ما بلغ نبى ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ..

عاد إلى على وقد بلغت به الحيرة مداها..

- يا أبا الحسن أنى أرى الأمور قد اشتدت على، فانصحنى:

- والله ما أعلم لك شيئا،لكنك سيد بنى كنانة ،فقم فأجر بين الناس،ثم الحق بأرضك !

- أوترى ذلك مغنيا عنى شيئا؟

-لاوالله ما أظنه. ولكنى لا أجد لك غير ذلك . .

وذهب أبو سفيان إلى المسجد فقال :

-أيها الناس أنى قد أجرت بين الناس . .

وركب راحلته إلى قريش، حيث كان فى انتظاره الناس. . يريدون أن يعرفوا ما توصل إليه بذكائه ودهائه مع النبى ولكنه قال لهم:

- جئت محمدا فكلمته، فوالله ما رد على شيئا، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشئ صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟ . .

- وبم أمرك ؟

- أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت. .

- ويلك. والله زاد الرجل أن لعب بك. . فما يغنى عنك ما قلت. .

- ولا والله ما وجدت غير ذلك.

ولم تجد قريش سفيرا يشفع لها عند الرسول سوى عمه العباس. . الذى أعلن لهم أنه سيهاجر إلى المدينة إلى ابن أخيه، وأنه سوف يعلن إسلامه. . ووافقت قريش !

وكان النبى ﷺ قد عزم على فتح مكة، وكان لا يريد فى نفس الوقت أن تراق أى دماء. . فمكة بلاد عزيزة إلى نفسه. . هى أحب بلاد الله إلى الله. . فيها كان ميلاده وطفولته. .وفيها كان شبابه. . وعلى أرضها كان يطيل

التأمل والتفكر فى ملكوت الله . .وعلى ثراها رعى الغنم، يتيما. وهنأ بزواج سعيد مع السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد. . وفى غار على جبالها (غار حراء) نزل وحى السماء. . وشاهد جبريل عليه السلام. . وفيها أيضا كان جهاده العظيم لله وبالله. .

هذه الأرض الطاهرة فيها أول بيت وضع للناس ليكون لهم مثابة وآمنا. . وتحت سمائها كان نداء الخليل إبراهيم عليه السلام عندما رفع القواعد من البيت، مؤذنا للناس بالحج. .

إنها مكة. . أم القرى. . ما ينبغى أن يسفك فيها دم . .ولا تزهق أرواح. . فلعل الله يهدى هؤلاء الذين كفروا بدعوته، وحاربوه. . وأخرجوه من بلده. . ويكونون جندا من جنود الرحمن.

وأمر النبى الناس بالاستعداد للجهاد. . وطلب من الأعراب الذين دخلوا الإسلام حديثا أن يتجهزوا هم الآخرين، وكان قد أمر أن تقام لهم معسكرات فى المدينة، وكان يشرح لهم تعاليم الإسلام حتى يعرفوا أمور دينهم. . وأصبح عدد الذين سيزحفون معه إلى مكة عشرة آلاف مقاتل. .

ودخل الصديق على ابنته عائشة فرآها تحرك بعض جهاز الرسول فسألها:

- أى بنية. . أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟

- نعم فتجهز. .

- فأين ترينه يريد ؟

- والله ما أدرى. .

وأخبر النبى أصحابه بما عزم عليه، وأمرهم أن يكون الأمر سرا حتى يفاجئ مكة بجيش لا قبل لها به . .وقال:

- اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها. .

وتجهز الناس، وقلوبهم تهفو إلى بيت الله، ولكن خاطب بن بلتعة، أرسل إلى قريش مع امرأة فى طريقها إلى مكة برسالة يخبر فيها أهل مكة بما عزم عليه الرسول، وعلم الرسول عن طريق الوحى بما فعله حاطب، فأرسل فى طلبها على بن أبى طالب، والزبير بن العوام.. وكانت المرأة قد وضعت الرسالة فى شعرها.. وأدركها على والزبير عند مكان يسمى (الخليفة).. وأخذا يفتشان عن الرسالة دون جدوى.. ولكن عليا يدرك تماما أن ما يخبر به الوحى أمر صادق فقال للمرأة:

- إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب، أو لنكشفنك..

ورأت المرأة أمام إصرار على والزبير إنهما لا محالة سوف يكشفان عن الرسالة، فأخرجتها من قرون شعرها !!

وأخذا الرسالة، وعادا بها إلى رسول الله الذى أحضر حاطبا وسأله عن الذى حمله على هذا الذى فعله، فرد حاطب:

-« يا رسول الله، أنى لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرءا ليس لى القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم..».

وأراد عمر أن يستأذن الرسول فى قتله لأنه نافق، فقال له الرسول الكريم:

-« وما يدريك يا عمر، لعل الله أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ».

واستخلف النبى على المدينة كلثوم بن عتبة، وخرج فى اليوم العاشر من رمضان من العام الثامن من الهجرة.. وكان النبى وأصحابه صائمين، وفى الطريق أفطر النبى، وتبعه الصحابة لانهم على سفر، كما التقى النبى أثناء

مسيرته بعمه العباس وأُسرته.. وعاد العباس مع النبى فى طريقه إلى مكة، بينما اتخذت أسرته طريقها إلى المدينة، حتى إذا ما وصل الركب إلى مر الظهران بالقرب من مكة أمر النبى أصحابه أن يشعلوا النيران، وارتفعت ألسنة اللهب فى الليل فتراءت على البُعد لقريش، التى هالها الأمر، واختلط عليها الأمر، فما عادت تدرى أهم الذين يريدهم الرسول، أم يريد عداهم من القبائل ليدخلوا فى الإسلام..

وخرج أبو سفيان وحكيم بن خزام ليعرفا شيئا عن سر هذه النيران التى تحيط بمكة.. وقابلهم فى الطريق بديل بن ورفاء الخزاعى..

وكان العباس قد ركب بغلة النبى واتجه بها صوب الأراك لعله يجد راعيا للغنم، أو أحدا من أهل قريش ليبلغ مكة بمقدم الرسول حتى يأتوا إلى النبى، ويطلبوا الأمان، ويدخل النبى البلد الحرام دون سفك دماء.

وبينما العباس مجد فى سيره سمع صوت أبى سفيان، وهو يتحدث مع بديل بن ورقاء عن هذه النيران المشتعلة على البعد، ويتجادلان حولها.. فنادى العباس أبا سفيان بكنيته..

- يا أبا حنظلة..

- وأجابه أبو سفيان:

- أبو الفضل !

وسأل أبو سفيان العباس عن هذه النيران التى تملأ المكان رهبة فقال له العباس:

-« ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ فى الناس واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة.

- ما الحيلة.. فداك أبى وأمى ؟».

- والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك..

وركب أبو سفيان خلف العباس على بغلة رسول الله، وهاله عندما مر بين صفوف عشرة آلاف مسلم، الرهبة.. فى يد كل واحد منهم مشعل، حتى إذا ما مر بعمر بن الخطاب، عرفه عمر، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره، فحاول أن يسرع للنبى قبل العباس، حتى يدق عنق أبى سفيان الذى طالما كان سوط عذاب للمسلمين، ولكن العباس استشفع عند الرسول وأجاره.. وأمر النبى العباس أن يأخذ أبا سفيان وأن يأتى به للنبى فى الصباح.. وعندما أصبح الصباح جاء أبو سفيان إلى حضرة النبى الكريم، وابتدره الرسول قائلا:

- ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

- بأبى وأمى.. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله آخر لقد أغنى عنا شيئاً بعد..

- ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟!!

- بأبى أنت وأمى ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك.. أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا..

فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك ..

وهنا أعلن أبو سفيان إسلامه !

وكان العباس يعرف نفسية أبى سفيان وأنه يحب الفخر.. فطلب من النبى أن يجعل له شيئا.. فقال الرسول الكريم:

- نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن..

وأمر النبى العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل، وكان هدف النبى من ذلك أن يرى أبو سفيان بنفسه قوة جيش المسلمين..

وانه من الصعب على قريش أن تقاوم هذا الجيش الضخم.. وبالفعل فقد هال أبو سفيان ما يرى وهو يرى القبائل المختلفة بعددها وعتادها وهى تمر أمامه، ولكنه عندما شاهد النبى فى كتيبته الخضراء التى كانت تضم المهاجرين والأنصار، شده جلال النبى وسط جنوده.. فإذا به يرى ذلك ملكا عريضا عظيما أتيح لمحمد بن عبد الله.. فيقول للعباس:

– ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما..

رد عليه العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة..

فقال أبو سفيان: فنعم إذن !

وانطلق أبو سفيان إلى قريش.. وأخذ يصيح فى الناس:

– يا معشر قريش.. هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن..

ورأته زوجته هند بنت عتبة فأمسكت بلحيته وطلبت من الناس قتله.. ولكنه لم يعرها انتباها، وطلب منها أن تدخل الإسلام، وتوجه بحديثه إلى الناس:

– ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن!

قالوا: قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ولم يجدوا مفرا أمامهم، إلا دخول منازلهم، أو الاحتماء بالبيت العتيق.. وأصبح الطريق أمام الرسول ممهدا لدخول مكة، وقسم النبى جيشه بين أربعة من قادته خالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة الجراح، وسعد بن عبادة، كل يدخل مكة من طريق، ودخلها عليه الصلاة والسلام

عن طريق (أذاخر) وأمرهم الرسول ألا يسفكوا دما إلا إذا فرض عليهم القتال من قبل المشركين. .

فقد أمر الزبير أن يدخل مكة من الشمال، وخالد من أسفل مكة. . ومن الجانب الغربى سعد بن عباده، بينما يشق أبو عبيدة الجراح طريقه إلى مكة من أعلاها. .

ويقول الرواة أن سعد بن عباده صاح قائلا:

- اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. .

فلما علم الرسول بذلك أمر أن يتولى ابنه قيس القيادة بدله وقال عليه الصلاة والسلام:

- اليوم يوم المرحمة. . اليوم أعز الله قريشا بالهدى. .

ودخل الموكب الظافر مكة بلا مقاومة، غير أن جيش خالد قد دخل فى معركة مع بعض المتمردين. . من أهل مكة بقيادة صفوان بن أمية، وعكرمة ابن أبى جهل، ولكن خالد حطم مقاومتهم، وقتل البعض منهم، وفر الآخرون. . وقد حزن الرسول لذلك. . فما كان يريد أن تراق أى دماء فى البلد الحرام عندما علم أن هؤلاء الذين تسببوا فى الحرب هم الذين أجبروا خالد على ذلك قال:

-« لقد قضى الله أمراً كان مفعولا. ». .

وركب النبى العظيم ناقته (القصواء). . وقد ظهر بوضوح بيت الله الحرام. . فملأت عينيه الدموع شكرا لله، وأحنى رأسه الشريف تواضعا لله، ودخل البيت العتيق على ناقته، وطاف بالكعبة سبعا، واستلم الحجر بمحجنة فى يده ونزل أعظم الرسل من فوق ناقته، وكبر وكبر معه أصحابه وإذا بأصوات التكبير تصل إلى الناس فى بيوتهم. . وصلى ركعتين فى مقام إبراهيم وشرب من ماء زمزم، وصلى ركعتين داخل الكعبة، وأمر بتحطيم الأصنام، وهو يردد:

-« قل جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطل كان زهوقا »..

وجاء أهل مكة يستمعون إلى هذا النبى الكريم الذى طردوه من بلده.. واستمعوا إليه وهو يقول لهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

سألهم:

- ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟

- أخ كريم وابن أخ كريم.

- اذهبوا فأنتم الطلقاء..

وانطلق الناس إلى النبى يبايعونه، وهم يدخلون فى دين الله أفواجا وعندما فرغ ﷺ من مبايعة من دخل الإسلام بايع النساء ..وكان من بين اللائى بايعن الرسول الكريم هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان..

وقد دخل الإسلام عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية وكعب ابن زهير، ووحشى قاتل حمزة.. وكذلك عاد إلى الإسلام وكان قد ارتد عبد الله بن أبى السرح، وكان النبى قد أهدر دمه عندما ارتد عن الإسلام، وافترى كذبا على الرسول، وكان لكل واحد من هؤلاء قصة لها أبعادها ولها مغزاها وفى كل الأحول تدل على رحمة النبى الكريم التى بلا حدود فعكرمة ابن أبى جهل كان من ألد أعداء الإسلام، وحاول أن يقاتل النبى أثناء دخوله مكة عندما اعترض جيش خالد، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، ولم يجد أمامه وقد دخل النبى مكة إلا أن يهرب منها، بعد أن علم أن النبى قد أهدر دمه، وقد شفعت زوجته (أم حكيم).. له عند النبى ..وكانت مسلمة، ولحقت بزوجها وأخبرته أن النبى قد عفا عنه، فعاد إلى النبى وأعلن إسلامه، وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً فيما بعد..

أما عبد الله بن أبى سرح، فكان عندما أسلم فى مكة من كتاب الوحى، ثم ارتد عن الإسلام، فأهدر النبى دمه، وعندما فتح مكة، لجأ إلى أخيه من الرضاع. عثمان بن عفان، الذى استشفع له عند الرسول، وكان النبى يعرض عن عثمان، وكان بذلك يعطى لأحد من أتباعه الفرصة ليهدر دمه، ولكن لم يفهم غرض النبى، فعفا النبى عنه إكراما لعثمان بن عفان..

وقال النبى لأصحابه بعد انصراف عثمان وعبد الله:

- «أعرضت عنه ليقوم أحدكم إليه فيضرب عنقه ..».

قالوا: هلا أومأت يا رسول الله ؟

قال الرسول العظيم: لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة الأعين.

وقد لعب عبد الله بن أبى السرح هذا دوراً أساسياً بارزاً فى خلافة عثمان ابن عفان، فقد ولاه ولاية مصر بدل عمرو بن العاص.

وأسلم صفوان بن أمية أيضا بعد أن هرب بعد محاولته عرقلة الزحف الإسلامى عند الفتح، وهرب عندما علم أن النبى أباح قتله، وأراد أن يهرب إلى اليمن عن طريق جده وأستشفع له ابن عمه (عمير بن وهب).. وقبل النبى شفاعته.. وعندما طلب عمير من النبى أن يعطيه شيئا يقنع به ابن عمه بعفو النبى عنه، أعطاه النبى عمامته، وعاد صفوان إلى مكة، وقابل النبى واستيقن أنه عفا عنه إلا أنه لم يدخل الإسلام إلا بعد ذلك بشهور وأصبح من المسلمين الصادقى الإيمان..

وأسلم أيضا وحشى قاتل حمزة، ولكن النبى قال له بعد أن بايعه..

- هل تستطيع أن تغيب وجهك عنى ؟

ووحشى هذا هو الذى قتل فيما بعد مسيلمة الكذاب فى أثناء معركة اليمامة..

وكان من الذين دخلوا الإسلام الشاعر كعب بن زهير، الذى كان النبى قد أمر بقتله لهجائه المسلمين، وهرب كعب بن زهير، ولكنه كان يعرف خلق النبى الكريم.. ويعرف قلبه الكبير وما انطوى عليه من رحمة، فذهب إليه فى المدينة حيث أعلن إسلامه وأنشده القصيدة الشهيرة التى مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

وفيها يقول:

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ

قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

ان الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

لقد سمع النبى الكريم قصيدة الشاعر.. وقبل منه إسلامه، وصفح عن إساءته السابقة للمسلمين، وأهداه بردته.. تلك البردة التى كانت مثار إعزاز الشاعر، والتى خلعت عليه الفخار أبد الدهر.

و.. عندما تم فتح مكة، خشى الأنصار، وقد تحقق للنبى هذا النصر العظيم، وعاد إلى مهد طفولته، أن يمكث فى مكة ولا يعود إلى المدينة معهم.. وهو نور المدينة، وأعظم من شرفت بهم من الرجال.. فقال لهم الرسول الكريم:

- معاذ الله ..المحيا محياكم.. والممات مماتكم.

وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

* * *

غزوة حنين

وبدخول مكة تحت سيطرة الإسلام، ازدادت قوة المسلمين زيادة ضخمة، وأصبح واضحا أن انتشار الإسلام بعد ذلك سيكون سهلا هينا، فلم يصادف الإسلام بعد ذلك مجابهة كبيرة. باستثناء غزوة حنين.. وبعد هذه الغزوة ابتدأ العرب يفكرون ويفكرون فى سر هذا الدين.. وفى سر قوته.. وفى سر انتصاراته.. ووجدوا أنه من الصعب أن يقهر هذا الدين بعد ازدياد أنصاره من جهة، وبعد أن أمعنوا التفكير فوجدوه دينا يحض على مكارم الأخلاق، وعلى القيم النبيلة.. وينظم علاقات الناس بعضهم ببعض كأحسن ما يكون التنظيم، بجانب إنه جعل لحياتهم معنى ..فالحياة ليست سوى جسراً للآخرة..

فالحياة ليست هى البداية والنهاية.. وليست هى أن تحيا حياة أيا كانت هذه الحياة ثم تكون النهاية أن يعود التراب إلى التراب ؟.. وأنما هناك الآخرة بما فيها من جنة ونار، بما فيها من نعيم مقيم، أو عذاب أليم..

ومستقبل الإنسان فى أخراه هو ما عملته يداه فى دنياه.. ومن هنا فلا مجال لظلم أو استبداد أو طغيان، أو اعتداء على حقوق الآخرين..

دين يحمل كل هذه المبادئ والقيم ما كان له إلا أن ينتصر مهما كانت أشواك الطريق، ومهما كانت الصعاب..

وبعد أن استقرت الأمور فى مكة لصالح الإسلام، أرسل النبى الكريم السرايا إلى القبائل حول مكة يدعوهم للدخول فى دين الله.. وكان أمر النبى إلى هذه السرايا واضحا.. هو أن تكون الدعوى للإسلام بالحسنى ..دون أن تراق الدماء.. وكان خالد بن الوليد أحد الذين أرسلهم النبى ﷺ بأسفل

تهامة داعيا إلى الدين القيم، وعندما قاوم بنو جذيمة أمرهم خالد أن يضعوا السلاح. . وحاول أحدهم محاربة خالد. . ولكن الناس نزعوا سلاحه، غير أن خالد بن الوليد قتل بعضهم. . وجاءت الأخبار إلى رسول الله، فرفع يديه إلى السماء وقال:

-« اللهم أنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ».

وأمر النبى على بن أبى طالب أن يذهب إلى هذه القبيلة. . ويسترضيهم ويدفع لهم ديات من قتلوا حتى أرضاهم. .

. . ومكث النبى خمسة عشر يوما فى مكة يعلم الناس أمور الدين. . ويهديهم إلى الصراط المستقيم. . بعد أن محا كل أثر للشرك فيها. . فلا أصنام هناك تعبد من دون الله. . ولا حجارة صماء بكماء عمياء يتخذها الناس أربابا من دون الله.

وأعطى النبى عثمان بن طلحة سدانة الكعبة لتكون له ولأبنائه من بعده أبد الدهر. . لا يأخذها منهم إلا ظالم. . أما سقاية البيت من زمزم فقد جعلها لعمه العباس. .

وما كاد المسلمون ينعمون بالأمن والأمان والفتح العظيم، حتى تناهت إلى أسماعهم أن هوازن التى تقيم فى الجنوب الشرقى من مكة قد استعدت لمهاجمة المسلمين. . فقد هالهم انتصار الإسلام الهائل وفتحه مكة دون أن تراق دماء تذكر. . وخشوا أن تدور الدائرة عليهم، فقرروا أن يستعدوا لمهاجمة النبى وصحبه، وقادم مالك بن عوف وكان شابا فى الثلاثين من عمره. . وانضم تحت لوائه هوازن وثقيف أمرهم مالك أن يعتلوا قمم جبال حنين. . ومن فوق القمم يمكنهم ضرب أى هجوم للمسلمين. .

. .وعلم النبى بهذا، فأمر المسلمين أن يتوجهوا صوب أعدائهم دون الانتظار حتى يهاجمونهم فى بيت الله الحرام، وخرج الجيش الإسلامى يضم اثنى عشر ألف مقاتل. .

عدد هائل لم تشاهده شبه الجزيرة العربية من قبل.. وكان هذا الجيش يضم المؤمنين، ويضم بعض الذين أسلموا من أهل مكة عند الفتح.. ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم..

وخرج المسلمون فى السادس من شوال من العام الثامن للهجرة..

ومضى الجيش يحث خطاه لمجابهة هوازن وثقيف.. بعد أن استعمل رسول الله على مكة عتاب بن أسيد أميرا عليها..

..وسار الجيش الكبير، حتى ظن بعضهم أنه من الصعب هزيمتهم لكثرتهم..

وعند المساء كانت طلائع المسلمين قد وصلت إلى حنين، وكان النبى فى مؤخرة الجيش على بغلته البيضاء.. وكان فى مقدمة الجيش خالد بن الوليد، وعندما عبروا مضيق حنين نحو واد من أودية تهامة.. انهالت عليهم النبال والأحجار.. وكان الهجوم بالغ الضراوة، حتى أن القبائل التى كانت تسير فى المقدمة تحمل أعلامها ما لبثت أن رجعت القهقرى هاربة من هول ضرب الأعداء..

ووسط معمعة القتال.. والجيوش تتقهقر هربا من جحيم الحرب ..فإذا بالمؤلفة قلوبهم يرون أنه من الصعب انتصار المسلمين اليوم.. فأبو سفيان وقد رأى ما حدث من ارتباك فى صفوف المسلمين.. اعتقد أن الهزيمة مؤكدة.. فابتسم بسخرية وكأنه قد وجد ثأره فى هزيمة محمد بن عبد الله وقال:

- لا تنتهى هزيمتهم دون البحر !!

وقال كلدة بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم !!

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام ثبت فى مكانه.. وهو يأمر الناس بالجهاد.. غير أن الفوضى كانت قد دبت فى جيش المسلمين..

ويقول العباس بن عبد المطلب عم الرسول: انى لمع رسول الله ﷺ أخذ بحكمة بغلته البيضاء، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس:

- «أيها الناس..؟ فلم أر الناس يلوون على شئ، فقال: يا عباس، أصرخ، يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب الشجرة.. فأجاب الناس: لبيك لبيك».

وكان نداء العباس على الأنصار.. الذين بايعوه تحت الشجرة على الموت باعثا لهم أن يعودوا إلى النبى ويقاتلوا بجانبه.. فطالما حاربوا مع النبى المعارك كلها، وكان نصر الله حليفهم.. فما لهم اليوم يفرون..

لقد عادوا والتفوا حول النبى، ودخلوا المعركة.. وإذا بهم يثبتون ..وإذا بهم يوقفون زحف الأعداء.. ويرى الناس ذلك فيعودون للقتال.. وإذا بالدائرة تدور على أعدائهم.. وإذا بثقيف وهوازن يشعرون بأن الهزيمة واقعة بهم لا محالة، فيفر قائدهم مالك بن عوف مع بعض من أصحابه نحو الطائف والاحتماء بها..

..وهكذا انتصر المسلمون فى حنين.. ورأى الذين مازال فى قلوبهم مرض من أهل قريش، أن ما حدث ما هو إلا معجزة، والانتصار بعد الهزيمة يدل على أن الله سبحانه وتعالى يؤيد محمدا، فأسلم منهم الكثيرون.. وقد صور القرآن الكريم هذه المعركة بأسلوبه المعجز فقال:

﴿قَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وكان عدد الأسرى ستة آلاف، واثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة بجانب النساء اللاتى فرّ عنهم أزواجهم هربا بجلودهم إلى الطائف..

وقد أمر النبى ﷺ أن تساق كل هذه الغنائم إلى وادى (الجعرانة)..
وأن يحافظ عليها بعض المسلمين، ثم توجه إلى الطائف وحاصرها، وكانت الطائف منيعة الأسوار، وكان من الصعب اختراقها وقد حاصرها الرسول قرابة الشهر.. وعاد فوزع الغنائم على المقاتلين، وأجزل العطاء لأهل قريش حتى يؤلف قلوبهم للإسلام، فقد أعطى من الخمس المخصص له الكثير من الذين دخلوا الإسلام حديثا.. فقد دفع مثلا لأبى سفيان مائة من الأبل، وأربعين أوقية، فطلب أبو سفيان لابنه يزيد ومعاوية كل واحد منهما مائة من الأبل وأربعين أوقية فأعطاه الرسول، حتى قال أبو سفيان:

-« إنك كريم فداك أبى وأمى، ولقد حاربتك فنعم المحارب، كنت ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله ».

وشاهد الأنصار ذلك فتهامس بعضهم:

لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه..

ودخل سعد بن عبادة فقال:

- يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت من الفئ الذى أصبت: قسمت فى قومك.. وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شئ !

قال النبى: فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

- يا رسول الله ما أنا إلا من قومى.

- فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة.

وجاء جمع من الأنصار فخطبهم الرسول قائلا:

-« يا معشر الأنصار، مقالة بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها فى أنفسكم، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قوبكم ؟!..

قالوا: بلى، الله ورسوله آمن وأفضل.

ثم قال: ألا تجيبونى يا معشر الأنصار.

- بماذا نجيبك يا رسول الله ولرسوله المن والفضل.

قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم.. أتيتنا مكذبا فصدقناك، ،مخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار..

هنا طفرت الدموع من العيون وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا، وانصرف الرسول وتفرق الناس..

وبينما النبى ينطلق ليتفقد السبايا، فإذا به يرى أخته فى الرضاعة الشيماء.. تلك التى طالما لعبت معه صغيرا، والذى كان يسابقها فى ديار بنى سعد، ويرضعان من ثدى واحد.. فإذا به يرق لها، ويطلق سراحها.. ويعطيها بعض المال، وتنطلق إلى قومها تبشرهم بأن أخاها العظيم لم ينس طفولته فى ديار بنى سعد.. فإذا بهوازن تعلن إسلامها.

وجاء وفد يمثلهم إلى الرسول فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامتن علينا من الله عليك..

وقال واحد منهم: يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، ولو أن ملحنا (أرضعنا) للحارث بن أبى شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين..

فقال لهم النبى: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا: يا رسول الله خيرتنا من أموالنا وأحسابنا. بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا..

فقال لهم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين.. وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك؟ وأسأل لكم.

وفعلوا ما أمرهم به الرسول فقال النبى : وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم.

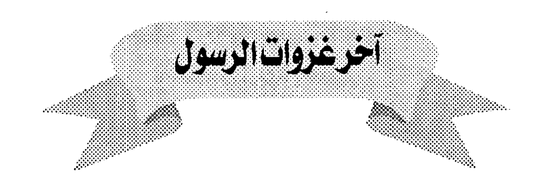
فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ..

وأحرم النبى من (الجعرانة)، ثم ذهب إلى مكة معتمرا، ثم أخذ طريقه إلى المدينة، وكانت هذه العمرة فى ذى القعدة وعاد إلى المدينة فى آخر ذى القعدة أو أوائل ذى الحجة فى قول آخر. واستخدم على المدينة عتاب بن أسيد، وجعل له درهما فى اليوم كما استخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى أمور الدين.. وقد حج الناس فى هذا العام كما كانوا يحجون، وحج بالناس عتاب بن أسيد.

وهكذا غمر نور الإسلام أم القرى وما حولها، وأصبح الإسلام هو القوة العظمى فى شبه الجزيرة العربية.. وبات أن الهيمنة الإسلامية على شبه الجزيرة كلها بات محتما.. فلم تعد هناك قوة فى شبه الجزيرة كلها يمكن أن تقف أمام زحف الإسلام الجارف، فقد تغيرت الصورة كلها.. ولم تعد الأصنام ولا الأزلام تغنى شيئا، لقد سحقت قوة الإسلام ما يعترض طريقها، ولم تنفع هذه الأصنام من يعبدها، واكتسح قوة الإسلام ما يعترض الجاهلية، وبقايا العتمة التى كانت تغشى النفوس والقلوب..

وعندما ينتشر النور يتلاشى الظلام.

* * *



آخر غزوات الرسول

عاد النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن فتح مكة، وحاصر الطائف . .ثم عدل عن الحصار بعد أن رأى صعوبة الاستمرار فى هذا الحصار وفى نفس الوقت أصبح واضحا أن أهل الطائف ليس أمامهم سوى الانضواء تحت راية الإسلام إن عاجلا أو آجلا . .

ولعل الرسول ﷺ قد تذكر ما حدث له قبيل الهجرة فى الطائف، عندما قابله سادة ثقيف مقابلة غير كريمة . . فسخروا منه، وسلطوا عليه السفهاء حتى اضطر إلى الاحتماء وراء حائط بستان . .ولابد أن هؤلاء السادة قد تذكروا هذا الموقف الشائن الذى وقفوه من صاحب الدعوة، وعاشوا حتى رأوا هذا النبى الكريم يحاصرهم فى ديارهم !

أين اليوم من الأمس القريب !

إن الصورة مختلفة، وسوف يضطرون بالفعل بعد أن سقطت مكة تحت أيدى المسلمين، وهى أقوى القوى التى كانت تحارب النبى بكل ما تملك من قوة ومكيدة، بعد أن أحكموا قبضتهم على الأمور، وأصبح من الضرورى على القبائل أن تنطوى تحت راية الإسلام، أو تتوارى بعيدا عن المواجهة، وفى كلتا الحالتين، لم يعد أمام القبائل فى شبه الجزيرة العربية كلها، سواء رضيت أم لم ترض إلا أن تخضع لهذه القوة الغالبة التى تسندها قوة السماء.

وفى المدينة كان النبى الكريم مشغولا بالعبادة، ومشغولا بتبصير الناس بأمور دينهم، وفى نفس الوقت لم تغفل عينه عما يحيطه من خارج الحدود من أخطار، فقد تنبه الروم إلى خطر هذه القوة الإسلامية الصاعدة. . وأخذوا يتحينون الفرص للقضاء عليها. .

وقد حدث فى هذه الفترة ما كان متوقعا . . فقد وفدت بعض الوفود إلى المدينة تعلن إسلامها، كثقيف، وفى نفس الوقت علم النبى ببعض التحركات الرومانية فى محاولة لتهديد الإسلام والمسلمين . . وكعادة النبى تأهب للأمر . . وأعد له عدته وقرر أن يجابه الروم ولا ينتظر حتى يداهموا المسلمين فى المدينة . . ولأول مرة يعلن الرسول لأصحابه أنه سوف يتحرك لمجابهة بنى الأصفر . . وعرب الشمال الخاضعين لسيطرة الروم . . فلم يكن النبى فى غزوة من غزواته السابقة يعلن الأمر، بل انه يتكتمه حتى يجابه العدو ويفاجئه، ولكنه هذه المرة لم يتكتم الأمر، وأعلن صراحة انه يستعد لمحاربة الروم . . فالناس كانوا يخشون بأسهم . . وكانوا يسمعون كثيرا عن هذه الامبراطورية البالغة السطوة والقوة، والتى تملك من العتاد والسلاح والجنود ما يفوق الخيال . . ولعل الرسول بذلك أراد أن يجعل الناس أمام مسئولياتهم فيستعدون للشهادة، ويعدون للأمر عدته . .

وكان يسود البلاد حرارة عالية . . والجهاد فى مثل هذا المناخ صعب وشاق، وليس سهلا ولا هينا . . وهنا اختيار حقيقى لمعادن الناس . . الذين يحاربون للشهادة، والذين يحاربون من أجل الغنائم، ويكتشف المتخاذلين من المنافقين . .

فقد انضوى تحت راية الإسلام بعض الناس ولما يدخل الإيمان بعد فى قلوبهم . . والجيش الذى سيزحف نحو الشمال جيش ضخم لم تشاهده شبه الجزيرة من قبل . . إنه جيش يضم ثلاثين ألف مقاتل . . ومثل هذا الجيش الكبير يحتاج إلى أموال طائلة، وعتاد ضخم . . ومن هنا أيضا تظهر معادن الناس فى السخاء . .

وأثناء الاستعداد للقتال، والزحف . . بدأت تظهر الصورة الحقيقية للناس كما قلنا، كما ظهر المنافقون على حقيقتهم، وحاولوا أن يبثوا فى نفوس الناس روح الهزيمة . .

ووسط هذه الظروف الصعبة تظهر عظمة القيادة السياسية والعسكرية عند رسول الله.. فالأمر لا يحتمل هؤلاء المتآمرين.. فقد اجتمع بعض المنافقين فى بيت سويلم اليهودى وهدفهم تثبيط همم الناس، وتحريضهم على عدم الجهاد.. فأرسل إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبد الله على رأس عدد من أصحابه، وأمره أن يحرق هذا البيت على من فيه، مما اضطرهم إلى الفرار، وكسرت رجل أحدهم وهو الضحاك بن خليفة.

وقال النبى للجد بن قيس، من بنى سلمة:

- هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟

- يا رسول الله، أوتأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى، وأنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر.

فأعرض عنه الرسول وقال: قد أذنت لك.

وقد تبرع المسلمون بالأموال لتجهيز الحملة، وتبرع عثمان بن عفان بمبلغ كبير من المال يكفى نفقات ثلث الجيش، حتى أن النبى دعا له قائلا:

- اللهم أرض عن عثمان فإنى راضٍ عنه..

وتخلف فى هذه الحملة المعذرون من الأعراب، فاعتذروا للنبى ولكن الله لم يعذرهم..

واستعمل النبى على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، وخلف النبى علياً بن أبى طالب فى أهله.. غير أن عليا غضب عندما تناهى إلى سمعه ما يقوله المنافقون عنه، من أن النبى رفض صحبته تخففا منه، مما حدا بعلى أن يأخذ سلاحه، ويحث الخطى ليدرك الجيش الذى كان مازال فى (الجرف).

وقال للنبى: يا نبى الله زعم المنافقون إنك إنما خلفتنى إنك استثقلتنى وتخففت منى ؟

قال له النبى: كذبوا لكننى خلفتك لما تركت ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ألا أنه لا نبى بعدى..

فرجع على إلى المدينة..

وبدأ الجيش زحفه بقيادة الرسول الكريم فى التاسع من رجب فى السنة التاسعة الهجرية.. وكان المناخ بالغ القسوة.. والصحراء يشوى حرها الجلود. وشعر الناس بقسوة المسيرة، وخاصة عندما نفد الماء، حتى أن الصديق طلب من النبى أن يدعو الله حتى تتساقط الأمطار، ورفع النبى الكريم يده بالدعاء إلى الله، فإذا بالسماء تمتلئ بالسحب، وتهطل الأمطار.. واستبشر المؤمنون خيرا بهذه المعجزة.. بينما رأى بعض المنافقين أن هذه السحب التى هطلت بالأمطار كانت محض مصادفة !

وإذا كان من بين صفوف جيش المسلمين من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه بعد ..أو على حد تعبير القرآن الكريم:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [**الحجرات**: ١٤].

نقول إذا كان من بين صفوف المسلمين بعض ضعاف الإيمان، فقد كان من بينهم شديدو الإيمان بالله ورسوله..

فها هو مثلا أبو خيثمة يحكى لنا الرواة قصته.. عندما أخذ يفكر فى موقفه من الجيش الإسلامى الذى تحرك بقيادة إمام المرسلين صوب الشام.. ووجد نفسه ينعم فى ظل حياة هادئة ناعمة.. وزوجتيه يعدان له أطايب الطعام.. تذكر فى موقفه هذا نبيه الكريم، وهو يترك كل ذلك متجشما عناء السفر وسط قيظ الصحراء، ابتغاة مرضاة الله.. واستسخف موقفه فإذا به يتهيأ للحاق بالنبى وقال لزوجتيه:

- رسول الله ﷺ فى الضح (الشمس) والريح والحر، وأبو حيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، فى ماله مقيم.. ما هذا بالنصف.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لى زاداً..

وحمل سلاحه، وركب راحلته متجها نحو ركب الرسول ، وقد أدركه عمير بن وهب الجمحى، متجها هو الآخر إلى ساحة الجهاد..

وقد حدث أثناء مسيرة النبى بجيشه أن ضلت ناقة النبى، وخرج أصحابه يبحثون عنها.. فإذا بأحد المنافقين ويدعى زيد بن اللصيت يقول:

- أليس محمد يزعم أنه نبى، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته !

فإذا بالرسول يقول لأصحابه:

- إن رجلاً منكم يقول: إن محمدا هذا يخبركم أنه نبى، وهو يزعم أنه يحدثكم بخبر السماء، ولا يدرى أين ناقته !

والله أنى ما أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها، وهى فى الوادى من شعب كذا، وقد حبستها شجرة فانطلقوا حتى تأتوا بها .

وذهب بعضهم وأحضرها..

وكان هذا المنافق فى رحل عمارة بن حزم، فطرد، من رحله..

وفى الطريق كان الناس يتحدثون عن موقف الناس من هذه الغزوة، وعن الذين تخاذلوا وفضلوا ألا يخرجوا فى حر الصحراء اللافح.. وعن الذين دفعهم الإيمان إلى الخروج مع رسول الله.

وكانوا عندما يسألون الرسول عن فلان الذى تخلف يقول لهم:

- دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

وكان من الذين تلفت الناس حولهم فلم يجدوه، الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى.. وأثناء السير كان يبدو على البعد شبح لإنسان يجد فى سيره ليلحق بالمسلمين ونظر الرسول نحوه وقال:

- كن أبا ذر .

ثم قال:

- يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده !

وسار ركب رسول الله، وأثناء سيرهم مروا بأطلال ثمود عند الحجر .. وكان بها بئر.. استسقى الناس منها، فقال لهم الرسول:

- لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلقوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له.

ولكن رجلين لم يستمعا إلى قول الرسول الكريم، فغمرت أحدهما الرياح، أما الآخر فقد دفعته الريح إلى مكان بعيد، وضل طريقه، حتى هدته طى إلى الطريق فعاد إلى المدينة..

وعند قرية (تبوك) عسكر جيش المسلمين.. وظل النبى هناك عشرين ليلة، لم يظهر جندى رومانى واحد، فقد آثر الرومان الانسحاب، وعدم مواجهة النبى ﷺ، فقد خشوا الهزيمة، وأيقنوا أن الهزيمة سوف يكون لها تأثير هائل على مستقبل الامبراطورية الرومانية كلها. !

أرسل النبى بعض السرايا لبعض عرب الشمال من النصارى التابعين للروم، يأمرهم إما بالدخول فى الإسلام أو دفع الجزية، وقد أذعن لذلك يوحنا (صاحب أيله) وقبل أن يدفع الجزية سنويا للمسلمين.. وكتب له النبى كتابا يؤمنه وقومه..

ومما جاء فى كتاب النبى إليه:

- بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم فى ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر..

ودخلت فى هذا العهد بعض القرى القريبة من تبوك كجرباء وأذرح.

وكان (أكيدر بن عبد الملك) ملكا على دومة الجندل، وكان نصرانيا فأرسل إليه النبى جيشا من خمسمائة مقاتل بقيادة خالد بن الوليد، ثم قرر النبى ﷺ العودة إلى المدينة، وتقدم خالد بن الوليد نحو دومة الجندل، واستطاع هزيمة (أكيدر) وأخذه أسيرا، وقتل أخاه حسان لأنه قاوم المسلمين، وأخذ المسلمون منهم غنائم كثيرة (ألف بعير وثمانمائة شاه، وأربعمائة درع، وبعض الذهب).

وقدم خالد على النبى بكل هذا، وسر المسلمون لهذا الانتصار وتلك الغنائم، أما (أكيدر) فهناك رواية تقول أنه قرر دفع الجزية، وقبل النبى ذلك، وفى رواية أخرى أن النبى عرض عليه الإسلام فأسلم.

وعندما رأى المتخلفون غنائم خالد، حزنوا ولم يعد ينطلى على أحد ادعاءاتهم بأن هذه الغزوة وسط هجير الصحراء ليس لها ما يبررها.. فلا هناك فتح، ولا هناك معارك مع الروم.. ولا هناك بالتالى ما يستحق عناء هذه الرحلة القاسية التى استغرقت فى الذهاب والعودة، والتأهب للقتال قرابة شهرين.. ولكن ها هو خالد بن الوليد، وقد حقق هذا الانتصار دون أن تراق أى دماء من صفوف المسلمين.. كل هذا هز هؤلاء المتخلفين من الأعداء.. غير أن ثلاثة منهم قد اعترفوا فى قرارة نفوسهم بأنهم أخطأوا

عندما تخلفوا مع المتخلفين، واعتذروا للرسول وهم كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلاك بن أمية.. وهؤلاء الثلاثة قد أمر الرسول أصحابه ألا يكلموهم ولا يتاجروا معهم.. فإذا بهم يحسبون أن الارض ضاقت عليهم بما رحبت، وهزتهم الأحزان من الأعماق، فقد شعروا أنهم منبوذون من جماعة المسلمين، فعز عليهم ذلك وانتابتهم الأحزان، إلى أن شملتهم رحمة الله، فأنزل فيهم قرآنا بالعفو عنهم.. فإذا بهم تعاودهم الفرحة برضاء الله عليهم، وقبول توبتهم، وعودة جسور التواصل بينهم وبين النبى وإخوانهم فى الإسلام..

وكانت الآيات التى بشرتهم برحمة الله قوله تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

وعندما اقترب النبى من المدينة، أمر النبى بعض أصحابه بهدم مسجد (الضرار) الذى بناه جماعة من المنافقين بقرب مسجد قباء أول مسجد بناه النبى ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة، وقد ادعى الجماعة التى بنيت مسجد (الضرار) أنهم بنوه لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة، والليلة الشاتية.

وكانت هذه الجماعة التى بنت مسجد (الضرار) قد جاءوا إلى النبى قبل أن يتحرك نحو (تبوك) ليصلى معهم فى هذا المسجد ووعدهم أن يفعل ذلك عند العودة من (تبوك).. وقد أخبره الله أن هؤلاء الناس من المنافقين، وأنهم يجتمعون فى المسجد، وغرضهم تحريف كلام الله عن موضعه لفتنة المسلمين.. ونزل قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

وبهدم مسجد الضرار، انهارت قوى المنافقين، وخاصة بعد أن مات زعيمهم ابن أبى بعد غزوة تبوك بشهرين.

وإذا كانت غزوة تبوك هى آخر غزوات النبى ﷺ فقد كانت هذه الغزوة دليلا على أن الإسلام قد ثبت أركانه فى شبه الجزيرة العربية ولم تعد هناك قوة يمكن أن تقف فى سبيل انتشاره.. وأصبحت دولة الإسلام لها مهابة فى كل القلوب.. قوة هائلة أصبح يخشى بأسها أباطرة الفرس، وقياصرة الروم، وأما بقية القبائل العربية، فإنها سوف تدخل فيه بالقناعة والاقتناع، أو تنضوى تحت لوائه لأن مستقبلها وأمنها وأمانها فى ارتباطها بالدين الجديد الذى أخذ يغزو القلوب والعقول .. وهذا ما حدث بالفعل.. فقد بدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا..كان النبى يحارب مشركى مكة فى بدر، فى عدد من المسلمين لا يزيدون إلا قليلا عن الثلاثمائة من المسلمين، ودخل مكة فى عشرة آلاف مقاتل، وحارب فى حنين ومعه اثنا عشر ألف مقاتل.. وبدأت القبائل المختلفة تتوافد على مدينة الرسول وتعلن إسلامها وولاءها وإخلاصها للنبى الخاتم.

وها هو النبى الكريم بشفافية روحه العظيمة يعرف أن نور الإسلام ينتشر بسرعة انتشار النور فيحول قلوبا كانت أقسى من الحجارة أو أشد قسوة، إلى قلوب عامرة بالإسلام ونور الإسلام، وما فيه من مودة ورحمة.

كان النبى قرير العين بما أفاء الله عليه من تحمل عبء الرسالة، وانتشار الدين الخاتم، وكان يسعد قلبه رؤياه لابنه إبراهيم من مارية القبطية، وقد أصبح فى سن الثمانية عشر شهرا وهو يملأ حياة أبيه فى شيخوخته بهجة وهناء.. ولكن إبراهيم لم يلبث أن مرض، ويحمله الوالد العظيم على حجره وهو يجود بأنفاسه ويقول له :

-« إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا »..

وتنطفئ شعلة الحياة، وتنطلق روح إبراهيم إلى بارئها..

فإذا بالدموع تملأ عين الوالد الرحيم وهو يقول:

- يا إبراهيم لولا أنه أمر حق، ووعد صادق، وأن أخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا !

يا لعظمة الأبوة مجسدة فى شخص محمد بن عبد الله..!

ولقد تعجب الناس من حب محمد العظيم إلى والده الذى سيغيبه التراب، وارتسمت علامات الدهشة على وجوههم، فإذا به فى غمرة أحزانه يشعر بما يعتمل فى نفوسهم فيقول:

- «ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة».

وشيعه النبى مع بعض أصحابه، وعمه العباس، ودفن فى البقيع، وقد وضع النبى علامة على قبره وقال:

-« إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تعز عن الحى، وأن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه ».

وقد حدث كسوف الشمس، عند موت إبراهيم، وظن البعض أن الشمس كسفت مشاركة للنبى فى أحزانه، ولكن النبى وهو فى قمة حزنه، ولأنه نبى مرسل لا ينطق عن الهوى، حاول أن يدفن هذه الشائعات فى مهدها، تلك الشائعات التى دارت بين الناس عن معجزة خسوف الشمس فإذا بالنبى الصادق يقول للناس:

- «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد أو لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

* * *

- ١٨ -

عام الوفود

أصبح واضحا بعد أن أرسل النبى ﷺ جيشه إلى مؤتة بقيادة زيد بن حارثة ليظهر للغساسنة الذين كانوا يخضعون للحكم الرومانى والذين كانوا يعتمدون على سادتهم الرومان.. أن الإسلام من القوة بحيث لا يخشى سطوة الرومان، وأن على الغساسنة أن يعرفوا هذه الحقيقة وأنهم ليسوا بمنأى عن الانتقام.. فلم يقبل النبى هذه الجفوة التى قابل بها الغساسنة رسوله إليهم، فقد ألقى الحارث بن أبى شمر الغسانى كتاب النبى فى وجه حامله من قبل الرسول وهو شجاع بن وهب الأسدى.. وبلغت به الحماقة أنه هدد بأنه سوف يزحف بجيشه لمحاربة النبى.. كما قتل رسول النبى (الحارث بن عمير) الذى كان يحمل رسالة إلى حاكم بصرى من النبى ﷺ فإذا بشرحبيل بن عمر الغسانى، أن قتله..

وكان الغساسنة يتصورون أن قوة الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تقهر، وأن النبى لا يجرؤ على مجابهتهم، وهم يملكون من القوة والعتاد بجانب الدعم الرومانى الشئ الكثير، لكنهم فوجئوا بجيش المسلمين الذى كان يقوده زيد بن حارثة، وفوجئوا بأن هذا الجيش القليل العدد يحارب بضراوة منقطعة النظير، وقد استشهد زيد بن حارثة، وجعفر بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبى رواحة، إلى أن استطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش، ويعود إلى المدينة بأقل الخسائر.

وإذا كان الغساسنة والرومان قد فطنوا إلى خطورة الدولة الإسلامية الناشئة وقوة عزيمتها، فإن النبى ﷺ لم يكن يرى فى معركة (مؤتة) هزيمة عسكرية، وكان يرد على من يعلق على خالد بن الوليد وجيشه بالفرار بأنهم

الكرار بمشيئة الله.. وإذا بعبقرية النبى العسكرية والسياسية تبلغ القمة، وهو يقود جيشاً مكوناً من ثلاثين ألف مقاتل، فى ظروف فى غاية القسوة، ليرد على شهداء مؤتة، وهو يتجه نحو (تبوك).. ويعطى للمسلمين درسا فى قوة الإرادة، وعدم الخوف من مجابهة القوة الرومانية، بل أن الله جل علاه، قد أراه أن هذه البلاد الرومانية والفارسية سوف تقع تحت سيطرة المسلمين.. وقد قال للمسلمين ذلك أثناء حصار الأحزاب له فى المدينة !

وقد زحف النبى بجيشه لرفع الروح المعنوية لجنود المسلمين وإشعارهم بأنه بإمكانهم هزيمة الرومان وحلفائهم من عرب الشمال.. ولكن الرومان الذين كانوا قد احتشدوا فى شمال شبه الجزيرة العربية آثروا التقهقر داخل الشام، وعدم مواجهة النبى.. وهكذا ارتفعت معنويات المسلمين، وتيقنوا انه يمكنهم قتالهم والانتصار عليهم ..وهكذا لم يعد هناك من يخاف الرومان.. وهذا ما نراه فى خلافة الصديق والفاروق، يوم تحرك جيش المسلمين كالإعصار ليحطم أعظم إمبراطوريتين عرفهما التاريخ.. وهما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية.

والغريب أن بعض مؤرخى الغرب يحاولون وهم يلقون الأضواء على هذه الغزوة التاريخية أن يظهر أن دولة الفرس ودولة الروم وقد أصابهما الضعف نتيجة حروبهما الطويلة فيما بينهما ! بهذا يحاولون تبرير هزيمتهما الساحقة تحت ضربات جيش المسلمين.. وهذا تبرير سخيف، لأن كلتا الامبراطوريتين كانتا فى قمة القوة.. وكانت فارس تخضع لها العراق، وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية يخضع لها الشام، والشمال الإفريقى كله حتى المحيط الأطلنطى !

ويبلغ السخف ببعض المؤرخين الغربيين أيضا القمة عندما يقولون أن العرب قد خرجوا من جزيرتهم ليواجهوا العالم الخارجى.. يواجهون الفرس، ويواجهون أوربا لأول مرة فى التاريخ متمثلة فى الدولة البيزنطية ..

وأن هذه المواجهة كانت بدافع اقتصادى لأن شبه الجزيرة صحراء جرداء فلما شعروا بقوتهم أرادوا أن يضموا تلك الممالك المتاخمة لحدودهم.. وهذا وهم فلن تكن هناك مجاعة فى شبه الجزيرة اضطرت العرب للخروج بحثا عن لقمة العيش متخفين وراء الدافع الدينى ولكنهم خرجوا وهدفهم الأول هو الجهاد لإعلاء كلمة الله، ودين الله ..ونشر الحضارة الإسلامية، لأن رسالة الإسلام قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، وهو يقول لنبيه أنه مبعوث البشر جميعا:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

وأيضا قوله:

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

.. ونحن لا يهمنا أقوال المؤرخين المغرضين الذين يبحثون عن ثغرات للطعن فى الإسلام ونبى الإسلام..

فالإسلام بعد تبوك.. أصبح قوة يعمل لها ألف حساب.. وعاد النبى الكريم بعدها إلى المدينة، التى أحاطها جلال النبوة.. وأنوار الرسالة.. فكان النبى الكريم يجلس فى مسجده والناس يستمعون إليه وهو يبصرهم بأمور دينهم.. ويوضح لهم ما خفى عليهم من أحكام الدين.. وأخذ الإسلام ينتشر بين القبائل بسرعة مذهلة.. فإذا بهذه القبائل تتوافد على الرسول فى المدينة تعلن إسلامها وولاءها.. وتدخل فى دين الله..

الأيام تتوالى.. والناس أكثر سعادة بما أفاء الله عليهم من نور الإسلام.. وبينهم إمام المرسلين.. بما يملك من شخصية بالغة القوة والجلال والمهابة..

إذا تحدث فإن كلماته هى جوامع الكلم..

وإذا صمت فهو البهاء..

وإذا سلك سلوكا فهو الطهر والنقاء..

الرحمة تملأ قلبه..

والعدل سلوكه..

والإنصاف جزء من تكوينه..

والزهد شيمته..

والتواضع صفة من صفاته..

وكيف لا يكون كذلك وخلقه القرآن..

أن المدينة تزدهر بوجود الرسول ..والنور ينبعث منها يبشر بكل الفضائل.. قبائل كانت فى ضلال وجهالة.. بعضها يسجد لأصنام صماء بكماء عمياء.. وبعضها الآخر يؤمن بوجود الله، ولكنهم يتخذون الأصنام وسيلة للتقرب إلى الله! والبعض الآخر يؤمن بأن الحياة الدنيا هى الحياة التى عرفوها ولكنهم لا يؤمنون بما وراء الحياة من بعث ونشور، وبعضهم الآخر عبد الكواكب والنجوم، ومنهم من عبد الجن والشياطين..

مزيج من الخرافات والأساطير كانت تلعب بعقول الناس وأفئدتهم فضلوا وأضلوا.. فما عرفوا لحياتهم هدف.. ولا عرفوا لحياتهم غاية.. فإذا بهم بفضل الدين الجديد تتفتح عقولهم على حياة جديدة مليئة بالنور والهدى والرشاد.. وقد آن لهم وهم يشاهدون الزحف الإسلامى المقدس.. أن يعرفوا الحقيقة..

ولا حقيقة مطلقة سوى الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شئ من عدم.. وهو المتفرد بكل شئ.. وهو الواحد الأحد الذى لا يشبهه شئ فى الأرض ولا فى السماء.. وإن كل موجود من خلقه.. وإن كل شئ مردود إليه.. وإن مصائر البشر بيده.. وهو لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.. بيده الخير وهو على كل شئ قدير..

والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر هو مقومات الدين الجديد الذى يحض على الفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

وبإيجاز شديد جدا.. فقد جعل الدين الجديد للحياة معنى.. لأن الإنسان لا ينتهى بالموت.. والحياة ليست فوضى لا تحكمها قوانين.. ولكن الشرع ..هو قانون الإسلام الذى بمقتضاه يمكن للإنسان أن يتعايش مع مجتمعه.. ويعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات.. تجاه نفسه.. وتجاه أسرته.. كما يعرف ما عليه من واجبات تجاه خالقه.. حتى تسود الرحمة والعدل بين الناس، وتختفى من حياتهم الفحشاء والمنكر، ويستظل الجميع بنور الإسلام، وعدالة السماء.. مجتمع عظيم تفوح منه أريج حقوق الإنسان مما جعل مدينة الرسول واحة للعدل والتسامح والإخاء وكل القيم النبيلة، وسط مجتمعات عاشت تحت وهم أساطير الآباء والأجداد.. فما عرفت لنفسها هدفا أو طريقا، سوى أن يقضوا حياتهم، ثم تنهال عليهم رمال النسيان..

أصبح للمدينة قوة جذب هائلة تتجه إليها قلوب لتقتبس من الهدى النبوى ما ينفعها فى مشوار الحياة.. وتتوجه إليها العقول لتعرف الفرق بين الهدى والضلال.. بين النور والظلام.. بين العدل والظلم.. بين الرحمة والقسوة.. بين مجتمع يسوده قانون الإسلام.. ومجتمع تسوده شريعة الغاب.

إن القبائل كلها تهفو قلوبها لرؤية صاحب الرسالة الذى استطاع بقوة إيمانه.. ورغم الاضطهاد والتعذيب والتنكيل، أن يؤلف القلوب، ويوحد الصفوف.. ويدخل المعارك تلو المعارك.. حتى يحقق هذه الانتصارات الهائلة ويكوّن دولة أساسها دين الله.. بما جاءت به من تشريع سماوى يضمن للفرد والجماعة سعادة الدارين.. فإذا بالقبائل التى كانت تحقد عليه وهى رهينة معتقداتها الفاسدة، تهفو نفسها إلى الانضواء تحت رايته.. وأن

يكون لزعمائها شرف الوقوف بين يديه.. وإذا بمسجد رسول الله يشاهد أفواجا من هذه القبائل التى جاءت لتعلن إسلامها، وتعطى عهودها ومواثيقها، أن تعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.

فها هى ثقيف، تتذكر موقفها من رسول الله يوم أراد أن يدخلها الإسلام، فقابلته عليه الصلاة والسلام بما لا يليق.. وها هى ترى انتصاراته العسكرية، وحصاره لها.. وتراه حطم أصنام مكة، وعاد لبيت الله حرمته، فإذا بها تفكر فى موقفها.. وفى اللات التى تعبدها وتقدسها.. واللات كانت صخرة يقدسونها، ويقول بعض الرواة انها كانت شجرة كبيرة !! وسواء أكانت اللات صخرة أو شجرة.. فهو أمر عجيب لا يستسيغه منطق ولا تفكير ..فقد حطم الرسول آلهة مكة، ولم يحدث له منها مكروه.. فلا دافعت هذه الآلهة المزعومة عن نفسها، ولا انتقمت لسخرية الإسلام منها.. مع ذلك فإن أهل ثقيف ابتدأوا يشكون فى قيمة اللات، وإن كان طول عبادتهم لها هم وأجدادهم مازال لها فى قلوبهم هذا الحب المتولد عن العادة التى ورثوها.

وكان أول من أسلم من ثقيف عروة بن مسعود الثقفى. فقد لحق بالنبى بعد فك حصاره عن الطائف، وأعلن إسلامه، وطلب من النبى أن يسمح له أن يعود إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وقد حذره النبى بأنهم سوف يقتلونه.. ولما دعا قومه للإسلام قتلوه!

ولكن أهل ثقيف سرعان ما وجدوا أنهم يتصرفون بحماقة، وأن عليهم أن يكوّنوا وفدا على رأسه عبد ياليل ! نفس الرجل الذى عرض عليه النبى الإسلام فى الطائف فاستكبر، وأخذته العزة بالإثم، وأغرى بالنبى السفهاء حتى أدموا قدمه الشريفة.. عبد ياليل هذا هو الذى قرر أهل ثقيف أن يتزعم وفدهم إلى الرسول ليدخلوا الإسلام !

والغريب إن هذا الوفد عندما وفد على النبى ﷺ ليعلنوا إسلامهم، حاولوا أن يشترطوا على الرسول شروطا منافية لروح الإسلام.. فقد عز عليهم هدم اللات وطلبوا من النبى أن يبقيها لهم ثلاث سنوات!.. ولا يؤدون الصلاة فأبى الرسول بالطبع وقال لهم:

- لا إسلام والوثنية قائمة، فلا يجتمع الإيمان والشرك فى قلب إنسان.

وأمر النبى المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان بن حرب بهدم اللات.. كما أمرهم أن يقيموا الصلاة لأنها ركن من أركان الإسلام وقال لهم:

- لا خير فى دين لا صلاة فيه.

وأسلم الوفد، وعاد إلى ثقيف، وقد أخفوا إسلامهم أول الأمر، وأخذوا يتحدثون إلى أهليهم عن شروط النبى بهدم اللات، وإقامة الصلاة، وإلا فالحرب.. فإذا بأهل ثقيف يؤثرون السلامة، ويعلنون إسلامهم وأخذ عثمان ابن العاص الذى قد أمره الرسول عليهم يعلمهم أمور دينهم.. وهكذا انضمت الطائف إلى الإسلام مع مكة والمدينة وأصبح هذا المثلث القاعدة الهائلة للانطلاق الإسلامى فيما بعد..

وكم كان النبى عظيما حليما صبورا.. متحملا سخافات الناس من جفاة العرب.. وقد ألان حلمه وكرمه وسعة صدره قلوبهم، فإذا بالإسلام يدخل إلى قلوبهم..

قد جاءه وفد من بنى تميم، وجاء معهم شعراؤهم وخطباؤهم، وكان النبى فى بيته فإذا بصياح بعضهم يعلو وهم يطلبون من النبى أن يأتى إليهم، ويستمع إلى شعرائهم.. ويريدون أيضا أن يناقشهم ويبارزهم فى الشعر شعراء وخطباء المسلمين !

وخرج النبى إليهم وكان ظهرا، فأذن بلال، وتقدم النبى يصلى بالناس صلاة الظهر.. وصلى خلفه الناس، ووفد تميم ينتظر على أحر من الجمر أن ينتهى النبى من صلاته، ليسمع شعراءهم وخطباءهم !

وانتهت الصلاة والتفوا حول الرسول.. وأخذوا ينشدون أشعارا، يمتدحون بها أنفسهم.. وقد رد عليهم حسان بن ثابت شاعر الرسول، بشعره الرزين، فإذا بأحدهم وهو الأقرع بن جابس يقول:

- إن هذا الرجل (الرسول) لموفق، فخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا!

والخطيب الذى أشاد به الأقرع بن جابس هو ثابت بن قيس الأنصارى، الذى رد على خطيبهم (عطارد بن حاجب) والذى كانت خطبته تفاخر بقومه..

وأسلم وفد بنى تميم.. ونزل قوله تعالى يبين للناس أدب الحديث مع رسول الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**الحجرات**: ٢ - ٥].

وأخذت الوفود تتوافد على مدينة الرسول تعلن ولاءها وإسلامها. غير أن هناك حادثة يرويها حول وفد بنى عامر، الذى كان فيهم عامر بن الطفيل، وكان عامر هذا يريد أن يغدر برسول الله هو وصاحب له اسمه أربر واتفق معه صاحبه هذا على خطة الغدر، وقال لقومه مستعليا عندما طلبوا منه أن يدخل الإسلام:

- والله كنت آليت ألا انتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!

وقال لأربد:

- إذا قدمنا على الرجل (يقصد النبى) فأنا سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف!

وعندما قدموا إلى الرسول طلب عامر من النبى أن ينفرد به بحجة أنه يريد أن يتحدث معه، ولكن النبى طلب منه أن يعلن إسلامه أولا، فرفض عامر وقال للرسول متوعدا:

- أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا.

وعندما مضى قال النبى:

- اللهم أكفنى عامر بن الطفيل.

وخرج عامر غاضبا مع صديقه الذى لم يحقق ما اتفقا عليه من غدر بالنبى.. فقال له أربد:

- والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل، ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وفى طريق العودة بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه، وقتل فى بيت امرأة من بنى سلول..

أما أربد فقد نزلت عليه صاعقة من السماء فاحترق مع جمله.

ومن المواقف التى يرويها الرواة أيضا حول هؤلاء الوفود، ما رووه عن وفد بنى سعد بن بكر إلى رسول الله الذى كان يمثله رجل اسمه خمام بن ثعلبة.. فقد تقدم هذا الرجل إلى مسجد الرسول، ونزل عن ظهر بعيره، ثم متجها إلى النبى عليه الصلاة والسلام حيث كان يجلس فى مسجده يستقبل الوفود القادمة من كل مكان.. وتقدم الرجل إلى النبى وهو بين أصحابه وقال:

- أيكم ابن عبد المطلب؟

ورد عليه الرسول الكريم:

- أنا ابن عبدالمطلب.

ودار بينهما هذا الحوار:

- يا ابن عبد المطلب انى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة، فلا تجدن فى نفسك.

- لا أجد فى نفسى فسل ما بدا لك.

- أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك أالله بعثك إلينا رسولا؟

- اللهم نعم.

- فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من كان بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه؟

- اللهم نعم.

- فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، أالله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس؟

- اللهم نعم.

وأخذ الرجل يسأل النبى عن فرائض الإسلام وشرائع الإسلام والنبى يجيب على أسئلته.. حتى إذا ما انتهى من هذه الأسئلة أعلن إسلامه، وقال للنبى:

- سأؤدى هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

وانصرف، حيث ركب بعيره متجها إلى قبيلته، وقال النبى كلمته الشهيرة:

- أفلح إن صدق.

وفى رواية أخرى: إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة.

وعاد الرجل إلى قومه الذين اجتمعوا حوله يريدون معرفة ما تم بينه وبين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فقال لهم:

- بئست اللات والعزى.

قالوا له:

- مه يا خمام: اتق البرص، اتق الجذام.. اتق الجنون.

قال لهم:

- ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولا، وأنزل كتابا استنفذكم به مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه.

وقد أسلم كل رجال ونساء قبيلته.

وأخذت الوفود تتوافد بكثرة من كل الأرجاء إلى مسجد الرسول.. حتى من الأماكن النائية من شبه الجزيرة، فحضرت وفود من اليمن، وحضرموت والبحرين وعمان.. تعلن إسلامها وولاءها.. ومن طرائف ما يرويه الرواة انه كان من بين هذه الوفود وائل بن حجر الحضرمى، وكان أميرا لحضرموت واليمن وقد استقبله النبى بكرمه المعهود، وأمر معاوية بن أبى سفيان أن يقوم بدور المضيف لوائل، حيث ينزل فى دار له فى واحة ويقوم على ضيافته، وكان الجو حارا، وركب وائل راحلته بعد أن رفض طلباً لمعاوية أن يركب ردفا له على الراحلة وطلب منه معاوية أن يعطيه نعله ليقيه شر الحر، فرفض الرجل أيضا وقال لمعاوية:

- ماذا يقول الناس عنى إذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلى!!

ولما بلغ ذلك النبى أنكر هذا التصرف باعتباره من مخلفات الجاهلية!

هل كان يدرى أن هذا الشاب الذى يسير خلفه حافى القدمين تنفيذا لتعليمات النبى الكريم له بإكرام هذا الضيف القادم من أطراف شبه الجزيرة سيصبح بفضل هذا الدين، واحدا من أكبر القادة وسوف يصبح حاكما على امبراطورية بالغة الاتساع والازدهار تدين بدين هذا النبى الخاتم الذى جاء للناس هاديا ومنذرا وبشيرا!

وفى هذا العام أمر النبى أبا بكر الصديق أن يحج بالمسلمين وخرج الصديق فى ثلاثمائة من المسلمين قاصدين مكة.. وعندما أخذ الصديق طريقه إلى مكة نزلت سورة (براءة).. وفيها تحريم على المشركين بالحج والطواف حول الكعبة عرايا كما كانوا يفعلون فى الجاهلية.. فأرسل النبى على بن أبى طالب إلى الصديق حتى ينفذ أمر الله بعدم دخول البيت الحرام مشرك بعد اليوم.. وعندما رأى الصديق عليا سأله:

- أمير أم مأمور؟

- بل مأمور.

وعندما اجتمع الناس فى (منى).. ووقف على بن أبى طالب، وكان بجانبه (أبو هريرة).. وأخذ يتلو على الناس من سورة التوبة:

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١ - ٥].

قرأ عليهم هذه الآيات حتى قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

ثم قال على فى الناس:

- «أمرت بأربع: لا يقربن البيت بعد هذا اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة كافر.. ومن كان بينه وبين النبى عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فهو إلى أربعة أشهر».

وإذا كان بعض المشركين قد أخذته العزة بالإثم عندما سمعوا من على هذا، إلا أنهم سرعان ما فطنوا إنهم لا قبل لهم برفع السيف فى وجه نبى الإسلام، فقد انتهى هذا الزمن، وما عادت هناك قوة تستطيع أن ترفع السيف فى وجه رسول الله، وما عليهم إلا الإذعان لما جاء به وحى السماء..

وأصبح واضحا بعد إعلان (براءة).. إنه لا مكان فى مهبط الدعوة للشرك والمشركين، فالله برىء منهم.. وما على المشركين بعد انتهاء المدة التى حددها لهم الرسول وهى أربعة أشهر، أو عندما تنتهى المهلة إذا كان بين بعضهم مهلة إلى انتهائها، إلا الدخول فى الإسلام، أو الاحتكام للسيف.. والمدة التى أعطاها لهم النبى هى فترة للتدبر فى شئونهم، وأخذ موقف مع أو ضد الإسلام.. وهكذا لم يجد المشركون بدا من الدخول فى دين الله.. وهذا ما سوف نلحظه عندما حج النبى بالناس بعد ذلك بعام، وكان حوله مائة ألف يحجون معه!

أصبح موقف الإسلام واضحا من أهل الكتاب، فلهم حرية الاعتقاد، إما أن يسلموا، وإما أن يظلوا على دينهم، فإن دخلوا الإسلام أصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق والواجبات، وإن ظلوا على اعتقادهم فعليهم دفع الجزية والجزية لا يدفعها الأطفال، أو النساء، أو كبار السن، والمنقطعون للعبادة منهم فى الأديرة!

وظلت الوفود تتدفق طوال العام التاسع والعاشر الهجرى.. فكان النبى يرسل مع هذه الوفود من يفقههم فى الدين.. وهكذا ارتفعت راية الإسلام.. ودعمت أركانه، وتكونت فى شبه الجزيرة دولة إسلامية راسخة البنيان.. يحكمها شرع الله.. قانونها القرآن الكريم، وما فيه من أحكام وما فيه من تشريع، وسنة رسول الله ﷺ، التى كانت تشرح للناس ما عمى عليهم من فهم أمور الدين، وتبين لهم ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الناس وخالقهم من إيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فرض عليه من صلاة وصيام وزكاة.. فإذا بالجزيرة العربية لأول مرة تشعر بقوتها.. وتشعر بكيانها.. وتشعر هذه القبائل التى جمعت تحت راية واحدة، وتتجه إلى قبلة واحدة، بأنها أصبحت من القوة بمكان، فلم تعد تخشى بأس الامبراطوريتين الكبيرتين اللتين تتاخم حدودهما أرض شبه الجزيرة العربية، وشعروا فى نفس الوقت بمدى اعتزازهم بهذا الدين الذى جعلهم من بعد الضعف قوة، ومن بعد الهوان عزة، ومن بعد الضعة رفعة..

وأصبح الإيمان فى القلوب يضىء البصائر.. ويجعل للحياة معنى.. وهدفا وغاية..

فلم تعد الحياة كما كانت فوضى يحكمها قانون الغاب.. إنما أصبح للحياة مذاقاً آخر.. فالذى يحكمهم هو قانون السماء.. ولهم فى رسول الله الأسوة الحسنة..

والقرآن والسنة وضحا للناس حقوقهم من مواريث وتعامل فيما بينهم..

وأوضحا لهم حدود الله التى لا ينبغى لأحد أن يتعداها وإلا أقيم عليه الحد.. مجتمع نظمه كتاب الله وسنة رسوله، فأصبح يفوح بأريج المحبة والطهارة.. والفضيلة.. وشريعة الله قادرة على تهذيب النفوس، وتقوية الإرادة، وخلق إنسان مثالى فى تعامله مع نفسه.. ومع مجتمعه.. ومع خالقه.. فلا قهر.. ولا ظلم.. ولا استبداد.. ولا خنوع ولا خوف ولا عبودية..

حتى الرقيق فى الإسلام حدد الله لهم موقفهم.. فالرقيق إنسان، ولا فرق بينه وبين الحر أمام الله، ما دام يعمل بما أملته به شريعة الله.. فالناس كأسنان المشط.. لا فرق بين إنسان أو آخر إلا بالتقوى.. وأتاح الإسلام من الظروف ما يلغى الرق على مراحل.. فقد قال الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

والنبى يقول:

- «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار»..
- وقد روى مسلم عن ابن عمر أن النبى قال:
- من ضرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه.

وقد روى الشيخان عن المعرور بن سويد قال: «رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه فقال النبى عليه الصلاة والسلام: أنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم.. فأعينوهم عليه».

رسالة بكل هذه النضارة والروعة والشموخ، لها كل مقومات الانتشار، جديرة أن تغزو القلوب والعقول.. وهذا ما حدث بالفعل.. فقد انتشر نور الله وبات واضحا وقد وصل المد الإسلامى إلى كل هذه الأرجاء واتضحت معالم الرسالة،.. إن مهمة الرسول، قد أوشكت على الاكتمال.. وانه بلغ الرسالة.. وحمل الأمانة على أكمل وجه.. و.. اقترب الرحيل إلى الملأ الأعلى.. إلى أكرم جوار..

* * *

دخل العرب فى دين الله أفواجا من كل صوب ومن كل حدب.. ووجد العرب أن لا مستقبل لهم إلا بالإسلام ونور الإسلام.. وأن لا معنى للحياة بدون هذا الدين الذى جمع لأول مرة العرب فى وحدة واحدة.. تظلها راية واحدة.. ويتجهون إلى قبلة واحدة، ويلم شملهم قبل كل ذلك عقيدة واحدة.. تؤمن بالله خالقا لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.. وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وإذا كانت قد بقيت بعض المناطق فى شبه الجزيرة على جاهليتها فقد آن لها هى الأخرى أن تستظل براية الإسلام.. أرسل النبى بخالد بن الوليد فى سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وقد عرض عليهم الإسلام أو القتال، فآثروا الدخول فى دين الله.. وجاء وفد منهم بصحبة خالد بن الوليد إلى المدينة وبايعوا النبى ﷺ وأرسل معهم النبى عمرو بن حزم الأنصارى ليفقههم فى أمور الدين..

وإذا كانت الوفود قد جاءت من كل صوب وحدب لتعلن ولاءها للإسلام، فقد جاء وفد من بنى حنيفة من بين الوفود التى جاءت لمبايعة النبى من اليمامة، وكان من بين هذا الوفد مسيلمة بن حبيب.. وقد طمع هذا الرجل وقد هاله ما كان عليه من المهابة والجلال، أن يكون له دور فى الحياة فى اليمامة فادعى النبوة، وادعى انه أشرك مع النبى فى النبوة، وأرسل إلى النبى كتابا يقول فيه:

- سلام عليك، فأنى قد أشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، لكن قريشا قوم يعتدون!

وعندما سأل النبى الرسولين اللذين بعثهما مسيلمة بالكتاب عن رأيهما فيما يدعيه مسيلمة، قالا إنهما يؤمنان بما يقول، فقال لهما الرسول الكريم:

- «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما».

وكتب النبى عليه الصلاة والسلام إلى (مسيلمة):

- «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدى أما بعد..

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وكان مسيلمة عندما ادعى النبوة، قد التف حوله عدد كبير من أهل اليمامة، بعد أن نجح فى أن يزكى فيهم روح العصبية، ويبيح لهم، ما حرم القرآن، وقد قضى على هذا الكذاب فى عهد خليفة رسول الله أبى بكر الصديق.

كما أوفد النبى عليه الصلاة والسلام إلى اليمن على بن أبى طالب ليخضع من لم يخضع إلى دين الله، وكان على فى سرية من ثلثمائة رجل، وقد استطاع على أن يوطد دعائم الإسلام فى اليمن، بهذا العدد القليل من الرجال، وأرسل النبى معاذ بن جبل إليهم يعلمهم الدين.. وهو من اليمن.. وكان وفد اليمن الذى ذهب لإعلان إسلامهم أمام النبى هو آخر الوفود التى قابلها الرسول الكريم قبل رحيله إلى أكرم جوار..

فقد كان العام العاشر الهجرى وما قبله من الأيام الأخيرة فى حياة أكرم الرسل هو العام الذى استقبلته كل هذه الوفود التى جاءت من كل مكان من شبه الجزيرة.. النبى يلقاهم.. ويفقههم فى الدين ويرسل معهم من يوضح لهم تعاليم الإسلام.. وكان النبى ﷺ يجلس مع أصحابه فى مجلسه فى

المدينة.. يتلقون عنه ما ينير لهم طريق الحياة.. فهى فترة عزيزة غالية فى تاريخ الدعوة..

وقد وضح لهم النبى منهاجا لفهم سنته، فسنته تتفق مع القرآن الكريم.. وأى حديث لا يتفق مع القرآن فهو حديث موضوع لا يمت للنبى بصلة.. فقد كان النبى يعرف بإلهامه وشفافية روحه أن هناك من سوف يتجرأ حتى على رسول الله فيكذب عليه.. ومن هنا فقد قال:

- «اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار»..

وقال أيضا:

- «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد فأنا أبعد منه».

ولم تقتصر تعاليم النبى على الرجال، فقد كان يفقه المسلمات فى أمور الدين.. عندما طالبت النساء أن يخصص لهن بعض وقته ليفقههن. وليعرفهن تعاليم شرع الله.. ووافق النبى على ذلك.. وكانت نساء النبى يحضرن هذه المجالس..

وكانت عائشة أم المؤمنين، تحفظ الكثير من أحاديث الرسول.. وبذلك كانت تصحح لمن يخطىء فيها، كما انها فهمت الكثير مما يخص المرأة فى أمور دينها، فكانت تشرح للنساء ما خفى عليهن من هذه الأمور، فتعلمهن الطهارة.. والوضوء وغير ذلك مما فرض الله كما عرفته عن قرب من رسول الله..

وكانت عائشة غاية فى الذكاء فمما يروى عنها مثلا.. انها سمعت أن عمر بن الخطاب قال نقلا عن رسول الله:

- «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»..

فقالت عائشة:

- رحم الله عمر.. والله ما حدث رسول الله ﷺ: «ان الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه»، ولكن رسول الله قال:

- «ان الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه».

ثم وضعت هذه القاعدة الذهبية، التى أوصى بها النبى ﷺ إن يكون الحديث مطابقا للقرآن الكريم فقالت:

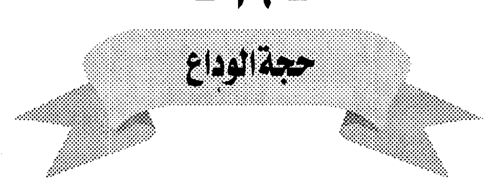
- حسبكم القرآن: ولا تزر وازرة وزر أخرى..

وليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كذب أو حرف فى حديث سمعه من رسول الله. فحاشا لعمر أن يفعل ذلك، ولكن قد يكون لسبب من الأسباب قد سمع جزءا من هذا الحديث ولم يسمع بقيته..

وهذا يعنى أن السند مهما كانت قوته لا يغنينا عن دراسة نص الحديث ومدى مطابقته لكلام الله، وألا يكون منافيا له.

وقد روت السيدة عائشة، كما روت أمهات المؤمنين أحاديث عن رسول الله، وتحدثت عن كثير من الأمور التى كان يقوم بها النبى ورأتها عن قرب كعبادته، وتهجده، وصومه، وعن سلوكه فى الملبس والمطعم، وعن زهده وورعه وتقواه..

* * *



إن الوفود تأتى من كل مكان تبايع النبى ﷺ وتدخل فى دين الله.. وغشاوة الشرك قد انزاحت عن شبه الجزيرة.. وأصبح الآذان ينطلق من كل مكان معلنا بأن دين الله قد انتصر، وأن نبيه قد أدى الأمانة، فلم تعد هناك مواجهات جادة ضد أعداء الإسلام الذين تقلص ظلهم، ولم يعد أحد يمكنه أن يجهر بكلمة الشرك.. وعزم النبى على أداء الحج حتى يعرف الناس مناسك هذا الركن الخامس من أركان الإسلام فعندما جاء شهر ذى القعدة أمر النبى الناس للاستعداد لحج بيت الله الحرام..

ومعروف أن العرب كانت تحج بيت الله الحرام، منذ أن نادى خليل الرحمن إبراهيم بالحج، وكانت هناك أربعة أشهر حرم، حتى يأمن الناس الذاهبون إلى بيت الله الحرام هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم.. وهذه الأشهر أصبحت حرما حتى لا يخشى الحاج من بيت الله من أى شهر، كما كان شهر رجب من الأشهر الحرم، لإنه كان الشهر الذى يذهب فيه الناس لأداء العمرة، فلا قتال ولا سفك للدماء فى هذه الشهور.. ولكن بيت الله الحرام كانت قد دنسته هذه الأصنام التى وضعت حول الكعبة.. كما أن العرب ابتدعت عادات سخيفة فى الحج، فبعضهم يطوف بالبيت عرايا وبعضهم الآخر يطوف وهو يصفق ويملأ البيت بالصفير.. وكل هذا لا يتناسب مع جلال بيت الله ومهابته فى النفوس والقلوب..

ان النبى قرر أن يحج إلى بيت الله الحرام.. بعد أن تطهر من كل هذه الأوثان.. وحتى يوضح للمسلمين كيف يؤدون هذا الفرض.. ويعرفون المناسك من: الموقف، ورمى الجمار، وطواف بالبيت، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم..

وقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع.. أو حجة البلاغ.. لأنها الحجة الوحيدة التى حجها النبى، كما انها الحجة الأخيرة له أيضا، ..وفيها خطب خطبته الخالدة، التى أعلنت حقوق المسلمين، كأعظم ما تكون الحقوق.. فلم يعرف ميثاق دولى فى أى عصر من العصور، ما انطوت عليه هذه الوثيقة الرائعة التى رسم فيها النبى حقوق المسلم..

لقد تجهز المسلمون للحج.. وكلهم أمل أن يسيروا فى موكب الرسول الكريم ويؤدوا مع النبى الحج، ولم يسارعوا إلى أداء هذا الفرض وقد سمعوا نبيهم الكريم يقول:

- من حج لله لم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

وإذا كانت قلوب الرجال قد هفت لأداء هذه الفريضة، فإن النساء كن يتطلعن هن الأخريات لأداء هذه الفريضة، بعد أن سمعن إجابة النبى على سؤال لأم المؤمنين عائشة:

قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد معكم ؟

فرد عليها النبى ﷺ: لا.. لكن أفضل الجهاد حج مبرور..

لقد خرج النبى حاجا لأول مرة، فمعروف أن النبى اعتمر مرتين من قبل هذه الحجة، وأما هذه المرة فقد قرن العمرة بالحج..

وانطلق ركب المسلمين فى خمسة بقين من ذى القعدة، وكانت السنة هى السنة العاشرة للهجرة.. وسار الموكب العظيم.. وعند (سرف) أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى..

وكان مع النبى من نسائه عائشة، وحفصة، وسودة، وصفية.. وقد أحرم النبى من عند مكان اسمه (ذى الحليفة).. فلبس ملابس الإحرام، ثم أخذ يكبر ويهلل..

- «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.»..

ونوى الحج والعمرة معا.

وكم كان المشهد رائعا، وعظيما وآلاف من المسلمين يربون عن المائة ألف يتجهون إلى بيت الله الحرام.. إنهم يسيرون وسط الصحراء فى طريقهم إلى البيت العتيق.. وأصواتهم الخاشعة تتصاعد إلى السماء، حتى إذا ما ظهر بيت الله الحرام على مرمى البصر قال النبى الكريم:

« اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة ونورا، وزد من عظمه ممن حجة واعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ونورا »..

وضربت خيام المسلمين حول الكعبة.

وطاف النبى فوق راحلته بالكعبة سبعاً، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم امتطى ناقته وسعى بين الصفا والمروة سبعا.

وأخذ النبى يؤدى مناسك الحج، وعرف المسلمون كيف يؤدون هذه الفريضة كما أداها النبى الكريم.

وعلى عرفات خطب الرسول الكريم خطبة الوداع.. الذى وضح فيها حقوق الإنسان، وبيّن حقوق المرأة، وحرم الربا، وأن الناس جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات.. فلا يفضل إنسان على آخر إلا بالتقوى..

لقد وقف النبى، ومائة ألف من المسلمين يستمعون إلى خطبته العظيمة.. التى كان فيها يودع المسلمين.. فلم يقف النبى بعد هذا فى هذا المكان.. وكان قد اقترب رحيله إلى الرفيق الأعلى.. فقد أدى الأمانة على أكمل وجه، وما دامت الرسالة قد اكتملت، فهذا يعنى أن النبى قد أدى واجبه، وحان له أن يرحل إلى الرفيق الأعلى.

إن الرسول الكريم يقول فى هذه الخطبة الجامعة:

- الحمد لله، نحمده ونستعينه.. ونستغفره ونتوب إليه.. ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له.. ومن يضلل فلا هادى له.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا رسول الله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذى هو خير.. أما بعد أيها الناس:

فاسمعوا أبين لكم، فأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.. أيها الناس: أتدرون أى يوم هذا ؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال عليه الصلاة والسلام: أليس يوم الحج الأكبر؟

قالوا: بلى..

فقال: أى شهر هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: أليس ذا الحجة؟

قالوا: بلى.

قال: أى بلد هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: أليست البلد الحرام ؟

قالوا: بلى.

قال: فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا.. ألا هل قد بلغت.. اللهم فاشهد.. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وأن ربا الجاهلية موضوع، وأن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس ابن عبد المطلب.

إن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث.

وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما.. ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله. إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم.. ثلاث متواليات وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد..

أيها الناس: إن لنسائكم حقا عليكم.. ولكم عليهن حق إلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهون بيوتكم إلا بأذنكم. ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح.. فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإن النساء عندكم عوان فى أيديكم، ولا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد.

أيها الناس: ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه..

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد..

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فأنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنة نبيه.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من شاهد..

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر.

من أدعى إلى غير أبيه. أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

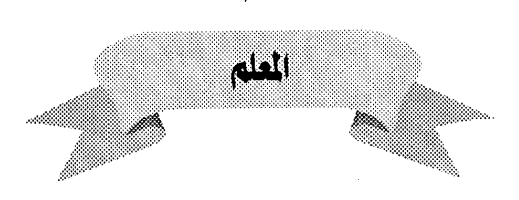
ثم نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [**المائدة**: ٣].

وقد كانت الخطبة فى يوم الجمعة..

* * *

- ٢٠ -



ما أعظم وأروع محمدا ﷺ فى سلوكه وفى أستاذيته وفى فضائله . .

إنه كإنسان تفوق إنسانيته كل ما درج عليه الناس.

وهو فى أستاذيته أستاذ لم تعرف الدنيا مثل أستاذيته فى أى عصر من العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهو فى فضائله . . فالحديث يطول ويطول ولا تنتهى متابعته.

إنه يرسم الخطوط العريضة للدين . . فيوضح لنا أركانه التى أقيم عليها البناء كله فيوجزه ببلاغته المعهودة بقوله:

-« بنى الإسلام على خمس وهى: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلا وصوم رمضان ».

وروى مسلم عن عمر رضى الله عنه قال:

بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فاخبرنى عن الإيمان ؟

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال صدقت..

قال: فاخبرنى عن الإحسان ؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فاخبرنى عن الساعة ؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرنى عن أماراتها ؟

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون فى البنيان .. ثم قال يا عمر أتدرى من السائل ؟

قال عمر: الله ورسوله أعلم.

قال: فانه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم.

والنبى جاء ليعلمنا كيف نسلك فى حياتنا، فقد هدم الإسلام عادات قديمة ما عادت تناسب الحياة، وأعاد للإنسانية رشدها، وبين الإنسان كيف تكون عاداته وتقاليده متسمة مع الكمال.. فمهمة الإنسان فى الدنيا عبادة الله.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [**الذاريات**: ٥٦، ٥٧].

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومادام الهدف من وجود الإنس والجن هو العبادة فلابد أن يكون السلوك الإنسانى متسما مع هذه الغاية، فلا معنى للرياء، والمظاهر الكاذبة لأن مرآة الإنسان هى التى تظهر ما ينطوى عليه قلبه من تقوى، وفؤاده من خشية الله فالنبى الخاتم يقول:

-« ان الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ».

وحتى يتقبل الله عمل المرء فلابد أن يكون هذا العمل بريئا من كل ما يغضب الله.. ويبعد الإنسان عن رحمته..

ففى الحديث القدسى:

-« أنا أغنى الشركاء عن الشرك.. من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ».

ويروى مسلم عن أبى هريرة هذا الحديث العميق قال:

- سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأوتى به فعرفه نعمته قال: فما عملت فيها.

قال: قاتلت حتى استشهدت.

قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرئ فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى يلقى فى النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأوتى به فعرفه نعمه قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار.

وهكذا نرى كيف يربى الإسلام المسلم.. فالعمل لابد أن يكون لوجه الله لا رياء.. ولا تظاهرا بالشجاعة أو التقوى، أو الخوف من الله. أى أن المؤمن لابد أن يستشعر عظمة الله وجلاله من داخله، وعندما ينقى الباطن ويكون الظاهر مرآة تعكس طهارة الضمير، ونبل الدافع.. يكون المؤمن قد شعر بحلاوة الإيمان، وجلال اليقين.. فالعمل لا يكون إلا لوجه الله، لا لأن يقال أن فلانا شجاع أو كريم أو محب للقرآن، أو أن يخشى الله، فالسلوك لابد أن يكون نابعا من قلب ممتلئ بالإيمان، ونور الله.

والذى يعبد الله ويخشاه، ويتقيه حق تقاته، لابد أن يكون واثقا من رحمة الله، فلا يتمادى فى عصيانه، بل يتوب إلى الله، وأبواب السماء مفتوحة للتائبين..

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والنبى يقول فيما رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى عن النبى عليه الصلاة والسلام:

-« إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، وما دام الإنسان قد تاب إلى الله، فعليه أن يقوم بما فرضه الله عليه.. الصلاة.. فالصلاة ركن من أركان الإسلام.. من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين .. والصلاة عاصم للإنسان من الوقوع فى الخطايا.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم لا بحق الإسلام وحسابهم على الله . .

فالإسلام يحض على الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد. . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ويأتى بعد هذا الإيمان إيتاء ما أمر الله به من صلاة وصيام وزكاة، وحج لبيت الله الحرام. .هذه الأعمدة التى يقام عليها بناء المجتمع الإسلامى، والسلوك الإسلامى. . مجتمع قوى لا يعرف التخاذل، متعاطف لا يعرف الأحقاد، جاد لا يعرف الفوضى. . ولنستمع إلى الرسول الكريم وهو يقول:

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

ثم تبلغ هذه الرسالة الكريمة قمة العظمة، وقدرتها على صنع الإنسان المتوافق مع نفسه ومع الناس، والذى يربى المسلم على احترام نفسه واحترام الآخرين. . وهذا يتطلب عدم النفاق والخضوع لغير الله، لأن كل شئ بأمر الله. . فلا داعى أن يضع المسلم نفسه فى مكانة تأباها النفوس الكريمة. . فالرسول الكريم يقول:

-« احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ لن يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

والشيخ مصطفى المراغى، وهو يفسر أوائل سورة البقرة، يوضح ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فى صلاته فيقول:

-« الصلاة فى الإسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية (لله) وفاتحة الكتاب إذا روعى معناها أثناء التلاوة، وهى من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص، المبرأ من أية شائبة للشرك. وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها - وهو الإخلاص لله سبحانه، واستشعار سلطانه - كانت جسما لا روح فيه، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب، والنهى عن الفحشاء والمنكر والتخلص من الهلع والمنكر ».

وإذا كان الركن الأول من الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ومن هنا كانت عظمة الرسالة المحمدية، فهى إلى جانب أنها دعوة للإيمان، فهى أيضا دعوة لتنظيم المجتمع على أسس مستنيرة، فالمال مال الله، ويجب ألا يكنز، أو يحبس فى خزائن. . ولكن المال لابد أن يدور فى المجتمع حتى يتحقق النفع العام ومادام المال مال الله استخلفه فى الناس. . فلابد أن يستفيد منه عباد الله، ولا يحتكره أفراد أو طوائف من الناس. . ومن هنا فقد حث الإسلام، على الزكاة، وأصبحت فرضا. . وقد حارب أبو بكر الصديق الذين امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته المشهورة:

-« والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه ».

فالزكاة هى حق الأُمة على الناس، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. . ومن هنا يحدث التوازن فى المجتمع، ولا تصبح الهوة واسعة بين الذين يملكون والذين لا يملكون.

وإذا كانت الزكاة فرضا، فإن الإسلام حث أيضا على الصدقات، حتى تعم الفائدة من المال، وتصلح أحوال المجتمع وينال المنفق من هذه الصدقات جزاء الله.

وربما كانت أحد الأسباب الهامة التى قاوم من أجلها سادة قريش وسادة العرب الدين الجديد، هو هذا الفرض. . أعنى الزكاة. . فقد كانوا يحبون

المال حبا جما. . لأن قيمة الفرد الاجتماعية كانت تقترن بعدد ما يملك من العبيد والإماء والأموال. . ومن هنا فقد حرصوا على المال حرصهم على أعز الأشياء لديهم مع أن الله عنده خير من ذلك. .

والقرآن الكريم بأسلوبه المعجز يصور لنا هذا الحب الجارف للمال بقوله فى سورة آل عمران:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد جاء الإسلام وهو دين الوسط، ليجعل الحياة متناسقة، والنفوس هادئة مطمئنة. . ولا يمكن أن تهدأ النفوس حيث يوجد الثراء الفاحش. . والفقر المدقع. . لكن النفوس تطمئن عندما تجد كل نفس ما يسد الأود، ويمكنه بالتالى أن يتعايش مع الحياة. . فلو أعطى الأغنياء حق الله من الزكاة. . لاختفت ظاهرة الأحقاد بين الطبقات، ولتباعدت ظاهرة الحقد هذه عندما تخلع النفس عن نفسها الشح، وأعطت عن طيب خاطر كصدقات للمحتاجين:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وإذا كان المجتمع العربى قبل الإسلام كان يسيطر عليه أصحاب الأموال من ذوى الثراء، الذين جمعوا أموالا طائلة من التجارة، فقد كان هؤلاء الأثرياء يثقلون كاهل الناس (بالربا). . وأصبح الربا داء وبيلا يحول دون أن يحيا الناس حياة كريمة، فقد كان من الصعب أن ترد النقود وما عليها من ربا فاحش، فترتبك حياة الأسر، وتعيش تحت وطأة هذا الكابوس المخيف. .

ومن هنا أيضا فقد كان من عظمة التشريع الإسلامى النهى عن الربا ومحاربته . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

والزكاة على رأس المال تعادل ٢,٥ فى المائة سنويا ، وهى تؤدى إلى رأس المال .

ثم يرسم القرآن الكريم النهج القويم ، حتى يمكن أن يعيش المجتمع كالجسد الواحد . . بلا أحقاد ولا ضغائن ، ولا تخلف ، فيرسم صورة المؤمن الصادق ، وقد أدى حق الله ، بالشروط التى وضعها القرآن الكريم . .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

والركن الرابع فى الإسلام هو صوم رمضان ، وإذا كان الصوم قد عرف بأشكال متعددة قبل الإسلام ، كالصوم عن الكلام ، أو الصوم فى أيام معلومة كيوم عاشوراء عند اليهود إلا أن القرآن الكريم وسنة النبى الكريم حدد صيام شهر رمضان بالنسبة للمسلمين فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥].

وواضح ما فى صيام رمضان من حكمة، فهو بجانب إشعار الغنى بما يعانيه الفقير، فهل أيضا رياضة روحية تقرب العبد من ربه وتعلم الإنسان الصبر وقوة التحمل وقوة الإرادة فى مواجهة الصعاب، بجانب ما فى الصوم من فوائد صحية أقرها العلم الحديث.

وقد كان من عادة النبى فى رمضان أن يفطر على قليل من التمر والماء، وبعد صلاة المغرب، يكمل أفطاره..

والرسول يوضح ما ينبغى أن يكون عليه الصائم، حتى يأتى الصوم بالفائدة المرجوة منه..

-« الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائما، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إنى صائم».

والركن الخامس للإسلام هو الحج.. لقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

والنبى الكريم يقول:

- «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»..

وواضح ما فى الحج من تجمع المسلمين من كل مكان .. انه مؤتمر عالمى للمسلمين، يتدارسون فيه أمور دنياهم، فى نفس الوقت الذين يلبون فيه نداء السماء ..فيذهبون طائعين لأوامر الله، يؤدوون المناسك كما أقرها رسول الله، استجابة وطاعة لله.

هذه هى الأركان الخمسة للإسلام التى تكفل حياة مستقرة آمنة مطمئنة للمسلمين.. إذا حافظوا عليها وتمسكوا بها.. فهى تكفل لهم السلام النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى..

وهكذا استطاع الإسلام فى ظل هذه الأركان أن يجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا متماسكا، وفى ظل شريعة الله التى تحكم بين المسلمين، وهذه الشريعة تندرج فى طاعة الله ورسوله وما جاء به الشرع الإسلامى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [**النساء**: ٥٩].

ثم يوضح لنا الإسلام أن الشرع يمكن أن يندرج تحت إطار العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

والقرآن الكريم يوضحها بأسلوبه المعجز فى كلمات بليغة قصيرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [**النحل**: ٩٠].

فالعدل هو أساس الحياة فى المجتمعات، والعدل يعنى أن يعدل الإنسان فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الآخرين وينبع هذا العدل من الإحسان للنفس وللغير، وهذا يأتى بأن يسود الود والرحمة والتعاطف مع ذوى القربى.

وما دام الإنسان يتطلع إلى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى فإنه يجب أن يبتعد عن هذه الدائرة التى تدخل الإنسان فى براثن الشيطان وحبائله، وما يؤدى ذلك من نتائج خطيرة على الفرد وعلى المجتمع.. فعلى الإنسان أن يبتعد عن الفحشاء والمنكر والبغى.

أى مجتمع طاهر هذا الذى يحكمه هذا القانون.. مجتمع عادل محسن، يعرف الإنسان فيه حق نفسه وحق الآخرين، فلا يعتدى على أحد ولا ينتهك حرمات الغير.

انه المجتمع المثالى الفاضل الذى يعيش فيه الإنسان فى أمان مع نفسه ومن نفسه، ومن الآخرين أيضا.

فإذا خرج إنسان على شرع الله فلابد من إقامة الحدود حتى يستقيم المجتمع، ولا يعيش فيه مفسد أو ظالم، تلك الحدود التى حددها كتاب الله وسنة رسوله..

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وتبلغ الرسالة الذروة.. ذروة التكامل، وهى ترسم منهاج حياة المسلمين.. فيما فرض الله عليهم من فرائض، وفيما أوجبت لهم من واجبات، وفيم فرضت لهم من حقوق وفيما رسمت من أطر للمجتمع فى العقوبات والمواريث وكيفية التقاضى بين الناس. بل فى سلوك الفرد عندما يقوم من نومه، وعندما يعود إلى فراشة، وعندما ينوى السفر، وعندما يذهب إلى الجهاد.. فصلت شريعة الله كل شئ بالنسبة لحياة الفرد والجماعة.. إنها الرسالة الخالدة التى جاء بها إمام المرسلين وسيد ولد آدم على الإطلاق، الذى كان فى حياته وسلوكه نبراسا لمن يريد النجاة من هول الدنيا وهول الآخرة.

وإذا كان النبى العظيم هاديا.. ومبشرا ونذيرا، وكان خلقه القرآن.. وإذا كان الشرع قد ألزم الناس بفروض وطاعات معينة، فإن النبى نفسه، قد تجاوز كل هذا وألزم نفسه بما يلزم به سائر المسلمين.

كان يقوم الليل عابدا لله، راكعا له ساجدا، حتى تورمت قدماه وعندما تسأله السيدة عائشة:

- ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

كان يقول:

- أفلا أكون عبدا شكورا.

وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

- «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا.. أرى ما لا ترون، واسمع ما لا تسمعون.. أطت السماء، وحق لها أن تئط.. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله. والله لو تعملون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا».

ويروى لنا عوف بن مالك عن عبادة رسول الله الذى لم يلزم بها الآخرين، فيحكى لنا قائلا:

- كنا مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ، ثم قام ليصلى، فقمت معه فاستفتح، فكان لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا مر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول:

سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ (آل عمران) ثم سورة بفعل ذلك.

قال عوف بن مالك «وأينا يطيق أن يصنع مثل ما صنع»..

ومع ذلك كان النبى يتخفف فى الصلاة عندما يؤم الناس، ويسرع فى صلاته رحمة بطفل يبكى..

يا لعظمتك يا رسول الله.

وإذا كان الناس يصومون رمضان، حتى غروب الشمس، فقد كان النبى فى كثير من الأحيان يصوم صوم الوصال، أى يواصل صيام الليل والنهار.

والإنسان يرى عظمة النبى وتقواه، وهو نبى الله وخليله ومصطفاه، وقد غفر له ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فهو إمام المتقين، وسيد الخاشعين والخائفين من جلال الله.

سمع مرة ابن مسعود يقرأ آيات من سورة النساء، وعندما تلا هذه الآية:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾

[**النحل**: ٨٩].

فإذا بالدموع تنهمر من عينيه بغزارة، ويقول لابن مسعود:

- امسك. .

وإذا كان الإسلام قد حض الناس على أن يؤدوا زكاة المال فإن النبى ﷺ كان أكثر الناس جودا، وكان يأتيه من الغزوات وله الخمس، ينفقه جميعا على فقراء المسلمين، وكان يستعيذ من البخل.

- اللهم أنى أعوذ بك من البخل والحسد، كما أعوذ بك من الفتنة وعذاب القبر.

وقال ﷺ:

- كيف بالمرء انما أن يحبس عمن يملك قوته.

وكان ﷺ سيدا فى معاملة الناس. . يعاملهم بالحسنى. . يهش فى وجوههم، ويحسن استقبالهم. . فكان يبدؤهم بالسلام وكان لا يترك يد من يسلم عليه حتى يتركها هو، وكيف لا، وقد صور أخلاقه القرآن الكريم بقوله:

﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [**آل عمران**: ١٥٩].

وهو القائل:

- لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق.

والحديث عن محمد المعلم حديث ممتع وشائق. . فهو أستاذ البشرية فى كل العصور بلا منازع. . انه يعلمنا كيف يعامل الإنسان أخاه فى الإنسانية. . أن يكون له هشاً، ومعينا فى النائبات، ولا يغتابه، ولا يوقعه فى سوء، ولا يسخر منه. . فالإيذاء يجب أن يلغى من قاموس المسلم. .

- والذين يؤذوون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا.

والنبى يوصى المؤمنين بهذه الوصايا:

- لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله أخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم.

المسلم أخ المسلم لا يظلمه.. ولا يخذله .. ولا يحقره..

التقوى ها هنا (مشيرا إلى صدره)..

بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم..

كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله.

إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

ومحمد المعلم العظيم.. يعلمنا كيف نكظم الغيظ، وكيف نعفو عن الناس، حتى يعيش المجتمع كالبناء المتماسك عملا بقوله الكريم:

﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**آل عمران**:١٣٤].

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٩٩].

﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [**فصلت**: ٣٤].

والرسول الكريم يقول فيما يروى البخارى عن أبى هريرة إنه قال: ان رجلا جاء للنبى ﷺ وقال أوصنى قال: لا تغضب، فردد مرارا فقال: لا تغضب..

وروى مسلم عن عائشة قالت:

- ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شئ قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شئ من محارم الله تعالى.

وكان النبى الكريم رغم مهابته وقوة شخصيته من أكثر الناس حياء.. فخلقه القرآن.. والقرآن يقول:

﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [**الفرقان**: ٦٣].

والرسول يقول:

- الحياء من الإيمان.

وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال:

- كان رسول الله ﷺ أشد حبا وأشد حياء من العذراء فى خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه.

إنه الرسول الكريم.. أعظم من عرفته الحياة فى شجاعته وفصاحته، وتواضعه، وكرمه وسخائه وعطائه وحيائه وحبه لله والناس.

إنه الإنسان الرفيع الذى لا يصدر عنه إلا كل رفيع، إنه الإنسان الذى يرتفع بتواضعه إلى ما لا يصل إليه الملوك والأباطرة بالتجبر والتعنت والإرهاب.

إنه الإنسان الشجاع الذى فاقت شجاعته كل مناسيب الشجاعة، وهو يتحدى مجتمعات جاهلية عششت فى عقولها قيم جاهلية بغيضة وشرك يجرى فى دمائهم مجرى الدم فى العروق، فقاومهم وحده.. يسنده إيمانه القوى بالله، فغير هذه المجتمعات إلى مجتمعات فاضلة، ثم جمعهم إلى مجتمع الإسلام، فأصبحوا جميعا يدينون بدين واحد ويتجهون إلى قبلة واحدة.

* * *



- ٢١ -

إلى الرفيق الأعلى

٨١ يوما مرت على النبى بعد أن عاد من الحج.. عاش خلالها فى المدينة يعلم الناس كيف يؤدون الفرائض، وكيف يكون سلوكهم وكيف يتعبدون ..كانت المدينة تسبح فى أضواء من أنوار الروحانية .. فأعظم من عرفته الحياة، يسير بينهم.. يرونه فى المسجد، ويرونه فى الأسواق.. ويرونه وهو يداعب الصغار.. ويرونه عابدا خاشعا زاهدا، ويرونه كتلك التى يراها ويحسها الناس وهم يعيشون فى عهد رسول الله.. آخر من جاءه وحى السماء..

كم كانوا يتمنون أن تمتد أيام الرسول..

ولكن الرسالة قد اكتملت.. والأمانة قد أداها النبى على أكمل وجه.. إن الصورة اليوم مشرقة.. كم تختلف الحياة اليوم عن الحياة قبل ذلك بثلاث وعشرين عاما.. حيث كانت مكة تعيش فى أوهام حياة الأجداد، .. وأساطير الأولين.

والمدينة منقسمة على نفسها.. لأن العداوة بين الأوس والخزرج تجعل الحياة بلا طعم، يزكى هذا الخلاف وتلك العداوة يهود المدينة..

والقبائل الأخرى عاكفة على أصنامها وتقاليدها البالية.. وشبه الجزيرة العربية كلها.. قبائل متنافرة متباعدة، لا مكانة لها، ولا مجد ولا تاريخ.

وها هى الدولة الإسلامية قد اكتمل إطارها، يحكمها أعظم الدساتير، إنه الدستور الربانى.. الدستور الذى وضعه خالق الكون.. إنه القرآن الكريم، وسنة النبى العظيم، لأن النبى بجانب إنه بنى مرسل، فهو مشرع من أعظم المشرعين، لإنه لا ينطق عن الهوى.

إن الدولة التى اكتمل لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية أصبحت من أعظم القوى فى العالم، وقد آن للإسلام أن ينطلق ليبشر بقيمه وحضارته العالم، والنبى يطلق شرارة البدء يذانا بالفتوحات الإسلامية الكبرى، التى بدأ زحفها الكاسح فى زمن خليفة رسول الله أبى بكر، ثم الفاروق عمر ابن الخطاب ثم واصل الإسلام زحفه الكاسح، ليصل الإسلام إلى مساحات شاسعة من الأرض.. ويحقق انتصارات لم تكن تخطر على بال.. بل استطاع أن يحطم الامبراطورية الفارسية، والامبراطورية الرومانية، ويمتد الزحف العجيب بعد ذلك من الصين حتى المحيط الأطلنطى، ثم يضم أسبانيا ويصل الزحف العظيم إلى جنوب فرنسا !.

إن النبى الكريم يطلق شرارة هذه الفتوحات عندما يجهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد للانطلاق للانتقام لشهداء معركة مؤتة الذى سقط فيها والده زيد بن حارثة شهيدا..

ولكن النبى كان يشعر أن حياته قد أوشكت على الغروب.. وانه قد اقترب لقاؤه بخالقه.. وروحه العظيمة تهفو إلى هذا اللقاء. وتزداد نصائحه للمسلمين.. وتزداد عبادته وتهجده.. فيكثر من الصلاة والصيام.. ويكثر من القعود مع الناس يذكرهم ويعظهم ويعرفهم بما يجهلون من أمور دينهم.. ويأتى هذا اليوم الذى خرج فيه مع مولاه أبى مويهبة إلى المقابر ليزور موتى المسلمين، يترحم عليهم فى البقيع..

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. لو تعلمون ما أنجاكم الله منه، أقبلت الفتنة كقطع الليل المظلم تتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى.

وقال لأبى مويهبة:

- يا أبا مويهبة. أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة..

- بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة..

فقال عليه الصلاة والسلام:

- لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة.

وعاد النبى إلى بيته، وكانت زوجته عائشة تشكو الصداع، وكان الرسول قد ابتدأ يشعر بأعراض المرض، فلما سمع عائشة تشكو الصداع وتقول:

- وارأساه.

قال لها النبى الكريم:

- وما يضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك.

وترد عليه عائشة:

- واثكلاه، والله إنك لتحب موتى، فلو كان ذلك لظللت يوما معرسا ببعض أزواجك.

ويبتسم الرسول وهو يقول لها:

- بل أنا وارأساه.

ومرض النبى، وأقبلت الفتن كما تنبأ ﷺ كقطع الليل المظلم، فمسيلمة الكذاب يدعى النبوة فى اليمامة، وطليحة بن خويلد يدعى النبوة فى بلاد أسد، بينما يعسكر جيش أسامة بن زيد فى الجرف استعدادا لملاقاة الروم.

وكم شعر المسلمون بالأحزان العميقة، خوفا على نبيهم..

ترى هل يرحل أحب الناس إلى الله ؟

وكيف يمكنهم أن يتلقوا هذا النبأ الفاجع..

وماذا تكون عليه الحياة بلا رسول الله ؟

ما أن علمت المدينة بمرض الرسول، حتى امتلأت النفوس بالأحزان . . انهم يذكرون كيف نعى النبى ﷺ نفسه منذ فترة وجيزة عندما خطب خطبة الوداع . .

-« أيها الناس: اسمعوا قولى . . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، بهذا الموقف أبدا ».

وآخر آيات القرآن الكريم تنعى رسول الله . .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [**المائدة: ٣**].

. .ثم ها هو مع مولاه أبى مويهبة يقول له صراحة: بأنه خير فاختار لقاء ربه والجنة . .

تذكر الناس ذلك . . وخشوا على نبيهم . . ثم أصبحت الصورة واضحة تماما . . عندما خرج النبى وقد اشتد عليه المرض، فقال للناس صراحة فى خطبة له فى المسجد:

- «بلغنى انكم تخافون موت نبيكم . . هل خلد من قبلى نبى فيمن بعث إليكم فأخلد فيكم. إلا وأنى لاحق بربىَ وإنكم لاحقون بى.

ثم يقول صراحة لعمه العباس عندما رأى العباس رؤيا، قصها على النبى الكريم، وكانت رؤيا العباس انه رأى فى منامه القمر وقد رفع إلى السماء.

فيقول له الرسول الكريم: إنه ابن أخيك . .

. . وتتقدم إليه فاطمة ووالدها العظيم يعانى آلام المرض، وهى تبكى لمرض والدها العظيم . . فيقربها إليه، ويسر إليها بكلمات فتبكى، ثم يسر إليها بكلمات فتبتسم . . إن فاطمة بكت عندما سمعت من والدها قوله:

- إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى هذا العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلى . .

وقد ابتسمت فاطمة عندما طمأنها والدها العظيم، بأنها ستكون أول أهله لحاقا به . .

-« إنك أول أهل بيتى لحاقا بى، ونعم السلف أنا لك . . ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة » . .

الدلائل كلها إذن تشير إلى اقتراب الرحيل . . فتفيض القلوب بالحزن واللوعة . . ويخيم على المدينة أحزان كثيرة . . وعلى صدرها تجثم آلام صعبة.

لقد شاهد الناس وعرفوا أن النبى عندما أصابه المرض . . خرج يمشى، وهو معصوب الرأس، يستند إلى على بن أبى طالب، والفضل بن العباس، حتى وصل بيت عائشة، وعندما اشتد عليه الوجع طلب منهم أن يصب عليه ماء من سبع قرب، من آبار مختلفة، وخرج للناس وهو عاصب رأسه، وجلس على المنبر، ثم صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، ثم قال:

- إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله . .

وما أن سمع أبو بكر هذه الكلمات، حتى عرف أن النبى ينعى نفسه، وأنه سوف يلحق بربه، فبكى وقال:

- بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا . .

وقال الرسول الكريم:

- على رسلك يا أبا بكر . . انظروا هذه الأبواب اللافظة (النافذة) فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر، فأنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه . .

وكان بعض الناس قد استكثروا أن يقود أسامة بن زيد، وهو ابن سبعة عشر عاما جيشا لمجابهة الروم، على رأس جيش كان من جنوده أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب.. فخرج النبى.. والنبى لا ينطق عن الهوى فقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إماراته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها..

وخرج أسامة إلى (الجرف) فى انتظار أمر الرسول بالتحرك غير أن المرض كان قد اشتد بالنبى.. وقد تراءى لعمه العباس أن يلده (يعطيه دواء).. وأفاق الرسول وسأل عمن فعل ذلك، فقالوا انه عمك العباس.. وكان عنده من نسائه أم سلمة، وميمونة، وبعض نساء المسلمين، وأسماء بنت عميس، وسأل لماذا فعلوا ذلك فقال له عمه العباس، إنهم فعلوا ذلك خشية أن يكون قد أصيب (بذات الجنب)..

فقال الرسول الكريم: إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به ثم أمر ألا يبقى أحد فى البيت ما عدا عمه العباس.

وعندما اشتد عليه المرض أمر النبى أبا بكر أن يصلى بالناس.

وقالت له عائشة عندما سمعت منه أنه يأمر بأن يصلى الصديق بالناس:

- يا نبى الله. إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن..

- مروه فيصل بالناس.

ولما أعادت عائشة قولها، قال الرسول الكريم:

- إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس..

ثلاثة عشر يوما عانى فيها النبى الكريم آلام المرض.. وفى أثناء مرضه ﷺ، كان يخرج إلى الناس، واعظا لهم، ومذكرا، ومودعا أيضا..

والنبى العظيم فى رحلة مرضه هذه يريد وهو يودع الحياة، أن يوصى المسلمين بما يصلح أمورهم. . فأخذ يوصى بالمهاجرين الأنصار، ويذكر الناس إن كان لأحد حق عليه. .

انه يخرج إليهم متوكئا على الفضل بن العباس، ليقول للناس بعد أن يحمد الله ويثنى عليه:

- فمن كنت قد جلدت له ظهرا، فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى. . ألا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب النفس. . وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا. .

وقال لهم أيضا. .

- من كان عنده شئ فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا. ! إلا أن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة.

وتبلغ عظمة النبى منتهاها. . انه وهو يشعر بأوجاع المرض، لا ينسى انه نبى بشر وانه سوف يودع الدنيا. . وسوف يودعها وقد أكمل على أكمل وجه كل ما كلفه به سبحانه وتعالى. . فلا بقاء لأحد فى الدنيا. . البقاء لله وحده. . إنه يخرج إلى الناس يوصيهم وصاياه الأخيرة. . فيقوم مقاوما المرض. . معصوب الرأس يجر رجله جرا، وعلى أول درجات المنبر، يقوم خطيبا فى الناس:

-« أيها الناس: بلغنى إنكم تخافون موت نبيكم، هل خلد نبى من قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم. .؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا. . وأوصى المهاجرين فيما بينهم. . فإن الله تعالى يقول:

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ - ٣].

وإن الأمور تجرى بإذن الله.. ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد.. ومن غالب الله غلبه.. ومن خادع الله خدعه..

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢].

وأوصيكم بالأنصار خيرا، فإنهم الذين آمنوا تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم..

ألم يشاطروكم فى الثمار ؟

ألم يواسوكم فى الديار ؟

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟

ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فيهم، فيقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم.

ألا ولا تستأثروا عليهم..

ألا وأنى فرط لكم، وانتم لاحقون بى.

ألا فإن موعدكم الحوض.. ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى ».

ما أعظمك وما أروعك يا سيد المرسلين.. فى شدة المرض تخرج إلى الناس.. وتوصيهم بكلماتك البليغة العميقة، أن يتراحموا فيما بينهم.. وأن يذكروا فضل بعضهم على بعض.. فالوفاء شيمة من شيمك الرفيعة..

إنه يقول لهم إنه فرطهم.. أى سبقهم إلى عالم الخلود.. وإنهم سوف يلحقون به.. وأنه يتمنى ألا ينسى بعضهم فضل بعض.. الأنصار آزروا

النبى وجاهدوا معه وناصروا دينه، وفتحوا بيوتهم وقلوبهم للمهاجرين. . فما ينبغى أن يكون بينهما إلا ما بين الأخوة. .

وعاد النبى إلى بيت عائشة. . يعانى من أوجاع المرض. . ولكنه كان صابرا. . ومن غير محمد بن عبد الله يملك تلك الطاقة الهائلة من الصبر والرضا بقضاء الله. . فهو أقرب الناس إلى الله. . وأعرف الناس بالله. . إنه يخرج إلى المسلمين فى صلاة الصبح. . فى نفس اليوم الذى قبض فيه. . يوم الاثنين فى أول الربيعين فى العام الحادى عشر الهجرى (٨ يونيو سنة ٦٣٢م). . وكان الجو شديد الحرارة. . وكم كانت فرحة المسلمين غامرة عندما رأوه يدخل المسجد، وقد خيل إليهم أنه برئ من المرض وكادوا يفتنون. . فلم يملأ قلوبهم فرح مثل فرحهم لرؤية الرسول الكريم، وقد عاد إليهم سليما معافى.

ما أحلى أيام الرسول. . وكلام الرسول. . وعظات الرسول، وسلوك الرسول . .وحلم الرسول. . انه يعود بينهم فى صباح هذا اليوم، وتحدث اليهم بصوت مملتئ ووجه مشرق وعلى وجهه ابتسامة مضيئة. .

- «أيها الناس. . سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وانى والله ما تمسكون على بشئ، إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن. ولعن الله قوما اتخذوا قبورهم مساجد».

وعاد النبى إلى بيت عائشة، وفرحة المسلمين برؤية النبى أنستهم أنه مريض، وأنستهم أنه يحذرهم الفتنة بعد موته. . أنستهم كل شئ إلا أن النبى بطلعته البهية قد خطبهم. . وكان صوته قويا ولا أثر للمرض فيه ولم يدروا إنها صحوة الموت. . لقد استأذن الصديق النبى أن يذهب إلى داره (بالسنح) وسمح له النبى.

وذهب المسلمون إلى أعمالهم وقد زالت عنهم غشاوة الأحزان. . وكان النبى قد أوصى أن يوزع ما بقى عنده من مال على فقراء المسلمين (سبعة دنانير) حتى يلاقى الله ولا يملك من متاع الدنيا شيئا!

وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى تحكى عن ساعات الرسول الأخيرة، رجع إلىّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل عليه رجل من آل أبى بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ فى يده نظرة عرفت أنه يريده فقلت يا رسول الله:

اتحب أن أعطيك السواك؟

قال: نعم..

فأخذته فمضغته له، حتى لينته، ثم أعطته اياه.. فاستنى به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ، يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول:

- بل الرفيق الأعلى والجنة.

فقلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق.

وقُبِضَ رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى، فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى. (معنى ألتدم: أضرب وجهى، وألطم).

.. وترى فاطمة بنت النبى والدها وقد فارق الدنيا، فتبكى أعظم رسل الله..

- أبتاه.. أبتاه.. يا أبتاه..

أجاب رباً دعاه..

يا أبتاه..

جنة الفردوس مأواه..

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وبسرعة انتشر خبر وفاة محمد عليه الصلاة والسلام فإذا بالناس يتوافدون والحزن يعتصر قلوبهم.. والدموع تملأ عيونهم.. إن أعظم من عرفته الحياة قد ترك الدنيا بعد أن ملأها بنور الإيمان والإسلام..

والنبى العظيم الذى جاء مدينتهم مهاجرا منذ عشر سنوات، ومدينتهم منقسمة على نفسها.. يرحل عنها اليوم وهى توشك أن تكون عاصمة الدنيا كلها..

ترى أى آلام تلك كانت تفعل فى النفوس.. والحب والحنان والوفاء والشجاعة والخشوع.. والتقوى والرجولة.. والفضيلة والنبل والشهامة والإخلاص.. والزهد والورع والحياء.. والبلاغة.. كل هذه القيم متجسدة فى هذا العظيم الذى سيرقد تحت الثرى..

ولكنها مشيئة الله وقدره، ولا راد لمشيئته، قيوم السماء والأرض، فقد اختار حبيبه إلى جواره..

إن الناس يتجمعون حول بيت الرسول الكريم.. الفاجعة تهزهم من الأعماق، حتى أن رجلا كعمر بن الخطاب بجلده وقوة شكيمته، لم يحتمل هذا الخبر، فتهزه الفجيعة، فيتوعد الناس.. انه لا يريد أن يسمع أن سيد البشر قد مات.. فإذا به يخطب بين الناس:

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى، وأن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل انه قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!

عمر بن الخطاب.. بكل شجاعته، وجلده لم يقو على تلقى خبر انتقال الرسول الكريم إلى أعظم جوار.. ترى وقد هزه ألم الفراق، قد نسى فى غمرة أحزانه العميقة، ما خاطب به نبيه..

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ويأتى الصديق من داره فى السنح.. ويدخل على نبيه.. وصديق طفولته وصباه وشبابه ورفيقه فى الغار.. يدخل على صديق العمر كله.. فيرفع الغطاء عن الوجه الطاهر ويقبله ويقول له كلمات تخرج من حنايا القلب:

- «بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. طبت حيا وميتا.. أما الموته التى كتبت عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أخرى»..

وخرج إلى الناس، ومازال عمر يتوعد الناس، فيصعد المنبر، وقال لهم كلماته الرصينة الخالدة.. بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- «أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت».

- ثم تلا قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وساد الحزن والصمت - ولاذ ابن الخطاب فى حزن عميق..

انه يوم لا يمكن أن تنساه ذاكرة الزمن.. يوم الاثنين الموافق الثانى عشر من ربيع الأول من العام الحادى عشر الهجرى.. هذا اليوم الذى غادر فيه رسول الله دنيانا..

وفى هذه الظروف الحزينة، حدث أن تشاور الأنصار فيما بينهم من يخلف رسول الله، وأراد بعضهم أن يتولى الخلافة سعد بن عبادة.. وكان اجتماعهم فى سقيفة بنى ساعدة، وعلم أبو بكر وعمر بذلك، فتوجها إلى هذه السقيفة، ودار حوار بينهما وبين الأنصار، وانتهى الأمر بمبايعة الصديق بالخلافة..

وكان على بن أبى طالب وابن عمه الفضل بن العباس وعمه العباس، وقثم بن العباس، مشغولون بجهاز الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد غسل الرسول الكريم يوم الثلاثاء بعد مبايعة الصديق بالخلافة.. غسل وعليه قميصه، وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره.. وأخذ المسلمون يدخلون عليه يودعونه الوداع الأخير، ويصلون عليه بلا إمام..

ودفن عليه الصلاة والسلام فى منتصف ليلة الأربعاء فى نفس المكان الذى قبض فيه..

وكان قد اختلف فى أى مكان يدفن رسول الله، وحسم أبو بكر هذا الخلاف بقوله انه سمع الرسول الكريم يقول:

- «ما يقبض نبى إلا ودفن حيث قبض»..

والذين نزلوا قبره عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ.

وقد عبر على بن أبى طالب عن مشاعره تجاه ابن عمه العظيم، ونبيه الجليل بقوله:

- «لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء.. لولا إنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانقذنا عليك ماء الشئون ومكان الداء مماطلا، والكمد محالفا، ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه.. بأبى أنت وأمى.. أذكرنا عند ربك.. واجعلنا من بالك»

ويودعه بتلك الكلمات المعبرة الحزينة:

- إن الصبر لجميل إلا عنك، وأن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وأنه قبلك وبعدك لجلل..

و.. مضت أيام رسول الله ﷺ.. أعظم إنسان عرفه الوجود فى كل العصور.. غادر دنيانا.. بعد أن أثار القلوب.. وحث على العلم وجعله

فريضة على كل مسلم ومسلمة.. وكان قدوة وإماما للمتقين فى كل زمان وكل مكان..

غادر دنيانا اليتيم الذى زرع الرحمة فى القلوب، وراعى الغنم الذى أقام أعظم دولة عرفها التاريخ..

انتقل إلى الرحاب القدسية.. من أشاع فى الناس أعظم المبادىء وأنبل القيم.. وأضاء العقول.. وأيقظ الضمائر.. ورسم المنهج الذى يجعل من الإنسان إنسانا فى كل عصر وفى كل آن..

جاء إلى الدنيا والظلام يغطى كل شىء.. وغادرها والنور يشرق على كل شىء..

وسيظل حيا فى قلوب كل الذين آمنوا برسالته، وعرفوا قدره العظيم، وما جاء به من الله عز وجل علاه من تشريف وتقدير..

وستظل رسالته متمثلة فى الكتاب والسنة نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!.

.. و.. سلام عليك وصلاته يا آخر الأنبياء والمرسلين.

* * *

المراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخارى.
- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير
- تاريخ الأمم والملوك. للطبرى
- السيرة النبوية. لابن هشام
- إحياء علوم الدين. للغزالى
- الملل والنحل.. للشهرستانى
- الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام. د. على عبد الواحد وافى
- إعجاز القرآن. للباقلانى
- الأصنـــام. لابن الكلبى
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين. لعباس محمود العقاد.
- محمد. د. محمد حسين هيكل
- خاتم النبيين. الشيخ محمد أبو زهرة.
- الإصابة فى أسماء الصحابة. لابن حجر.
- الله. عباس محمود العقاد.
- شرح نهج البلاغة. ابن أبى الحديد.

- نبى البر (المختار من سيرة ابن هشام). تحقيق إبراهيم الإبيارى.
- رياض الصالحين. الإمام يحيى بن شرف الدين النووى.
- القرآن والمرأة. الشيخ محمود شلتوت.
- سيرة النبى العربى. أحمد التاجى.
- السقيفة والخلافة. عبد المقصود عبد الفتاح.
- فجر الإسلام. أحمد أمين.
- المرأة فى مجتمع الأنبياء. المهندس أحمد الجبالى.
- الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. د. عبد العظيم رمضان.
- محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار.
- الفتوحات العربية الكبرى. جون باجوت جلوب ترجمة. خيرى حماد.
- إسلاميات. خالد محمد خالد.

الخرائط:

عن كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب وترجمة خيرى حماد.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع
١٥٩٢٣ / ٩٩
I.S.B.N
977 - 294 - 167 - 8

مطابع آمون
٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٢٥٤٤٥١٧ - ٢٥٤٤٣٥٦